تراثنا
بين ماضٍ وحاضرٍ



معهد البحوث والدراسات العربية

تراثنا
بين ماضٍ وحاضر

محاضرات

ألقتها

دكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ
الأستاذة بجامعة عين شمس

على طلبة قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية

١٩٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــداء

إلى أستاذنا الإمام

أمين الخولى

فى قلوبنا ، وضمائرنا ، وعقولنا .

عائشة

مصر الجديدة

مارس ١٩٦٨

ذو الحجة ١٣٨٧

مـــدخل

وجودنا
بين القديم والجديد

المرحلة الدقيقة الحرجة التي تجتازها أمتنا العربية اليوم ، تحتاج إلى أن نعبيء لها كل طاقاتنا من وعى الذات والنضال عن وجودنا الحر والطموح إلى حياة أعز وأفضل . ونحن أمة عريقة ، يمتد تاريخها إلى ماض موغل فى القدم ، وقد مرت بها على مسار ذلك الزمن الطويل ، عصور ازدهار وانحطاط ، سايرت يقظتها ووعيها أو جمودها وغفلتها ، وهى لا تستطيع أن تحمى وجودها وتتابع سيرها على مراقى تقدمها ، مالم تستقرىء ماضى خطواتها على درب الزمن ، وتدرك سر قوتها وبقائها ، وعوامل ضعفها وتخلفها .

وقضية تراثنا تتسع أبعادها زماناً فتستوعب الماضى والحاضر والمستقبل ، كما ترحب مكاناً فتتجاوز حدود وطننا العربى إلى العالم الإسلامى الكبير . ثم إنها فى جوهرها قضية وجود ومصير من حيث تكشف عن حقيقة ذاتنا وآماد طاقتنا ، وتضيء لنا معالم الطريق وآفاق الطموح .

من هنا يأخذ موضوع « تراثنا » مكانه بين ما تشغلون به من قضايانا الحيوية المعاصرة التى تتجه إليها دراستكم فى هذا المعهد الجدير بأن يتصدى لحمل أمانة التراث المشترك ، والدعوة إلى وضعه فى موضعه الصحيح من معركة الوجود والمصير .

وقد يعطى الموضوع مزيداً من الأهمية ، أنه مظنة أن يحمل على الماضى وحده ويعزل عن حياتنا الجديدة : فحين يتحدث المتحدثون عن عزلتنا الفكرية ، يتجهون بها مباشرة إلى ما يشكون من قصور فى اتصالنا بجديد الفكر الغربى ، وقل فيهم من يشكو عزلتنا عن ماضينا نحن ، قريبه والبعيد .

وميدان الدراسات الجامعية ، يضج بأصداء الدعوة الملحة إلى تلبية حاجة

العصر والاشتغال بمشكلات الحاضر وقضاياه ، ويساء فهم هذه الدعوة فتتجه إلى الانفصام عن الماضى وتنكر العكوف على تراثه ، ويفوتها إدراكُ ما فى هذا الانفصام من خطر على وجودنا اليوم وغداً...

والكتاب والنقاد الذين يسيطرون على مراكز التوجيه للوجدان القومى والفكر العام،مشغولون بالبضاعة الحاضرة ، يتحرجون من الالتفات إلى التراث، معتذرين بأنهم إنما يعيشون يومهم ويعانون مشكلات واقعه .

ويغيب عنهم أن حاضرنا مشحون بما يحمل من ميراث هذا الماضى الذى تمكن فى أعماقه جذور ذاتنا .

* * *

وحين يذكر التراث ، يتجه القصد منه غالباً ، إلى نطاق محدود يحصره فى قديم المخطوطات من علوم العربية والإسلام . فهنا وهناك،وعلى امتداد الوطن الكبير ، تُوجَّه عناية قلت أو كثرت ،إلى خدمة تراثنا وإحيائه ، فإذا كل ما ينشر منه أو أكثره ، لا يعدو ذخائر العربية : لغة وبلاغة وأدباً ، والإسلام : عقيدة وشريعة وفلسفة وتاريخا . وننظر هنا وهناك وهنالك ، فإذا جمهرة المشتغلين من قومنا بتحقيق التراث ، هم من علماء العربية وفقهاء الإسلام والمتخصصين فى درس فلسفته وتاريخه .

ويخشى أن يرسخ فينا هذا الفهم القاصر المحدود لتراثنا ، فيغيب عنا أول ما يغيب : أن تراثنا يستوعب إلى جانب ذلك كله ، ما ترك أسلافنا من ثمار عقولهم فى مختلف فروع المعرفة وميادين العلم ، من طب وعقاقير وكيمياء ونبات ورياضيات وفلك ... إلى آخر هذه العلوم التى لا تكاد تجد من يعنى بتراثها أو يحس حاجتنا إلى إعداد خبراء يشاركون علماء العربية والإسلام فى حمل الأمانة الصعبة التى يفرضها علينا وجودنا .

وإذا كانت مهمة التراث الكشف عن جذورنا وعناصر أصالتنا وأسرار ذاتنا ، لكى يقدم الأساس الراسخ الوطيد لوجودنا الحاضر والمستقبل ، فيجب أن يتأصل الإدراك بأن تراث الأمة لا يقف عند بداية التاريخ الإسلامى الذى جمعنا فيه اللواء الموحد ، وإنما يمتد مع ماضيها إلى ما قبل ذلك موغلا فى أعماق

الزمن : فماضى كل الشعوب التى أسلمت وتعربت، هو من ماضى هذه الأمة . وكل الحضارات الفكرية والمادية التى ازدهرت فى أرض وطننا، هى فى الواقع التاريخى ميراثنا جميعاً، نحن الذين عرّفنا التاريخ من القرن الأول الهجرى أمة واحدة !

وهذا الإدراك الواعى، يصحح ما شاع فينا من أن مكاننا فى التاريخ الحضارى، لم يأخذ دوراً قيادياً إلا فى العصر الوسيط حين كان الشرق الإسلامى مناراً للعلم والمعرفة والتمدن ،وأوربا غارقة فى ظلمات عصورها الوسطى . وهذا القول الشائع نشأ عن جهل أو تجاهل للواقع التاريخى الذى يشهد بأن الأمة العربية فى العصر الإسلامى ، قد اندمجت فيها كل الشعوب التى تعربت ، فصار ماضيها كله ، من ماضى هذه الأمة ، كما صار تراثها الفكرى والحضارى ، ميراثا لهذا الوطن الكبير .

ومن ثم لم يجز أن نقف بالتراث عند حد زمنى أو مكانى يحصره فى نصوص الأدب الجاهلى وذخائر علوم العربية والتاريخ الإسلامى، بل تمتد أبعاده فتستوعب التراث القديم لكل أقطار وطننا ، على امتداد الزمان والمكان . . .

فيدخل فيه مثلُ نصوص البردى المصرى ، كما تدخل فيه النصوص التى كشفت عنها الحفريات الأثرية فى بابل وآشور واليمن والمغرب العربى الإفريقى . . .

من حيث هى مادة تاريخية لماضى هذه الأمة الواحدة ، يأخذ مكانه مع تراثها المشترك من العصر الجاهلى ، وتراثها الحى من التاريخ الإسلامى ، إذ تتماحى الحدود والفواصل ونلتقى فكراً وروحاً ومزاجاً ولساناً ووجداناً ، ونتحد وجودا ومصيراً :

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا
بالرقمتين وبالفسطاط إخوانى

* * *

وقد يبدو هذا المفهوم الشامل لتراثنا غريباً علينا ، لكنه لم يكن كذلك

فى القرون الإسلامية الأولى ، حين كانت أمتنا فى أوج قوتها وازدهارها . لقد اتسع أفقها الرحب لهـــذا الشمول ، فلم يكن تراث العصر الجاهلى ، يعنى العرب الخاص وحدهم ، دون الشعوب التى أسلمت وتعربت . ولم تقم حركة جمعه وتدوينه على أيدى الذين ينتمون بأصولهم إلى الجزيرة العربية وحدهم ، وإنما شارك فيها بالقدر الأكبر ، من دخلوا فى الإسلام وأظلهم لواؤه . كذلك لم تقف حركة إحياء التراث على آثار الجاهلية وعلوم العربية والإسلام ، بل نشطت إلى جانبها حركة تعريب التراث العلمى لشعوب الدولة الإسلامية الكبرى ، واتسعت فاستوعبت تراث اليونان ، عن وعى مدرك أن الفكر اليونانى لم يبدأ من نقطة الصفر ، وإنما سبقته حضارات شرقية رائدة عريقة وأعطته ميراثها ، كحضارة وادى النيل ووادى الرافدين والهند . .

وما من ريب فى أن هذا الشمول ، كان مظهرا لوعى الأمة لذاتها ، بقدر ما كان مهيئا لدورها القيادى بالحضارة الإسلامية .

الفصل الأول

تراثنا
من قديمه البعيد
إلى عصر الحضارة الإسلامية

- حركة الجمع والتدوين لتراث الجاهلية
- تراث الدولة الإسلامية الكبرى
- رصيد المكتبة العربية في عصر الحضارة الإسلامية



يمكن القول بأن حركة جمع الشعر الجاهلي وتدوينه، كانت أول حركة تاريخية جادة لحماية التراث ونشره. وقد ظل تراث الجاهلية ينقل شفاها من قديمه المعروف لنا، قبل الإسلام بنحو قرنين، إلى أن ظهرت الحاجة الماسة إلى جمعه وحمايته. فاتجه الاهتمام إليه من النصف الثاني للقرن الأول الهجرى، ثم ازدهرت الحركة فى العصر العباسى الأول، وأخذت وضعاً قومياً ودينياً بالغ الخطر.

وخلال تلك المرحلة الأولى التى امتدت نحو ثلاثة قرون وبعض قرن، كان الشعر خلالها يروى شفاها من جيل إلى جيل، تعرض تراث الجاهلية لآفات الرواية النقلية، يُحمل عليه ما ليس منه، وضاع منه ما ضاع فى غمار الزمن ومتاهة النسيان.

حتى تصدت الطبقة الأولى من الرواة فى عصر التدوين، لاستنقاذ تراث العربية من الضياع والتشويه والانتحال، فى مواجهة التيار الشعوبى الذى خيف منه على لسان الأمة ولغة القرآن الكريم كتاب دينها، من فشو العجمة واختلاط الألسن وغزو الشعوبية.

وشدّ الرواة رحالهم إلى البادية والمناطق البعيدة نسبياً عن التيارات الوافدة ليجمعوا تراث الفصحى من أهلها، ويأخذوا من أفواه الأعراب الذين لم تفش فيهم العجمة ولم تختلط ألسنتهم، ما وعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد(١)

ولم يفت أولئك الرواةَ ما لحق بالشعر من آفات الوضع والانتحال، غير أن الحركة كان لها من الحرمة ما يصونها إلى حد كبير من عبث الأهواء وتزييف المرتزقة من الرواة(٢)، ويخضعها لرقابة دقيقة صارمة، كشفت عن أكثر الزائف والمنحول، وميزت رواةً عُرفوا بالضبط والثقة والأمانة، وجرحت آخرين اشتهروا بالتهاون أو الكذب والوضع.

---

(١) راجع كتاب (المزهر فى علوم اللغة) للسيوطى، وكتاب (الاستشهاد فى النحو) للأستاذ سعيد الأفغانى. ط دمشق

(٢) ابن سلام: طبقات الشعراء — الفصل الأول.

ذلك لأن حركة الجمع والتدوين ، قُصد بها أولَ ما قصد ، إلى حماية لسان الأمة وخدمة كتاب الإسلام وفهم ألفاظه وتوجيه إعرابه ولمح أسراره فى التعبير والبيان . وقد قامت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، على أيدى أئمة ثقاة من الخبراء ذوى البصر بالشعر ، يعرفون صحيحه من زائفه ، كما يعرف الجوهرى والصيرفى صنوف الجوهر والدراهم .

والذى فات أولئك الخبراءَ كشفُه من المنحول ، كان من مهارة التقليد بحيث يحمل خصائص الشعر القديم .

فبقدر حاجة الأمة إلى هذا التراث الأصيل للفصحى ، كانت جدية عملية الرواية وفحص المرويات وامتحان الرواة من الأعراب وغيرهم .

***

وجاءت حركة الجمع والتدوين بتراث ضخم ، عكف الدارسون عليه ، يستخلصون منه معجم ألفاظ العربية ، ويميزون قواعد نحوها واشتقاقها وضوابط شعرها ، وأساليبها البيانية وخصائصها فى التعبير .

وآخرون منهم اختصوا بدراسته ، فشغل منهم من شغل بشرح ألفاظه وتفسير غريبه ، واهتم غيرهم بتذوقه ونقده ، فأضافوا رصيدهم إلى المجموع من تراث الجاهلية .

واستحدثت الأجيال الإسلامية ، أنواعاً من التأليف فى علوم التفسير والحديث والفقه والعقائد والملل والنحل والفلسفة وتاريخ الإسلام والنظم الإسلامية وتراجم الأعلام وطبقات الرجال ، فتركوا لنا تراثهم الخصب فى علوم الإسلام ، وكان القدر الأكبر منه لمؤلفين من علماء الشعوب التى دخلت فى الإسلام وتعربت .

وتكفى مراجعة يسيرة لفهرست ابن النديم ، وكشف الظنون لحاجى خليفة(١) ،

---

(١) وانظر معهما : بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، وكراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى — الترجمة العربية — نشر جامعة الدول العربية .

للإلمام بذلك الرصيد الضخم من تراث العرب الذى أضاف إليه كل جيل رصيده من علوم العربية والإسلام ، إلى جانب ما تركوا من مؤلفات فى علوم محدثة ، كالفلك والجغرافيا والجبر والهندسة والطب والعقاقير والنبات ، انتفعوا فيها بتراث الشعوب الإسلامية التى حملته معها من قديمها ، وما نقلت حركة الترجمة من تراث اليونان وغير اليونان .

* * *

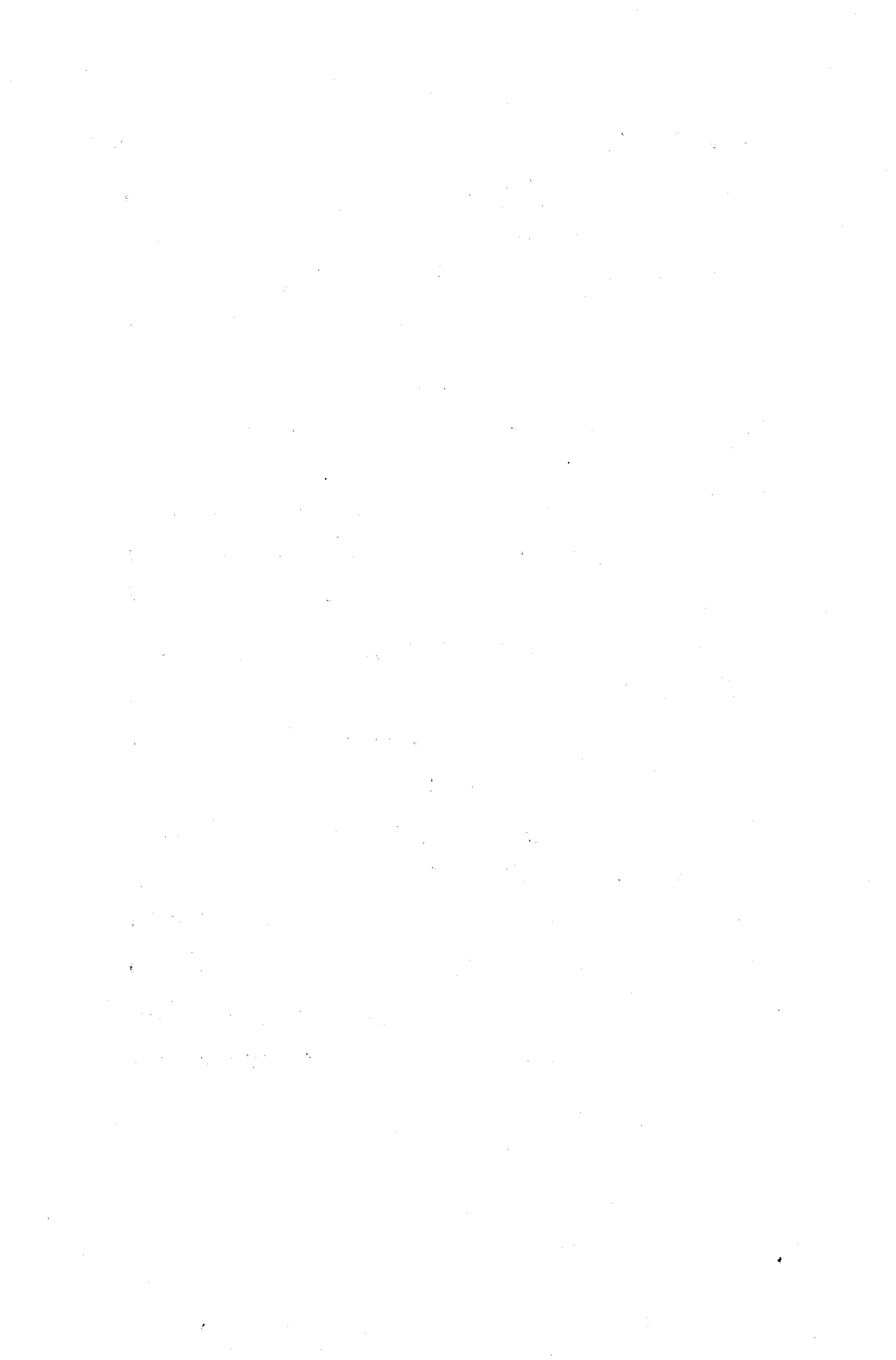
وما ينبغى أن يفوتنا الالتفات إلى أمرين ، لكى نقدر ذلك الجهد حق قدره:

أولهما : أن تلك النهضة الفكرية والعلمية سبقت عصر المطبعة وأجهزة الإعلام والدعاية والنشر ، فاعتمد الكتاب على الخط والنسخ فى الجمع والتدوين ، وفى التأليف والترجمة والنشر .

والأمر الثانى ، أنه فى الزمن الذى كانت فيه الدولة الإسلامية تبذل ذلك الجهد السخى لحماية التراث وترجمة العلوم ونشر الثقافة وخدمة الفكر ، كان الغرب الأوربى فى ظلمات عصوره الوسطى . .

* * *

ويعيى أىّ جهد أن يستوعب ذلك التراث الضخم على وجه التقريب ، ولا أقول على وجه الحصر والإحصاء . كما يضيق المجال هنا عن نظرة شاملة تحيط علماً بجملة ذلك التراث من المخطوطات ، فحسبنا أن نشير فى إيجاز إلى عدد من دور الكتب وخزائن التراث ، لا ننظر فيها إلا من حيث مكانتها المرموقة فى الدولة الاسلامية ، ودورها الجليل فى رسالتها الحضارية ، وما ضمت من ملايين الذخائر التى تعطينا فكرة عما خلف لنا أسلافنا من تراث ضيعناه !



دور الكتب الإسلامية
وخزائن التراث

لم تكن حركة إحياء التراث عملا فردياً يتطوع له الحريصـــون على حماية العربية والإسلام دينا ودولة ، وإنما تصدت الدولة لهذا العمل القومى الجليل ، فكان إنشاء دور الكتب العامة ، من أقوى الشواهد على تقدير الدولة للتراث العلمى والأدبى ، ووعيها لقيمة الكتاب وخطر رسالته .

ويشهد التاريخ للعرب بأنهم حرصوا منذ قامت دولتهم الإسلامية الكبرى ، على أن تكون المكتبات العامة حارسة للمخطوطات، ومدارسَ مفتوحة الأبواب لطلاب العلم. ورصدوا لها من الجهود والأموال ما جعلها مقصد العلماء والطلاب فى زمن لم يكن يعرف سوى الكتاب وسيلة لنشر الثقافة .

ولقد بدأت هذه العناية من عصر مبكر ، فما كاد العرب يؤسسون دولتهم حتى جدوا فى جمع تراثهم القديم وتدوينه ، ونشطوا فى التأليف فى علوم الإسلام. وسايرت هذا النشاط الجاد ، حركة منظمة لترجمة الآثار الفكرية والعلمية لمختلف الشعوب ذات الميراث الحضارى . ثم امتدت نظرتهم الثاقبة إلى الأفق العالمى الرحب ، فأقبلوا يجمعون ما عرفت الدنيا لعهدهم من كتب ذات بال .

والأمة العربية قد بدأت بالإسلام تخرج من جزيرتها حاملة لواءه الأغر، فما مضى ربع قرن من الزمن بعد الهجرة ، حتى كانت قد فتحت مصر والشام والعراق وأظل اللواء الواحد شعوبها وارثة حضارات الفراعنة والكلدانيين والآشوريين والفرس والفينيقيين . ثم أهلّ القرن الثانى للهجرة ، وقد امتدت الدولة إلى الشمال الإفريقى وتغلغلت فى الشرق الآسيوى .

وحدث تحول تاريخى خطير :

فهذه الشعوب كانت قد خضعت لحكم اليونان والفرس والرومان نحو ألف عام (٣٣١ ق.م : ٦٤٠ م) وحاول الغزاة عبثا أن يفرضوا عليها أديانهم وألسنتهم وقومياتهم ، فلقد تشبثت شعوب المنطقة بقومياتها وعقائدها ، وناضلت عنها فى استبسال ضد الغزو الجائح ، واحتملت فى سبيلها أبشع تعذيب واضطهاد .

وخرج الغزاة من المنطقة ، لم يتركوا وراءهم قومية يونانية أو فارسية أو رومانية ، وكأنما مثلهم ومثلنا ، قولُ الشاعر العربى القديم :

أحارثَ إنا لو تُساط دماؤنا تزايلن حتى ما يمس دمٌ دما !

وجاء الإسلام فتم له فتح هذه الأقطار فى أعوام معدودات ، وترك لها حرية العقيدة واللسان ، فلم تلبث شعوبها جميعاً أن انضوت تحت لوائه فى استجابة وطواعية ، وبدأت تتعرب من الجيل الأول بعد الفتح ، فلم تمض بضعة أجيال حتى تم تعربها ودخلت فيما يُعرف تاريخيا بدور العروبة الصريحة . (١)

ولا يستطيع التاريخ أن يجد تفسيرا لتماثل هذه الشعوب تاريخا ومصيرا ، وإجماعها على رفض الاندماج فى الغزاة ، ثم استجابتها للإسلام والعربية عن طواعية واختيار ، إلا أن يرده إلى وحدة جبرية ، هيأ لها تماثل فى العقلية والمزاج والمناخ وتقارب فى الأصل البعيد ، رسخ مع توالى الحقب والأدهار .

* * *

وبدأت الدولة الإسلامية تأخذ دورها القيادى للبشرية فى الحضارة المادية والمعنوية ، فكانت نهضتها الفكرية والعلمية من دعائم هذه الحضارة ، وكانت عنايتها بإحياء تراثها وتشييد دور الكتب ، تساير هذه النهضة مؤثرة فيها ومتأثرة بها .

* * *

(١) محمد عزة دروزه : تاريخ الجنس العربى ٣ / ٢١ ، ٤ /٩ ط بيروت .

وإذ نلقى نظرة سريعة على بعض دور الكتب العامة فى تلك العصور الإسلامية المبكرة ، أود أن أشير إلى محاولة جادة رائدة فى هذا الميدان ، استطاع بها المؤرخ اللبنانى « فيليب دى طرازى » أن يجمع ما تناثر وتبعثر فى ألوف المصادر ، من أخبار ومرويات عن خزائن كتبنا . وأثمر جهده الباذل المضنى ، سفرا جليلا فى مجلدات ثلاثة ، نشرته دار المعارف اللبنانية سنة ١٩٤٨ بعنوان « خزائن الكتب العربية فى الخافقين » .

وإذا كان الميدان بطبيعته يحتمل إضافات جديدة مما فات الأستاذ الكبير أن يذكره ومما كشفت عنه البحوث المعاصرة من أنباء دور أخرى كانت مجهولة لنا ، فالذى لا ريب فيه هو أن هذا السفر الجليل لا يزال مرجعا هاما لكل من يعنيهم أن يعرفوا كنوز ذخائرنا التى شهدها التاريخ تملأ ساحة الدولة الإسلامية وتشع نورها على بعيد الآفاق فتنسخ ظلمات الجهل .

* * *

وفى حدود ما يسمح به المجال هنا ، أقدم ثلاث دور منها فحسب، اتجه القصد فى اختيارها من بين الألوف من دور الكتب الإسلامية ، إلى لمح الجهود المتتابعة التى تعاونت على حمل العبء ، من مركز الدولة الإسلامية فى صميم المشرق الآسيوى على ضفاف دجلة ، إلى قلب العالم الإسلامى على ضفاف النيل ، ثم إلى أقصى المغرب الإفريقى بالأندلس على ساحل بحر الظلمات .

* * *

بيت الحكمة ببغداد :

حتى آخر عهد الخليفة المنصور (١٧٠ ه) ، كانت مخطوطات التراث ودفاتر العلم ، تحفظ فى قصر الخلافة ببغداد . حتى ضاق عنها على سعته .

ثم كان هرون الرشيد هو الذى اتجه إلى إخراجها من جدران القصر بعد أن تضخم رصيدها من التراث المدون والمخطوطات المؤلفة والمترجمة ، لتكون مكتبة عامة مفتوحة الأبواب للدارسين وطلاب العلم .

وبدأ فأسس داراً رحبة فخمة للمكتبة ، نقل إليها تلك الذخائر وسماها « بيت الحكمة » تقديراً لجلال رسالتها ، فكانت أكبر وأقدم المكتبات العربية العامة .

وفى بيت الحكمة ، خصص جناح للترجمة التى واصلت نشاطها غير مكتفية بما سبق نقله من تراث الفكر القديم ، وجىء بكتب الطب من أنقره وعمورية وبلاد الروم . وعهد بها إلى « يوحنا بن ماسويه » السوريانى المتعرب الذى قام بترجمتها ، يعاونه عدد من المترجمين والكتبة الحذاق . كما جىء بكتب الحكمة والفلك من فارس ، وعهد بها إلى أبى سهل الفضل بن نوبخت الذى نقلها من الفارسية إلى العربية ، مواصلا الحركة التى بدأها « ابن المقفع » بترجمة تراث الفرس . وأضيف إلى خزائن بيت الحكمة ، ماصنف علماء العربية والإسلام فى علومهم الأصيلة ، إلى جانب مادونوه من تراثهم المجموع .

ومات « هرون الرشيد » وبيت الحكمة زينة بغداد عاصمة العربية والإسلام ، ورصيده من ذخائر الكتب المؤلفة والمترجمة ، يعيد إلى الأذهان ذكرى مكتبة الإسكندرية الكبرى .

فلما ولى الخلافة « عبد الله المأمون » لم تشغله شواغل السياسة والحكم ، عن الاهتمام ببيت الحكمة ، فبعث رسله إلى آسيا الصغرى وقبرص والهند والحبشة فى طلب الكتب ، وجند المترجمين لنقل ما حُمل إلى بيت الحكمة من كتب يونانية

وسريانية وفارسية وهندية وإفريقية ، حتى بلغ ما أنفقته الدولة على ترجمة كتب اليونان وحدها ثلاثمائة ألف دينار فيما يروون . وتلقى بيت الحكمة ، جديدَ المصنفات العربية والإسلامية ، التى شارك فيها علماء من الفرس والروم ومصر وغيرها من أقطار الدولة ، ممن تعرب آباؤهم وأجدادهم بعد الفتح(١) .

ومن أشهر من تولوا منصب القيم على بيت الحكمة فى عصر المأمون « سهل بن هارون » الفارسى الأصل ، وكان تحت إشرافه مئات من المترجمين والخطاطين والنساخ ، وآخرون من المجلدين والمذهبين ، ذكر « ابن النديم » فى « الفهرست » أسماء مشهوريهم الذين برعوا فى فن تذهيب المصاحف وصناعة تجليد الكتب فى خزائن بيت الحكمة . كما ذكر أسماء مشهورى المترجمين من العصر الأموى إلى عصر المأمون .

وظل بيت الحكمة ببغداد ، وكان يدعى أيضاً دار العلم ، مزاراً للعلماء من أنحاء الدولة الإسلامية الكبرى ، ومقصداً لطلاب العلم والمعرفة ، لمدى قرون خمسة تقريباً . وقد كان علماء العربية والإسلام خارج العراق ، يجعلون رحلتهم إلى بغداد واجباً علمياً ، ليحجوا إلى بيت الحكمة ويطلعوا على ما بها من نفائس المخطوطات فى زمن لم تكن المطبعة فيه قد عرفت ، لتيسر الإعلام عن هـذه النفائس والتعريف بها ونشرها .

حتى لقيت مصيرها الفاجع مع سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، على ما سوف نشير إليه فى الحديث عن محنة تراثنا .

---

(١) جمال الدين القفطي : إعلام العلماء بأخبار الحكماء : ٣٨٠ .

مكتبة العزيز بالله الفاطمى بالقاهرة :

قامت دولة العبيديين الفاطمية فى المغرب الإفريقى مستقلة عن الخلافة العباسية ومناوئة لها . وقد امتد سلطان الدولة الفتيـة من منتصف القرن الرابع الهجرى إلى مصر والشام والحجاز واليمن ، وأوشك أن يهدد الدولة العباسية فى مركزها الرسمى بالعراق . ولم يكن مابين الدولتين صراعاً سياسياً ومذهبياً فقط ، بل كان كذلك تنافساً على النفوذ الأدبى والفكرى . وكما أسس أبو جعفر المنصور العباسى مدينة بغداد قبيل منتصف القرن الثانى الهجرى عاصمة لدولة العباسيين ، أسس المعز لدين الله الفاطمى مدينة القاهرة عاصمة لدولة الفاطميين ، إثر دخولهم مصر ظافرين بعد منتصف القرن الرابع للهجرة . وكما ازدانت بغداد بدار الحكمة التى أكسبتها مجداً وعزاً وجذبت إليهـا العلماء والطلاب من مختلف أقطار العالم الإسلامى الكبير ، حرص الفاطميون على أن تزدان القاهرة بمكتبة تضارع بيت الحكمة عظمة وشهرة .

وقد تم إنشاء هذه المكتبة القاهرية فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، الذى تولى الخلافة سنة ٣٦٥ ﻫ بعد المعز لدين الله مؤسس الدولة الفاطمية بمصر وبانى عاصمتها القاهرة (٣٥٩ﻫ ، ٩٧٠م) وجامعها الأزهر (٣٦١ﻫ ، ٩٧٢م) .

والأخبار التى وصلت إلينا عن هذه المكتبة ، تشهد بأن العزيز بالله كان شديد الولع باقتناء الكتب والحرص على جمعها والاستكثار منها ، وبذل الأموال الطائلة لها . وكانت الكتب على عهده ، لاتزال تكتب بخط القلم ، فيتكلف نسخها من الجهد والمال والوقت ، مايجعل عدد النسخ من الكتاب محدوداً ، ويذكرون مع ذلك أن مكتبة العزيز بالله لم تكن تقنع بالعدد القليل من نسخ الكتاب الواحد ، بل تستكثر منها قدر المستطاع . وفى تاريخها أنهـا كانت تقتنى فى أول عهدها ثلاثين نسخة خطية من (كتاب العين للخليل بن أحمد) وهو من أوائل المعاجم اللغوية للعربية ، ومائة نسخة من (كتاب الجمهرة لابن دريد) وهو من أصول كتب اللغة ، وعشرين نسخة من (كتاب تاريخ الأمم والملوك) للطبرى عميد مؤرخى الإسلام القدامى .

وقد نمـا رصيد المكتبة من هذه المخطوطات ، حتى بلغت نسخ تاريخ الطبرى فى آخر خلافة الفاطميين ، ألفا ومائتى مخطوط ،

واختلف المؤرخون فى التقدير الإحصائى لرصيد مكتبة العزيز بالله ، فمن قائل إنها كانت تقتنى مائتى ألف كتاب ، ومنهم من وصل برقم الرصيد إلى مليون وستمائة ألف ، منها ستة آلاف وخمسمائة كتاب فى النجوم والهندسة والفلسفة واثنا عشر ألفا من مصنفات العلوم الأخرى مترجمة ومؤلفة .

وهذا التفاوت بين رقمى الرصيد ، مابين مائتى ألف ، ومليون وستمائة ألف ، لفتت المحدثين من مؤرخى الحضارة الإسلامية . ويظن « جورجى زيدان » أن فى هذا الرقم الثانى التباساً من حيث المقصود بخزانة الكتب القاهرية فى عهد العزيز بالله : أهى مكتبته منفردة ، أم معها خزائن الكتب الأخرى التى اقتناها أمراء البيت الفاطمى وأعيان الدولة بالقاهرة ، اقتداء بالخليفة ؟ (١)

وليس هذا الاحتمال فى تفسير التفاوت الإحصائى ، بأقرب من القول بأن يكون الرقم الأول (مائتا ألف) للرصيد العددى لكتب المكتبة ، ويكون الرقم الآخر (مليون وستمائة ألف) لعدد المجلدات ، بما فيها من نسخ متعددة أو مكررة من الكتاب الواحد ، وغير مستبعد أن تصل المجلدات برقم الرصيد إلى أكثر من مليون ونصف مليون مجلد ، وفى المكتبة ألف ومائتا نسخة من (تاريخ الطبرى) مثلا .

وقد يظن أن هذه المكتبة العامرة ، إنما شيدت استكمالا لأبهة السلطان دون القصد إلى النفع العام ، وأن الخليفة أمر بحشد أكداس الكتب فيها ، إرضاء لشهوة الاقتناء دون أن يحفل بأمرها ، كمثل ما فعل سلاطين آل عثمان فى عصر متأخر . لكننا نقرأ فى (وفيات الأعيان لابن خلكان) أن العزيز بالله كانت له عناية خاصة بخزانة كتبه ، يتعهدها بنفسه حيناً بعد حين . وقد عين لها قيما يتولى شئونها كان يجالسه ويقرأ له فى الكتب (٢)

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى : ط دار الهلال بالقاهرة .

(٢) ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ترجمة العزيز بالله .

وتنقل الأخبار عنها ، أنها كانت دقيقه التنظيم والتنسيق ، ولها فهارس وقوائم مكتوبة بخط (ابن مقلة) و (ابن البواب) من مشاهير خطاطى العصر. كما كانت المكتبة تقتنى مع ذخائر المخطوطات ، خرائط جغرافية وأجهزة علمية هندسية وفلكية ، مما اخترعه علماء الدولة الإسلامية (١) . فكانت المكتبة مفخرة من مفاخر القاهرة فى عصر الفاطميين ، حتى لقيت مصيرها مع سقوط دولتهم فى أواسط القرن السادس الهجرى بعد طول احتضار .

---

(١) محمد كردعلي : خطط الشام ٦ | ١٩٨ ط دمشق .

مكتبة الزهراء بقرطبة :

حين بدأت دولة العباسيين بالمشرق سنة ١٣٢ هـ ، كانت هناك دولة عربية إسلامية جديدة ، فى طريقها إلى الظهور بأقصى المغرب الإفريقى . وتعرفون أن الدولة العباسية قضت على بنى أمية الذين تولوا الحكم بعد عصر الخلفاء الراشدين ، فلم ينج من الأمويين إلا نفر قليل أفلتوا من المصير الفاجع . ومن هذه القلة الناجية ، كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، الذى اشتهر فى التاريخ بلقب « عبد الرحمن الداخل » منذ دخل الأندلس بعد سقوط أسرته الأموية ، فشيد هناك دعائم ملك شامخ عتيد ، وأسس للعرب وللإسلام دولة مجيدة عاشت نحو ثمانية قرون ، وكانت فى عصر قوتها ووحدتها منارا حضاريا أضاء للغرب الأوربى ظلمات عصوره الوسطى ، وزوده بمدد سخى من كنوز الفكر الإسلامى والثقافة العربية ، كانت من أهم المعابر التاريخية للحضارة من الشرق إلى الغرب .

وقد بلغت دولة الأمويين بالأندلس أوج مجدها فى عهد عبد الرحمن الناصر ، ثامن خلفائهم من بنى عبد الرحمن الداخل . وامتدت خلافة الناصر من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ كانت قرطبة فيها العاصمة الكبرى للعلم والأدب والفن وإليها كانت رحلة طلاب العرب ، من شرق وغرب . وقضت سنن الحياة أن مثل ذلك الملك الشامخ لا يمكن أن ينهض على القوة السياسية والمنعة الحربية والتمدن العمرانى ، مالم تؤيده دعائم راسخة من نهضة علمية وازدهار فنى . وذلك ماأدركه عبدالرحمن الناصر ، فلم يكتف بما تهيأ للدولة فى عصره من ذلك كله ، بل حرص أشد الحرص على أن يعد ابنه وولى عهده « الحكم الثانى » ليدعم البناء الحضارى الذى شيده أبوه عبد الرحمن الناصر ، ووضع أسسه الأولى جده عبد الرحمن الداخل .

واستحضر الناصر لولده الحكم أئمة العلماء وأقطاب الأساتذة ، فشغف بالعلم

وأقبل على مجالسة العلماء ، فما تولى الخلافة ملقباً بالمستنصر بالله، بعد أبيه الناصر، حتى كان أعلم بنى أمية بالأندلس .

وفى عهد المستنصر ، تم تشييد مكتبة قرطبة الكبرى فى قصر الزهراء المشهور، فلم يمض على تشييدها بضعة أعوام حتى صارت من كبريات دور الكتب العربية فى التاريخ . ويقول المقرى — مؤرخ الأندلس — فى كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) إن المستنصر «كان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار، رجالا من التجار . ويرسل إليهم الأموال لشرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه »(١) .

وبلغ من شغفه بالكتب وسخائه فى البذل لها ، أن كان يتتبع أنباء مايظهر من جديد المؤلفات ونوادر المخطوطات ، ويسعى فى سبيل جلبها إلى مكتبة الزهراء من ذلك مايذكره مؤرخوه ، أنه لما بلغه أن أبا الفرج الأصفهانى أتم تصنيف كتابه « الأغانى » بعث إليه من قرطبة ألف دينار ذهبا ثمنا للمخطوط ، فأرسل إليه أبو الفرج من بغداد نسخة منه قبل أن ينشره فى العراق . وفعل المستنصر مثل ذلك مع القاضى أبى بكر الأبهرى إمام زمانه فى الفقه المالكى ، وتلقى منه نسخة خطية من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم فى فقه الإمام مالك(٢) .

ولم تقتصر عناية المستنصر بالله على تزويد مكتبته بذخائر المخطوطات وكنوز العلم ، بل زودها كذلك بأشهر الخبراء والكتبيين وحذاق الخطاطين والنساخ والمشتغلين بالفنون والصناعات المكتبية

وفى كتاب نفح الطيب ، للمقرى المتوفى سنة ١٠٢٧ ﻫ : « أن المستنصر بالله جمع بدار الكتب الحذاق فى النسخ والمهرة فى الخط والضبط والإجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله . واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، إلا مايذكر عن الناصر بن المستضىء »(٣) .

(١ : ٣) نفح الطيب : ج ١ / ١٨٠ ط الأزهرية المصرية .

ونشطت حركة الترجمة فى عهد المستنصر بالله كما نشطت فى عصر الرشيد والمأمون بالمشرق ، مع فرق واضح قضت به طبيعة الظروف وتفاوت الأوضاع : ففى بغداد اتجهت الترجمة إلى النقل عن اللغات القديمة غير العربية . أما فى قرطبة فكان النقل عن اللغة العربية إلى لغات الفرنجة وبخاصة اللغتين الأسبانية واللاتينية. وكما كان المتعربون فى المشرق يجيدون لغاتهم الأولى وكثرتها شرقية ، كان كثير من أهل الأندلس يتقنون الأسبانية واللاتينية . ونضيف إلى هذا الفارق بين البيئتين ، أن المكتبة العربية الأولى فى بغداد ، اهتمت بالانتفاع بتراث الفكر القديم ، لتغذى الفكر الإسلامى بروافد سخية من ماضى المعرفة ، أما فى الأندلس ، وقد نهضت بغداد بهذا العبء على خير وجه فلم تترك لقرطبة مجالا فيه ، كان الاتجاه إلى نشر الثقافة العربية التى بلغت عز نضجها وأوج نهضتها . وأقبل الغرب على ورود هذا المنهل السخى ، حين كان الدور القيادى إذ ذاك للحضارة الإسلامية . وإلى قرطبة سعى طلاب العلم من أوروبا يدرسون فى معاهدها وينقلون من ذخائر خزائنها . ومن أشهر هؤلاء الطلاب ، البابا سلفستر الثانى ، وكان فى شبابه قد رحل إلى الأندلس وأقام هناك يدرس العلم وينهل من منابع الفكر . وعكف على مطالعة ذخائر مكتبتها ، وعاد إلى إيطاليا مزوداً بأعلى ثقافة فى عصره ، فاعتلى كرسى البابوية فى أخريات القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) .

وفى مكتبة الزهراء ، وفى غيرها من دور العلم بالأندلس ، ترجمت إلى اللاتينية كتب الأدوية والطب والجراحة ، مثل كتاب الأدوية البسيطة لابن الوافد — الطبيب العربى الأندلسى : ٩٩٧ م — وقد ترجم إلى اللاتينية نحو خمسين مرة ، وكتاب الجراحة لأبى القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى — ١٠١٣ — وقد بقى أساسا للتعليم الجراحى بأوروبا لبضعة قرون . كما نقل تراث اليونان إلى أوروبا عن ترجماته العربية . ومن أعلام مترجمى العصر الأندلسى ، من العربية إلى اللاتينية ، جيرار دى كيمونا (١١١٤ : ١١٨٧ م) الذى نقل من العربية نحو سبعين كتاباً ، منها فلسفة الكندى والفارابى وقانون ابن سينا وعلم النجوم لجابر بن أفلح وكتب أرسطو وجالينوس .

وليس المجال هنا لإحصاء ما نُقل إلى أوروبا من ذخائر المكتبة العربية ، وإنما هى لمحة عابرة اقتضاها سياق الحديثة عن حركة الترجمة فى عهد المستنصر مؤسس مكتبة الزهراء بقرطبة ، وما اقتضته ظروف الزمان والمكان من الاتجاه بالترجمة إلى نقل ذخائر الكتب من العربية إلى الاسبانية واللاتينية .

وقد يلفتنا ملحظ آخر ، من الظواهر المميزة للبيئة الأندلسية . فى تاريخ دار العلم أو بيت الحكمة ببغداد ، لا نكاد نعثر على اسم امرأة فى خدمة هذا الصرح العلمى ، اللهم إلا عبارة وردت فى (رسالة الغفران) تشير إلى أَمَة غير عربية اسمها «توفيق السوداء» كانت تخدم فى دار العلم ببغداد فتقدم الكتب إلى النساخ . وهذه الوظيفة تقابل فى المكتبة الحديثة ، ما يعرف بالمناولين .

على حين نقرأ فى تاريخ قرطبة الثقافى ، أنه «كان بالربض الشرقى منها ، مائة وسبعون امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفى(١).»

وكما اختلف المؤرخون فى إحصاء ذخائر مكتبة العزيز بالله فى القاهرة، اختلفوا كذلك فى إحصاء رصيد مكتبة الزهراء فى قرطبة . ففى (نفح الطيب) أنها كانت أربعمائة ألف مجلد(١)، وفى رواية أخرى نقلها «وليم درابر» فى كتاب (الخصومة بين العلم والدين) أنها بلغت ستمائة ألف مجلد .

وكان لها فهارس منظمة ، بلغت أربعة وأربعين مجلدا . وذكر «ابن خلدون» أن أسماء دواوين الشعراء فى مكتبة قرطبة، كانت تملأ وحدها ثمانمائة وثمانين صفحة، مما يشهد بضخامة رصيد المكتبة ، وأخذها بنظام الفهرسة التى قد يُظن أنها من مستحدثات النظم المكتبية العصرية(٢) .

* * *

واللافت حقاً، أن تأسيس مكتبة الزهراء بقرطبة، يكاد يعاصر تأسيس مكتبة العزيز

---

(١) ، (٢) المقرى : نفح الطيب — ١ / ١٨٤ .

بالله فى القاهرة . فقد ولى المستنصر بالله الخلافة الأموية بالأندلس من سنة ٣٥٠ﻫ إلى سنة ٣٦٦ ﻫ وهو العام التالى لخلافة العزيز الفاطمى بمصر . وكما عد المؤرخون عهد الرشيد وابنه المأمون عصر القوة فى الدولة العباسية ، عدوا كذلك عهد المعز لدين الله وابنه العزيز بالله، عصر الازدهار للدولة الفاطمية ، وعهد الناصر وولده المستنصر بالله ، العصر الذهبي لدولة العرب والإسلام بالأندلس .

وهنا وهناك وهنالك، كانت النهضة العلمية تساير عصور القوة للدول الثلاث، وكانت دار العلم فى بغداد ، ومكتبة العزيز فى القاهرة ،ومكتبة الزهراء فى قرطبة، عنوان هذه النهضة ورمزاً معبراً عنها وآية من آيات عزها .

كما كانت دور الكتب العامرة فى المشرق ، ومن أشهرها : مكتبة المدرسة النظامية ، وخزائن كتب النجف الأشرف ، وخزانة سيف الدولة فى حلب ، والمدرسة النورية ومكتبة أبى الفدا فى حماة ، والظاهرية فى دمشق ، وبنى عمار فى طرابلس .

وفى المغرب مكتبات : الجامع الأعظم فى القيروان ، وجامع الزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى فاس ، والحكمة فى مراكش ، والجامع الأعظم فى مكناس .

كانت هذه الدور الثقافية وأمثالها مما لا يتسع المجال لسرده ، تعطى تفسيراً تاريخياً لهذه النهضة التى حملت أمتنا لواءها فى العصر الوسيط (١) .

---

(١) تجد تفصيل الحديث عن هذه المكتبات وغيرها ، فى المجلد الأول من (خزائن الكتب العربية) .



محنة تراثنا

- الغزو الصليبي
- الصراع المذهبي
- الإعصار التتري
- عصور الظلام



أين ذهب هذا التراث كله ؟

سنة الحياة التى جعلت من عصور القوة فى الدولة الإسلامية ، عصورازدهار لحضارتها العلمية والفنية والعمرانية ،

هى نفسها التى عرضت تلك الدور العلمية العامرة ، لمثل ما تعرضت له الدولة فى عصور ضعفها وانحدارها .

وواجهت معها نهاية واحدة ، بحكم ارتباطهما بحتمية المصير الواحد .

وبدأ التحول مع نهاية القرن الرابع ، الذى هو فى حساب المؤرخين عصر القوة للدولة الفاطمية بمصر والشام ، والدولة الأموية بالأندلس. وإن كان وهج الازدهار الساطع قد أخفى عوامل الضعف إلى حين ، ريثما نمت بذورها الكامنة فى الأعماق تحت السطوح البادية :

فقوة هذه الدول الإقليمية ،كانت على حساب القوة المركزية للخلافة بالعراق. والخلايا المستقلة كانت تكبر وتتضخم ؛ على حساب الكيان العام الذى بدأ يضمر ويضمحل .

ثم إن الدولات الطارئة كانت تحمل فى ذاتها عوامل ضعفها وتدميرها ،بحكم ارتباطها بمصير القادة أو الأمراء الذين استقلوا بها وأقاموا لهم فيها دولات .

والصراع المذهبي والشعوبى ، قد فتح ثغور الشرق الإسلامى لتيارات عاتية من الغزو الأجنبي ، صدها الشعب بما بقى له من قوة لكنها استنفدت طاقات الدولة وأسلمتها إلى ظلمات ليل طويل.

وإذ نركز نظرتنا فيما لقيت مكتبات بغداد والقاهرة وقرطبة ، نستطيع أن نلمح من بعد مجرى الأحداث التى هزت من كيان الدولة العام .

كما نستطيع أن نجد جواب السؤال :

— أين ذهب كل ذلك التراث الذى جمعته أمتنا فى عصر قيادتها للحضارة ، وعمرت دور كتبها بالملايين من ذخائره ؟

* * *

فى حملات الغزو الصليبي ، تلفت من تراثنا ذخائر لا تعوض . إلى جانب ماحمل إلى الغرب منها مع الغزاة .

ثم لما انكسرت موجات الصليبية على سواحل مصر والشام ، بفضل الجبهة الموحدة فى قلب الشرق الإسلامى ، لم تنجُ بقايا تراثنا من معارك الصراع المذهبي الذى احتدم ضرامه علىساحة الدولة الكبرى . فحيثما أتيح لأصحاب مذهب مجالُ نفوذ وسلطان ، ألحوا على كتب خصومهم حرقا وإتلافا ،على ما يسجله تاريخنا السياسى والمذهبي . ومع أن مثل هذا التدمير كان موجها بصفة خاصة إلى كتب المذاهب ، إلا أن لهب الحريق لم يكن يميز بينها وبين غيرها . وقد كان الحكام المذهبيون يريحون أنفسهم بإحراق الكتب جملة ، لتعذر فحص الملايين منها ، إلا أن يتاح لهم — فى القليلالنادر — مستشار رشيد ، ينقذ ذخائر التراث التى لا شأن لها بصراع المذاهب .

وفى هذا الصراع المذهبي ، لقيت مكتبة العزيز بالله ، وكل دور الكتب بمصر الفاطمية ، مصيرها الفاجع مع سقوط الفاطميين وذهاب سلطانهم بعد أن عانت معها فترة قلق عاصف واحتضار بطىء .

كانت مكتبة العزيز بالله ، قد آلت إلى ابنه « الحاكم بأمر الله » فشيد إلى جانبها مكتبة أخرى عرفت بدار العلم ، جمع لها علماء العصر ونفائس الذخائر فكانت أعجوبة الزمان . ثم كان الحاكم بأمر الله ، هو الذى أغلقدار العلم وغدر بالعلماء فاهتز الصرح الشامخ ، أثرا لفتنة مذهبية بين رجال العلم والسياسة ، وفى أيام الخليفة المستنصر بن الظاهر العلوى (٤٢٧ هـ) تمرد الجنود الأتراك يطالبون زيادة مرتباتهم التى قاربت نصف مليون دينار . ولما عجز السلطان عن إجابة مطالبهم أرغموه على بيع كنوز قصره التى جمعها آباؤه وأجداده منذ تأسيس

دولتهم الفاطمية ، وسطا الجنود على ذخائر الكتب فى مكتبة العزيز ودار العلم والجامع الأزهر ، فحملوا منها ما حملوا وباعوه فى الأسواق بأبخس الأثمان . واتخذت جلودها الثمينة نعالا ! ونجت بعض الذخائر بفضل عدد من أهل القاهرة تطوعوا بشرائها ليصونوا تراث العربية والإسلام ، وتوزعت هذه الذخائر على المكتبات الخاصة وبعض الزوايا والمساجد الأهلية . حتى سقطت الدولة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وأعيد فتح دار العلم ومكتبة الأزهر ، لكن نفراً من رجال الدين أشاروا على « صلاح الدين » بإتلاف تراث الفاطميين من الكتب ، لأن فيها ضرراً على الإسلام . واستجاب لهم صلاح الدين فأمر بإتلافها ، فيما عدا ما أنقذه وزيره « القاضى الفاضل » منها ، وقد أذن له صلاح الدين فى اختيار الكتب التى تخلو من الأهواء المذهبية ، مطمئناً إلى خبرته وعلمه وأمانته . وبهذه الكتب ، عمرت مكتبة الجامع الأزهر ، والمكتبة الفاضلية ، إلى جانب ما شيد من مكتبات ألحقت بالمساجد التى أقبل المسلمون على بنائها للعبادة ، فكانت فى الوقت نفسه مدارس للعلم ، عمرت زمانا حتى دخلت البلاد مع العصر التركى فى ظلمات الليل .

* * *

وننظر إلى المشرق ، حيث كيان الدولة مثخناً بالجراح من أثر الفتن المذهبية والتمزق الشعوبى وانتثار القوى ، فنلمح مع مطلع القرن السابع ، نذر الخطر تأتى هذه المرة مما وراء النهر ، فى أقصى المشرق ، ثم لا تلبث جيوش « هولاكو » أن تندفع كإعصار مارد ، فتتهاوى حصون الشرق الإسلامى حصناً فى إثر حصن . واجتاح الإعصار التترى خراسان وفارس كلها ، ودمر فيما دمر مالا يحصى من صروحنا العلمية وكنوز ثقافتنا ومعالم حضارتنا : فى بخارى ونيسابور والرى وأصفهان . ثم اكتسح العراق فسقطت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية سنة ٦٥٦ هـ . وبدا ألا عاصم عندئذ من الهلاك ، وظُن أن الإعصار سوف يندفع فى طريقه لا يلوى على شىء ، حتى يبلغ أقصى مدّه عند أطراف العالم الإسلامى على ساحل المحيط الأطلسى ، مدمراً فى طريقه كل تراث العرب والإسلام ، لولا أن تصدت له الجبهة الموحدة فى مصر والشام ، لتحمى العربية ديناً ودولة . وانكسرت

الأمواج التترية الزاحفة الغادرة ، عند عين جالوت ، وارتدت حطاماً مبعثراً .

وعكف رجال العربية والإسلام ، بعد الموقعة الظافرة الحاسمة فى عين جالوت، يفتشون بين الخرائب والأطلال عن ذخائر تراثنا فى بيت الحكمة ، والمدرسة النظامية ، والمدرسة المستنصرية ، وغيرها من دور الكتب العامرة وصروح العلم الشامخة ، فإذا النار قد أكلت ما أكلت منها حتى شبعت فقذف بالباقى إلى النهر ، فيقال إن الكتب سدت مجرى دجلة ، وجاز الناس عليها ما بين شطيه كأنها جسر معقود .

* * *

لكن روح الوعى التى هزمت الصليبيين والتتار ، استطاعت أن تملى على أجدادنا دورهم الجليل فى تلك المحنة التى ضيعت تراثنا .

جدّ رجال العربية والإسلام ، فى جمع البقايا المتخلفة من بين الأنقاض ، وشهد التاريخ جنوداً منهم عاكفين على استنقاذ ما وعت ذاكرة معاصريهم من معارف عربية وإسلامية ، ذهبت فيما تلف من ذخائر تراثنا .

وعلى أيديهم استُحدث فن جديد فى التأليف العربى هو فن الموسعات الذى ازدهر بعد سقوط بغداد حتى عرف فى تاريخنا الثقافى والأدبى بعصر الموسعات دلالة على هذا اللون المستحدث من التأليف القائم على جمع المواد الثقافية فيما يشبه دوائر معارف عربية جامعة ، ملئوا بها فراغ المكتبة العربية الإسلامية التى تركها التتار أنقاداً ورماداً .

إلى الشام، أوى «ياقوت الحموى»،حين دهمه الإعصار التترى وهو بخراسان فى العشر الثانية من القرن السابع ، فهام على وجهه جائعاً ممزق الثياب يلتمس الحمى والملاذ ، حتى استقر به المقام فى حلب ، يدون ما وعى من تراث العربية الذى شهد مصيره فى مهب الإعصار ، ويقاوم الهموم والأوصاب ، ريثما ينقل ما فى

حافظته من معارف العربية وتاريخ رجالها حتى مات سنة ٦٢٦ هـ تاركا لنا فيما ترك من تراثه ، معجميه الكبيرين فى بلدان الشرق الإسلامي ، وتراجم أعلام رجاله .

وفى مصر ، كان « أبو العباس شهاب الدين النويرى » عاكفاً على كتبه ودراسته حين صك مسمعه نبأ سقوط بغداد ، فهجر كتبه وأهله وانطلق إلى الخط الأمامى بسورية مجاهداً فى سبيل الله ، حيث تولى إمرة الجيش فى طرابلس الشام ، فلما تم النصر لجنود الجبهة الموحدة ، عاد إلى مصر ليستأنف الجهاد الآخر فى رعاية الملك الناصر محمد بن قلاوون : مضى يجمع كل ما وعى عصره من معارف عربية ، فما انقضى أجله سنة ٧٢٢ حتى كان قد أودع المكتبة العربية الخاوية ، موسوعته الكبرى « نهاية الأرب » التى دون فيها خلاصة المعارف والثقافات المعروفة فى البيئة العربية الإسلامية إلى عصره : الثلث الأول من القرن الثامن الهجرى .

وهنا وهناك وهنالك ، على امتداد الوطن الكبير ، كان رجال أعلام متفرغين للجهاد القومى فى إنقاذ تراثنا ، ومن بعدهم تتابع على الميدان خلف صالح ، حملوا الأمانة فى صبر واستبسال ...

وتركوا لنا تراثهم ، يسد الفراغ ويضيء المسرى فى غبش الظلام الذى ما لبث أن تكاثف وادلهم ...

* * *

وهناك فى أقصى المغرب ، لقيت مكتبة الزهراء ودور العلم بالأندلس ، نفس المصير الذى لقيته دور المشرق ، وإن اختلفت الأسباب :

مضى عصر القوة والوحدة للدولة الأموية فى الأندلس ، وهبت ريح الفتنة فهزت قواعدها ، ومزقتها بين الطوائف ، وبدأت الشمس تجنح إلى مغيب ، ثم خبا الضوء وانطفأ المنار ، وسقطت دولة العرب والإسلام بالأندلس بين

أيدى الأسبان الذين جُنت بهم العصبية الدينية والقومية ، فألحوا على صروح العلم العربية تخريباً وتدميراً ، وقلبوا المسجد الأموى بقرطبة ، كنيسة كاثولوكية ، واتخذوا من مسجد طليطلة اصطبلا لخيولهم ، وأحرقوا خزائن الكتب العربية على عادة العصر ، فلم يسلم مما جمعه أمراؤها وألفه علماؤها من ألوف الذخائر ، غير ما حُمل إلى أوربا ، وبقية ضئيلة ظلت مختفية حتى هدأت العاصفة وارتوى التعصب الجامح ، فكانت هذه البقية نواة لمكتبة الاسكوريال بمدريد ، أشهر مكتبة بأسبانيا في العصر الحديث .

* * *

غربت الشمس عن ديار العرب والإسلام ، من أقصى المشرق الأسيوى إلى أقصى المغرب الإفريقى ، بحكم جبرية المصير الواحد لأمة واحدة ...

وفى ظلمة الليل الغاشى ، هان تراثنا على قومنا وهم فى سباتهم إبان العصر التركى ، وجهلوا قدره فلم يعودوا يرون فيه سوى ركام هين لا قيمة له .

كانت بقاياه التى سلمت من التدمير والضياع ، مبعثرة فى خزائن الكتب بالمساجد . فجاء سلاطين آل عثمان فنهبوه ، وحُملت ذخائره إلى مركز الخلافة بتركيا ، مع ما حمل من كنوز الأقطار الخاضعة لها وثرواتها . . .

ولم يكن حرص السلاطين على اجتلاب هذه الثروة العلمية والأدبية عن تقدير لقيمة المخطوطات أو الانتفاع بها ، على نحو ماشهدنا من صنيع الخلفاء فى عصور القوة والنهضة . وإنما سلبوها إرضاء لشهوة التملك والاقتناء ، واستكمالا لمظهرية السلطان . وكان أقصى ماقدروه من قيمة لها ، هو استغلالها فى التغرير بالجماهير المتدينة ، التى يحكمها الترك العثمانيون باسم الإسلام . فراح السلاطين يبنون المساجد التى تحمل أسماءهم ، ويكدسون فيها الذخائر من تراث العربية والإسلام ، حيث بقيت هناك أكواماً تملأ السراديب والدهاليز ، دون أن تُعرف لها قيمة أو يرجي منها نفع .

حتى سقطت الدولة العثمانية ، فانتقلت كنوز تراثنا هناك على معابر الدردنيل والبسفور إلى الغرب المنتصر .

والذى كان قد بقى منه لدى الأقطار العربية ، تعرض فى الليل الغاشي لمحنة التبديد ، عن هوان به على أهله ، وجهلهم بقدره .

والغرب إذ ذاك مفتوح العينين ، يجدّ فى جمع هذا التراث الذى هان على أصحابه ، ويعرف من قيمته ماجهلوا .

كانت هذه الذخائر التى بقيت لنا ، مودعة فى المساجد والزوايا ، بضاعة رخيصة لاتساوى وزنها ورقاً عند خدام المساجد الموكول إليهم أمرها . ورحم الله أجدادنا :وقفوا ماجمعوا من كنوز تراثنا الروحى والعلمى لخدمة العلم والدين، وأودعوها بيوت الله ، وهم يحسبون أنها فى دور العبادة بمأمن من الضياع . ولم يدروا أن سوف يأتى علينا وعليها حين من الدهر ، يؤتمن فيه خدام المساجد والزوايا على هذه الكنوز دون رقيب ، فيبيعونها بالكوم لباعة الترمس والفول كى يغلفوا فيها بضائعهم قبل أن تكثر الصحف والمجلات وتؤدى هذه المهمة . وقد حدّث شاهد عيان من أساتذتنا ، أنه رأى بعينيه خادم مسجد المؤيد يملأ السلال بنفائس المخطوطات ، ويبيعها لمن يطلبها بأبخس الأثمان ، وربما قبل بعض القوت عوضاً عن الثمن .

وذكر « الكونت فيليب دى طرازى » أن خادماً يدعى « ابن السليمانى » عين فى منتصف القرن التاسع عشر ، خازناً لثلاث مكتبات كبرى فى مساجد مصر « وجعل له ديوان الأوقاف راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون قرشاً ، وكان الرجل يستعين على العيش ببيع قصب السكر . فجعل يقف فى زاوية تحت سلم مدرسة السلطان حسن ، ويضع بجانب بضاعته من القصب ، أكواماً من مخطوطات المكتبات الثلاث ، يبذلها لمن يدفع له القرش والقرشين . » (١)

---

(١) خزائن الكتب العربية فى الخافقين : ١/١٩٠

ولم تكن حال المخطوطات فى بيوتنا بأحسن من حالها بين أيدى ابن السلمانى وأمثاله ، وقد مضى جامعوها وآلت إلى خلف لهم يجهلون قيمتها ويضيقون بها .

أذكر فيما أعى من ذكريات طفولتى ، قاعة مظلمة مهجورة فى بيت جدى لأمى بدمياط ، كُدست فيها أكوام من المخطوطات معفرة بالتراب تعيث فيها العثة والقرضة . وبين حين وآخر ، كانت أوراق منها تؤخذ فينفض عنها التراب وتستخدم فى بعض الأغراض المنزلية الهينة دون تهيب أو تحرج . وربما تسلل صغار الأسرة ـ وأنا منهم ـ فحملوا منها وقوداً للحرائق الصغيرة التى جرت عادتنا على إشعالها فى الصبح الباكر من شم النسيم ، دون أن نعى ما بذل جدنا الكبير ـ وقد كان شيخاً للأزهر ـ من عمره وماله ، لهذا التراث الذى نعبث به ونلقى به فى لعبنا ، وقوداً للنار !

* * *

والذى حدث فى مصر ، حدث فى الشام والعراق والحجاز واليمن ، وسائر أقطار وطننا الكبير .

كتب الأستاذ السيد محمد كردعلى ، رحمه الله ، فى خطط الشام :

« ومن المصائب التى أصيبت بها كتب الشام ، أن بعض دول أوروبا ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولانده وروسيا ، أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً ـ من تراثنا ـ تبتاعها من الشام بوساطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين . وكان قومنا ولا سيما من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع ، بلغ بهم الجهل والزهد فى الفضائل أن يفضلوا درهماً على أنفس كتاب ، فخانوا الأمانة واستحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقة ما عند غيرهم والتصرف به كأنه ملكهم .

« وحدثنى الثقة أن أحد سماسرة الكتب فى القرن الماضى ، كان يغشى منازل بعض أرباب العمائم فى دمشق ، ويختلف إلى متولى خزائن الكتب فى المدارس

والجوامع ، فيبتاع منها ماطاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة . وبقى هذا سنين يبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام ، ثم رحل بها إلى بلاده فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها . » (١)

وهكذا تسربت أكثر البقية من كنوزنا إلى الغرب ونحن نيام ، وأبيحت ذخائر تراثنا للأجانب دون أن يجدوا من يصدهم عنها ، فذهبوا بها على مرأى منا ومسمع ، وكان كل نصيبنا من ثمن البضاعة قروشاً معدودات لحراس الكتب وخدام دور العبادة . وفرصة للتندر بحمق أولئك (الخواجات) المغفلين الذين تستهويهم مخطوطات قديمة صفراء ، لا قيمة لها فى حسابنا .

وإذ وصل بنا الحديث إلى عملاء الغرب وسماسرته الذين راحوا يجوسون خلال ديارنا بحثاً عن مخطوطات تراثنا ، نرى أن نتمهل هنا لنشهد موضعه هناك ، ومآله بين أيدى المستشرقين .

(١) خطط الشام : ٦/١٩٨ ط دمشق .

تراثنا
بين شرق وغرب

— معابر الانتقال .

— بين أيدى المستشرقين .

على المعابر التاريخية المشهورة التي انتقلت عليها الحضارة من شرقنا الإسلامى إلى الغرب ،

انتقل تراثنا مع ثمار حضارتنا ، عبر الدردنيل والبحر الأسود وقزوين ، وصقلية وأسبانيا ، فأخذ دوره هناك فى حركة الإحياء (الرينسانس) التي بدأ بها تاريخ النهضة الحديثة فى أوروبا .

وكان اتصال الغرب بالشرق قد بدأ من زمن بعيد ، فى علاقات سلمية ، سياسية وتجارية ، أو فى صراع حربى ، فانبهر الأوربيون بما شهدوا هنا من معالم الحضارة الإسلامية ، وحاولوا أن ينقلوا منها ماوسعته طاقة الغرب فى عصوره الوسطى .

ثم لما ازدادت حركة الانتقال على المعابر الكبرى ، وجد الغرب فى ذخائر تراثنا مايمكنه من وضع أسس وطيدة هيأته لدوره القيادى بعد أن غربت الشمس عن شرقنا .

ويقترن فجر الإحياء فى أوروبا (الرينسانس) بذلك العبور التاريخى لتراثنا . ويشهد مؤرخو الحضارة الغربيون ، من أمثال ولز ولوبون ودى بور ، وأوليرى وتوينبى وكراتشكوفسكى ، بأن الفكر العربى هو الذى قدم إلى الغرب شعاع النور الذى أضاء مسراه إلى عصر نهضته الحديثة .

ومما يسجله تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، أن الأمير فريدريك أسس جامعة نابولى عام ١٢٢٤ وجعلها مدرسة لنقل العلم العربى إلى العالم الغربى ، وأن جامعتى بولونيا وبادوفا قامتا على الثقافة العربية ، وبخاصة فلسفة ابن رشد وطب ابن سينا .

وفى مراسيم لويس الحادى عشر سنة ١٤٧٣ م ، أن على المعلمين فى باريس أن يدرسوا لطلاب الجامعة كتب أرسطو ، فى شروح ابن رشد وتوماس

الأكوينى وألبرت الكبير . وفى صقلية اعتمدت جامعة باليرمو ـ أقدم جامعة غربية ـ على الثقافة العربية التى حرص الأمير ريجار (روجيرو) على استعارتها منا ، واستقدم لها الأعلام من علماء العرب وكان منهم « الإدريسى » الذى ألف لأمير صقلية ، كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وصنع كرة أرضية من الفضة ، كتبت عليها أسماء الأقاليم والمدن الكبرى بالذهب .

ولمدى قرون ، ظل الطب العربى أساس الدراسة الطبية فى جامعات أوروبا ، وكان قانون ابن سينا ـ الذى ترجمه جيرار الكيمونى إلى اللاتينية ـ ممثلا للمدرسة العربية فى الطب ، وبقى محتفظا بمكانته فى جامعتى مونبليه ولوفان حتى أخريات القرن السابع عشر . كما ترجم كتاب الكليات لابن رشد إلى اللاتينية باسم « كولليجه » وصار المتن الشهير الذى كان يدرس فى جامعات أوروبا التى تأخذ عن المدرسة العربية فى الطب . كما دخلت قوانين ابن سينا الأربعة الأولى ، من عام ١٣٤٠ م فى المنهج الرسمى المقرر على المرشحين للدرجات العلمية فى الطب .

ولو مضيت أتتبع مكان تراثنا فى النهضة الأوربية بعد أن وصل إليها على معابر الانتقال ، لاستنفدت الوقت والجهد دون أن أبلغ من الموضوع مبلغاً ذا بال . فبحسبى إذن أن أشير عليكم بالرجوع إلى مايحضرنى الآن ذكره من كتب غربية حديثة ، رصدت آثار تراثنا بعد عبوره ، منها مثلا :

- كتاب كراتشكوفسكى فى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » وفيه دليل لتراثنا هناك ، فى الجغرافيا والفلك والرياضيات ، وقد نشرت جامعة الدول العربية ترجمته الكاملة ، للدكتور صلاح الدين هاشم .

- كتاب « حضارة العرب » لجوستاف لوبون ، وفيه عرض واف لما أخذ الغرب عنا فى مختلف جوانب الحضارة ، ترجمه الأستاذ عادل زعيتر .

- كتاب «شمس الله على الغرب» (فضل العرب على أوروبا) للمستشرقة الألمانية «سيجريد هونكه» ويتابع أثر العلوم الطبيعية والطب والرياضيات العربية فى الغرب . ترجمه دكتور محمد فؤاد حسنين .

- الإسلام والكوميديا الإلهية : لميجويل آسين بلاسيوس . طبعت ترجمته الإنجليزية فى لندن ١٩١٩ . وفى مقدمته بيان لما انتقل إلى أوروبا على معبر أسبانيا من تراث الإسلام الفكرى والروحى والأدبى ، ثم يعرض بتفصيل للمنابع الإسلامية ، ومنها المعراج ورسالة الغفران ، لكوميديا دانتى ، أمجد وأشهر نص أدبى أوربى فى فجر النهضة الحديثة .

* * *

تراثنا بين أيدى المستشرقين

وتمت حركة الإحياء ، وتم معها التحول التاريخى الحاسم للحضارة من الشرق إلى الغرب .

وكان الظن أى يفتر اهتمام الغرب بتراثنا ، وقد وصل إليه أكثره على معابر الانتقال الكبرى .

لكن الغرب ازداد حرصا على اقتناء ما بقى للشرق من تراثه ، ليؤدى دورا جديدا فى حركة الاستعمار .

وقد نقلنا آنفاً ، حديث الأستاذ « كرد على » فى خطط الشام ، عن دول أوروبا — ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولانده وروسيا — التى أخذت منذ القرن السابع عشر ، تجمع مخطوطات تراثنا بوساطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكذلك انتشرت رسلهم وعملاؤهم فى أنحاء المشرق ، بحثا عن هذه المخطوطات . ولا تنتظروا منى أن أحصى ماجمعوا من ذخائر تراثنا فالأمر فيه يفوت العد والإحصاء . يكفى أن ترجعوا إلى كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربى) مثلا ، لتقرأوا ما أحصى من مخطوطات الأدب العربى فى دور الكتب الأوروبية . وأذكر — على سبيل المثال كذلك — أن فهارس المخطوطات العربية فى مكتبة برلين وحدها ، كانت تملأ - إلى عام ١٩٣٠ - عشرة مجلدات ضخمة ، وأن أحد طلاب « جامعة برنستون » القدامى أهدى إلى جامعته مكتبة فيها ستة آلاف مخطوط عربى كانت فى حوزة واحد فحسب ، من مستشرقى الإنجليز .

واستطاعت روسيا ، منذ إنشاء المتحف الآسيوى فى بيـــترسبورج — ليننجراد — سنة ١٨١٨ م أن تدخل فى السباق الدولى على مخطوطات تراثنا ، فتظفر بمئات الألوف من ذخائره . وقد بلغ رصيد معهد شعوب آسيا

التابع لأكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتى ، اثنى عشر ألف مخطوط حتى سنة ١٩٦٣ ، بينها خمسة آلاف مخطوط عربى ، إلى جانب سبعة آلاف مخطوط عربى فى مكتبات أخرى بلينينجراد .

وبلغ رصيد معهد الاستشراق فى طشقند عاصمة أوزباكستان ، ثمانين ألف مخطوط باللغة العربية واللغات الشرقية .

وهناك مجموعات أخرى فى قازان ، وباكو ، وتبليسى ، وخاركيف ، لا أحصى رصيدها عدا . . .

وهذا يعطيكم فكرة عن مقدار ما جمعوا من مخطوطات ملئوا بها خزائن الكتب العربية فى الفاتيكان بروما ، والأمبروزيانا بميلانو ، وباليرمو بصقلية ، والناسيونال بباريس ، وفيينا وهاله وبرلين والاسكوريال ، وليدن بهولانده ، والمتحف البريطانى بلندن وموسكو وليمينجراد وطشقند بالاتحاد السوفيتى ، عدا مئات المكتبات الخاصة بعلماء الاستشراق وهواة جمع المخطوطات .

وفى القسم الأخير من هذه المحاضرات ، تقرءون قصة مثيرة لرحلة تراثنا من مخطوطات البردى إلى أوروبا ، وتنافس دول الغرب على اقتنائها ، دون أن يعنينا سباقهم على الكنز من قريب أو بعيد .

وتقرءون معها ، فصولا من قصص أخرى ، تروى ما كان من حرص الأوربيين على جمع تراثنا ، وما بذلوا ويبذلون فى سبيله من جهد ومال .

* * *

ووُضع هذا التراث بين أيدى المستشرقين الذين عكفوا عليه فى شبه رهبنة ، يفحصون نصوصه ويحققونها ، وينشرونها على أحدث منهج للتحقيق والضبط والنشر .

ثم انتقلوا بعد أن جدوا فى جمع التراث وفهرسته وتحقيقه ونشره ، إلى المرحلة

الهامة التى من أجلها كان الجهد السخى المبذول : فأقبلوا على درس هذا التراث وقد توزعوه فيما بينهم ، فتفرغ نفر منهم لدرس تاريخنا السياسى ، وآخرون للمذاهب الدينية والفقه والشريعة والحديث ، وفريق ثالث اختص بدراسة اللغة واللهجات والأدب . . . وكأنما كانت تحركهم قوة منظمة لا تدع مجالا لجانب من جوانب حياتنا إلا عينت له من يختص به ، ولا تسمح بفراغ فى ميدان دراسة التراث ، دون أن تجد له من يملؤه . .

وبلغوا فى دراستهم الجادة للشرق والعربية والإسلام ، من التخصص والاستيعاب حداً مذهلا ؛ أقول هذا وأنا من أزهد الناس فى مثل هذه الألفاظ الضخمة ، لكنى لا أجد هنا سواها ما يصف صنيع هؤلاء الأجانب الغرباء ! وما أراكم إلا ملتمسين لى العذر ، حين أذكر لكم مثلا أن المستشرق الايطالى « كايتانى » المتخصص فى دراسة تاريخ الإسلام ، جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل لترتاد مناطق الفتح الاسلامى وترسمها جغرافيا وطبوغرافيا . وجمع كل الدوريات والمرويات عن حركة الفتوح ، فى العربية والسريانية واللاتينية ، وقابلها واستخلص منها تاريخ الفتح فى تسعة مجلدات بعنوان حوليات الإسلام Amnali del Islam بلغ بها سنة أربعين هجرية . وكان حين الطبع ، يبعث بتجارب المطبعة إلى المتخصصين فى الموضوع لإبداء ملاحظاتهم عليها . ثم طبع الحوليات طبعة فاخرة وزعها على الدوائر العلمية . وكلفته هذه العملية كل ثروته الطائلة فأفلس .

وإليكم مثلا آخر من تخصص القوم وجدهم ، وليكن هذه المرة من المجال التاريخى الأدبى ، فأذكر المستشرق الألمانى « كارل بروكلمان » الذى دخل الميدان عام ١٨٩٠ بكتابه عن « العلاقة بين كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وكتاب تاريخ الطبرى » وكان موضوع رسالته للدكتوراه ، بجامعة ستراسبورج . وفى عام ١٨٩١ أخرجت له مطبعة ليدن « ديوان لبيد » مترجماً عن طبعة فيينا ومزوداً بحواش وشروح . ثم مضى يتابع بحوثه ودراساته فى تراثنا الأدبى ، وينشر الكتاب بعد الكتاب من ذخائره ، حتى بلغت مؤلفاته ومنشوراته نحو مائة وعشرين ، فى السنوات

ما بين عامى (١٨٩٠ : ١٩٥٤) لم تكد سنة منها تمر دون أن يضيف إلى مكتبة الاستشراق أثراً جديداً . وإلى جانب هذه النصوص المحققة من تراثنا ومؤلفاته فيها ، كتب فى دائرة المعارف الإسلامية مائة وثمانى وعشرين مادة .

وفى مجال الفقه والشريعة ، أقدم المستشرق الألمانى « يوسف شاخت » الذى درست عليه فقه اللغة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة :

— فى سنة ١٩٢٣ أخرجت له مطبعة هانوفر تحقيقه لكتاب (الحيل والمخارج للخصاف) بمقدمة وتعليق .

— فى سنة ١٩٢٤ ، نشرت له مطبعة ليبتسج (كتاب الحيل فى الفقه) للقزوينى ، مع مقدمة وتعليق .

— فى سنوات ١٩٢٧ : ١٩٣٠ ، أخرجت له مطبعة هايدلبرج ، كتاب المخارج فى الحيل لمحمد بن الحسن الشيبانى ، مع مقدمة وتعليق .

— فى سنوات ١٩٢٨ : ١٩٣١ ، أخرجت له مطبعة برلين ، الجامع الكبير فى الشروط .

— فى سنة ١٩٣١ ، نشر كتاب (دين الاسلام) ط برلين .

— « « ١٩٣٣ ، نشرت له مطبعة ليدن ، كتاب الجهاد والجزية وأحكام المحاربين ، من كتاب اختلاف الفقهاء لابن جرير الطبرى .

ثم نشر بعد ذلك كتاباً عن الأحكام فى الدور الأول للفقه الاسلامى (١٩٥٠) وخلاصة تاريخ الفقه (باريس ١٩٥٣) ونشأة الفقه فى الإسلام (أكسفورد ١٩٥٣)

وشاخت هو الذى كتب لدائرة المعارف الإسلامية ، أكثر المواد المتعلقة بالفقه ورجاله ، ومواد الأصول ، وعلم الكلام .

وفى مكتبة الاستشراق الروسى ، نجد لكراتشكوفسكى عميد مستعربى الروس ،

نحو أربعمائة وخمسين كتاباً وبحثاً فى التراث العربى.وقد نشر المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى ، ستة مجلدات لأعمال هذا المستشرق الكبير ، منها كتابه القيم فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى .

* * *

ثم لا أمضى فى تتبع هذا الجهد السخى الذى أعترف بقصورى عن استيعابه ، ولعل فيما عرضت منه ما يكفى لإنصافهم ، والإلمام بما بذلوا فى جمع تراثنا وصيانته ونشره ودرسه .

هنا يعرض سؤال :

ـ ما الذى يغرى الغرب الحديث بتراثنا ، وقد أدى غرضه فى خدمة عصر الإحياء ، وصار للغرب الدور القيادى للحضارة المادية والعلمية ؟

هل يفتش فيه عن شىء قد يكون فاته فيما عرف من تراثنا ؟

أو هل يرى فيه ميراثا إنسانياً من حقه أن يصان وينشر ، مادام أهله قد نبذوه وأضاعوه ؟

قد يبدو الأمر كذلك مع قلة من علماء الاستشراق المخلصين الأمناء .

لكن الواقع التاريخى يؤكد أن حركة الاستشراق جملة ، وُجِّهت فى مراحلها الأولى إلى خدمة غرض آخر ، لا يعنيه تراث الشرق إلا بقدر ما يكشف عن عقليات شعوبه وأمزجتهم وأسرار ذاتهم ومواضع القوة والضعف فيهم ، توطئة لحملات التبشير وموجات الاستعمار التى تدفقت على شرقنا الآسيوى الإفريقى ، من القرن الثامن عشر .

فحين نسأل التاريخ عن حركة الاستشراق كيف نشأت ، يلقانا جوابه الصريح بأنها قامت أول ما قامت فى رعاية الكنيسة الكاثوليكية وخضعت لإشراف مباشر من كبار أحبارها :

وتقديراً لدقة هذا الجانب وحرجه ، أدع الكلمة للمؤرخ اللبنانى المسيحى « الفيكونت فيليب دى طرازى » فيقول :

« راح البابوات فى القرنين الثانى عشر والرابع عشر ، يغرون قصادهم ورسلهم ورهبانهم بتعلم العربية ترويجاً لخطتهم الكاثولوكية. وقرر مجمع فيينا المنعقد فى سنة ١٣١١ برياسة البابا إقليميس الخامس ، أن تؤسس دروس عربية وعبرية وسريانية فى رومه على نفقة الحبر الأعظم ، وفى باريس على نفقة الملك ، وفى أكسفورد وبولون على نفقة الرهبان، وذلك لكى يكون منهم المبشرون والوعاظ الذين يطوفون بالبلاد الشرقية. وكان سفراء الفاتيكان مكلفين من قبل البابا بمراقبة دروس العربية(١) .

ويعدون من المآثر الباقية للبابا « لاون العاشر » أنه « احتفل سنة ١٥١٤م بافتتاح أول مطبعة عربية فى مدينة فانو على ساحل الادرياتيك(٢) .

كما يذكرون من مآثر البابوات بيوس الرابع : (١٥٦٥م) وبولس الخامس (١٦٢١م) وأوربانس الثامن (١٦٤٤م) وإقليميس الحادى عشر (١٧٢١ م) مساعيهم الطيبة فى إحراز المخطوطات العربية « فقد وجه إقليميس الحادى عشر إلى الشرق سنة ١٧٠٧ عالما لبنانيا اسمه إلياس السمعانى لابتياع ما يعثر عليه من المخطوطات فى لبنان وسورية وفلسطين ومصر. وفى عام ١٧١٥ كلف لبنانياً آخر اسمه يوسف شمعون السمعانى أن يرتحل إلى المشرق للغرض نفسه . كما وجه سنة ١٧١٩ إلى الموصل كاهنا مارونيا قبرصى الأصل ، اسمه أندراوس اسكندر ، لإحضار ما يستطيع من مخطوطات » (٣)

وجد خلفاؤه على أثره ، فكانت بعثاتهم ورسلهم تطوف بالشرق الإسلامى .

---

(١) دى طرازى . خزائن الكتب العربية /٥٧٧ .

(٢) دى طرازى : خزائن الكتب ـ ٢/٥٧٨ .

(٣) دي طرازي : خزائن الكتب ـ ٢/٥٨٠ .

من مصر والشام والعراق . إلى ما وراء النهر والهند . يشترون أندر المخطوطات، وتبارى أتباعهم من رجال الاكليروس الشرقى لاتحاف مكتبة الفاتيكان بنفائس الذخائر العربية . وبلغ ما زود به للكردينال فريدريك رئيس أساقفة ميلانو . مكتبة الأمبروزيانا من ذخائر العرب ألوفا عدة . ثم جاء الأب واتى فأضاف إلى ثروتها من هذه الذخائر ستة آلاف مخطوط (١) .

والمستشرق « كايتانى » الذى أشرت آنفاً إلى ما أنفق من جهد ومال فى تأريخ حركة الفتح الاسلامى : سجل فى مقدمة « حوليات الاسلام » اعترافا صريحاً بأنه إنما يريد أن يفهم سر المصيبة الاسلامية التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض ، ما يزالون حتى اليوم يدينون برسالة محمد ويؤمنون به نبياً ورسولا !

ويلاحظ هنا أن التوجيه التبشيرى للاستشراق ؛ قدساير حركة جمع التراث فى دورها الأول الذى قصد به إلى الانتفاع بما سبق إليه الشرق الاسلامى من علوم وثقافات . وليس من العسير علينا أن نفهم هذه المسايرة ؛ إذا أدركنا أن تراثنا حين عبر إلى أوروبا ، كانت البيئات العلمية تأخذ عنه علومنا ومعارفنا . على حين التمست الكنيسة فيه ما تسخره لخدمة أغراضها الدينية .

* * *

ولم يعد الأستاذ المؤرخ « فيليب دى طرازى » الحق التاريخى . حين قال فى الفصل التاسع من كتابه الخزائن :

« إن الاستشراق قام فى بداية أمره لغاية دينية محضة . ثم توسع علماء الاستشراق فجعلوه سياسياً ولغوياً معاً »

---

(١) دي طرازي : خزائن الكتب ٢ /٥٨٣ .

وقد مضى الكلام عن التوجيه الديني للاستشراق .

فلنقف عند قوله « سياسياً » لنرى نصيب السياسة في توجيه حركة الاستشراق.

* * *

نشطت حركة الاستشراق قبيل الغزو الاستعماري ، وسايرته حينا من الدهر ، تقدم إليه ماهـــدى إليه تراث الشرق من فهم عقليته ومزاجه . وتعد له الرسل والدعاة الذين انبثوا في أنحائه واختلطوا بأهله : تجاراً ومبشرين ودعاة وجنود استعمار . .

ولاحظوا معي أن أول جماعة أسست لخدمة الاستشراق والانتفاع بجهد رجاله سياسياً ، قامت في فرنسا سنة ١٧٨٧ م تحت إشراف وزارة المستعمرات . ولم يكن حرص ملوك فرنسا بأقل من حرص أحبار الكنيسة على إيفاد بعثات إلى الأمصار العربية لجلب ذخائر تراثها . وكان سفراؤهم يندبون رسمياً لهذا العمل السياسي . وفي كتاب (خزائن الكتب العربية : ٢ / ٥٨٧) أن في مكتبة دير الشير بلبنان ، مخطوطة من كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، على هامشها حاشية أثبتها « أبو النصر الخازن » الذي كان قنصلا لفرنسا في بيروت على عهد الملك لويس الرابع عشر . وتنص الحاشية على أنه « في سنة ١٦٧١ م أرسل عالي الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمه هؤلاء المبعوثين » .

وتضيف الحاشية : أن مستشارا للملك توجه إلى قبرص ، فالشام ، فمصر ، فاسلامبول ، فبغداد . وظفر من كل بلد منها بكثير من المخطوطات .

* * *

والبحث العلمي التاريخي متى انحرف عن غايته الأصـــيلة من خدمة العلم

والوصول إلى الحقيقة قدر المستطاع ، أعوزته النزاهة التى هى جوهر البحث العلمى ، والحرية التى هى مناط سلامته . وعلماء الاستشراق بشر مثلنا ، يتعصبون لدينهم وقومياتهم . ولست ألومهم على هذا التعصب أو أنكر عجزهم عن التجرد من أهوائهم ، وإنما نحن هنا بصدد قضية علمية وتاريخية ، تلزمنا بأن نعى مالابس عمل أكثر المستشرقين من انحراف لم يكن منه بد ، بحكم ما استهدف الاستشراق فى نشأته الأولى من خدمة الكنيسة والاستعمار .

وليس عليهم بأس فى أن يقولوا فينا مايقولون ، متى كانت أقوالهم معبرة عن رأى لهم ، أو صدى لاستهوائهم بما راج فى بيئاتهم من أقاويل عنا .

لكن البأس كل البأس ، أن يحمل « البحث العلمى » وزر هذه الأهواء ، فتخرج بحوث لهم مشحونة بأباطيل يزعمون أنها مما هدى إليه استقراؤهم لتراثنا ، ويفرضون لها حرمة علمية ، حين يسوقون أدلة وشواهد من نصوص فى التراث ، انحرف بها الهوى والتعصب ، فضلوا ضلالا بعيدا .

وقد حدثتكم من قبل ، عما ندين لهم به من إنقاذهم لتراثنا المضيع ، ودأبهم على جمعه وتحقيقه ، وأشرت إلى دقة منهجهم فى النشر بما يكفى لإنصافهم .

وبقى أن ألفت إلى مايلقانا فى دراسات كثير منهم ، من التواء الأساليب فى توجيه العبارات ، واضطراب مناهجهم فى سَوق الأخبار ، واعتسافهم فى تأويل النصوص لتعطى نتائج خطرة محرفة ، تمس عقيدتنا وتشوه تاريخنا ، وتؤيد مزاعم بعينها مما يروجه أعداء الإسلام والعرب والشرق .

يكفى مثلا أن تقرأوا ما كتب « يوسف شاخت » فى مادة أصول ، وغيرها من مواد دائرة المعارف الإسلامية . وتعليق أستاذنا « أمين الخولى » عليها

فى الترجمة العربية ، لتروا إلى أى حد بلغ بشاخت جموح التعصب وشطط التأويل واعتساف الملحظ وزور الدلالات .

وشاخت كان أستاذا فى جامعتنا ، يدرس لنا فقه اللغة ويرتدى زى العلماء . وله فى دوائر الاستشراق منزلة مرموقة عالية ، أهلته لأن يتنقل بين الجامعات الغربية محاضرا عن الإسلام ، ثم اختير للإشراف على طبعة جديدة من دائرة المعارف الاسلامية ، تخرجها مطبعة ليدن فى هولاندا .

وما من ريب فى أن شاخت وأمثاله ، ينحرفون عن قصد وعمد ، استجابة لتعصبهم ، ويخضعون فى دراساتهم للهوى الجامح .

ولكن منهم كذلك من يتجرد للبحث النزيه ، ثم يخونه الحق أثرا لما يسيطر على ذهنه من أفكار سابقة عن عقيدتنا وتاريخنا ، يعز عليه أن يتخلص من احتكامها فى توجيه النصوص .

وهذا مالم ينج منه ، مع الأسف ؛ المستشرق الجليل « كراتشكوفسكى » فى كتابه القيم « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » إذ سيطرت فكرته عن نبى الاسلام ، على بحثه فى القرآن والحديث احتكمت فى توجيه النصوص .

* * *

وننظر فى الميدان الأدبى ، ـ حيث مجال التعصب فيه أقل ـ فنرى المستشرقين قد صح لهم علم العربية ثم أعوزهم ذوقها . فتعثرت نصوصه فى أيديهم لقصورهم عن لمح دلالات ألفاظها وفقه أسرارها فىالبيان وطرق مجازها وأساليب تعبيرها ، ولا مجال لأن أطيل هنا بعرض نماذج من أخطائهم فى فهم نصوص تراثنا وتعثرهم في توجيه سياقها ، فحسبي أن أحيلكم على ماسبق لي أن عرضته من ذلك بمزيد

تفصيل وبيان ، فى فهم المستشرق الانجليزى نيكلسون(١) والمستشرق الأسبانى ميجويل أسين بلاثيوس(٢) لنص الغفران . مع ماتقرءون من تعليق على كتاب تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى(٣) .

* * *

وآن لنا بعد هذه الرحلة مع تراثنا من قديمه البعيد ، أن نطل على سير الزمن به فى العصر الحديث .

---

(١) انظر نسخة نيكلسون بين نسخ الغفران، فى مقدمة النص الذى حققناه من (رسالة الغفران) ط الذخائر .

(٢) الغفران : دراسة نقدية ــ ص ٣٢٤ وما بعدها ط ٣ دار المعارف بالقاهرة .

(٣) في المجلد الثاني ، من الترجمة العربية للكتاب ، نشر جامعة الدول العربية .

تراثنا

من فجر اليقظة
إلى العصر الحاضر

— بعد ليل طويل

— فى دوامة العصر



بدأ التفاتنا إلى تراثنا مع حركة اليقظة التى لاحت بوادرها فى القرن الثامن عشر ، حيث أدرك روادها أن ارتباط اليقظة بجديد الغرب وحده ، يفقدها عنصر الأصالة الذى ترتهن به صحتها وسلامتها . وقدروا عقم الحركة إن هى اقتصرت على مجلوب مستعار لا تربطه صلة بجذورنا الضاربة فى أعماق الزمن .

فى الوقت الذى قدروا فيه جدوى اتصالنا بالحضارة الغربية الحديثة ، وضرورة إمداد حياتنا بروافد منها توجه تيار اليقظة مع روح العصر ، وتغذى وجودنا بثمار التقدم ، وتساير به تطور الزمن .

ولم تنفصل حركة إحياء التراث عن حركة اليقظة القومية ولا قامت بمعزل عنها ، وإنما كانت عنصراً أساسياً فى برنامجها ، وموقعاً من مواقع النضال فى الميدان العام الذى تقاسمه الرواد فيما بينهم .

وفى كل مجال ، كان الاهتمام البالغ باستقراء ماضى تاريخنا ، لا قصدا إلى الرجوع إليه والوقوف عنده ، وإنما كان القصد إلى الانطلاق بالأمة من حيث انتهت مراحل سابقة أعطتها كل ميراثها وكل تجاربها .

ومن واقع تاريخ اليقظة ، نرى أن مهمة السعى لاكتشاف جوهر ذاتنا والبحث عن جذورنا ، لم يحمل عبئها الأمسيون الذين يعيشون بعقلية الماضى ، وإنما نهض بها عصريون مجددون ممن اتصلوا بالغرب الحديث أوثق اتصال ، ونهلوا من موارد ثقافته .

فالشيخ « رفاعة الطهطاوى » إمام البعثة العلمية الأولى إلى باريس ، نقل إلينا ما نقل من حضارة الغرب ، وحرص فى الوقت نفسه على أن يجمع ما استطاع من مخطوطات تراثنا ، عمرت بها خزانة كتبه فى سوهاج .

والإمام « الشيخ محمد عبده » الذى ألقى به الصراع السياسى فى أوربا حيث عاش زمناً يتابع جهاده من هناك ، هو نفسه الذى عكف على القرآن الكريم يفسره بعقلية جديدة ، ويلتمس منه أصول الدعوة إلى تحرير الفكر الديني

والأصلاح الاجتماعى والسياسى . وهو الذى جعل مطبعة بولاق الأميرية تدور لطبع ذخائر من تراث العربية .

وشيخ العروبة « أحمد زكى » عاد من أوربا بعد أن تزود بالثقافة الغربية ، ثم لم يلبث أن قام برحلات عدة إلى الخارج ، باحثاً عن كنوز تراثنا ، وناقلا إلينا ما استطاع نقله منها .

والعلامة « أحمد تيمور » المصرى الثقافة والنشأة فى جيله ، هو الذى أنفق ماله بسخاء على ذخائر المخطوطات العربية ، ووهب لها حياته جامعاً ودارساً .

* * *

لم تكن حركة إحياء التراث إذن ، والدعوة إلى الاتصال بقديمنا ، صخرة رجعية يلتى بها الامسيون فى مجرى تيار اليقظة والتقدم ، بل كانت بشهادة الواقع التاريخى مدداً سخياً لهذا التيار ، أراد به المصلحون المجددون تعميق مجراه . وتأمين حيويته وسلامته ، بصدوره عن نبع أصيل فى أرضنا الطيبة .

وبفضل أولئك الرواد شهدت الفترة التى أعقبت ثورة عرابى ، حركة إحياء للتراث أخذت مجراها فى ناحيتين :

أولاهما نشر ذخائر المخطوطات مما جمع فى مكتبة الجامع الأزهر ، وفى دار الكتب المصرية التى نقل إليها ما كان مبعثراً من تراثنا فى المساجد والزوايا . كما نشرت ذخائر مما جمعه رفاعة الطهطاوى وأحمد زكى وأحمد تيمور . فأخرجت مطبعة بولاق ومطبعة دار الكتب عدداً غير قليل من أمهات الكتب العربية . إلى جانب ما أخرجته المطابع الأهلية ، ومطابع الشام والعراق والمغرب .

والأخرى ، إمداد حياة الأمة فى مختلف نواحيها ، بزاد سخى من ماضيها فى عصور القوة . كمثل ما فعل الشيخ محمد عبده فى تجديد الفكر الدينى وقد كان هو الذى زود « قاسم أمين » بأصول إسلامية لدعوته إلى تحرير المرأة . ومثل ما فعله « البارودى » رائد الشعر الحديث ، حين اتصل بتراثنا

الشعرى فى عصور القوة والازدهار ، لينطلق بالشعر على معبر التطور نحو عصر جديد(١) .

* * *

ونقدر أن هؤلاء الرواد حين أرادوا تدعيم حركة اليقظة بأصول من تراثنا ، ألفوه مبعثراً فى شتى أنحاء الدنيا . فعجزوا عن استيعاب ما فى خزائن الغرب منه بل عجزوا كذلك عن أن يحيطوا علماً بما بقى لنا من ذخائره . ومنها ما كان مدفوناً فى خزائن خاصة لا يدرون عنها شيئاً ، أو مخزوناً فى سراديب الجوامع وأقبية القصور ، أو مكدساً فى كهوف اليمن ملكا خاصاً لحكام من الأئمة لا ينتفعون به ولا يريدون له أن ينفع الناس .

فلا غرابة ولا ملام أن قصر جهد الحركة فى فجر اليقظة ، على جمع ما أمكن جمعه من مخطوطات التراث ، وصيانتها فى مكتباتهم الخاصة أو فى مكتبات عامة تتيح فرصة الانتفاع به ، ونشر عدد غير قليل من ذخائره أدت دورها فى حركة اليقظة القومية بقدر ما واتت ظروف المرحلة وأعانت طاقتها .

* * *

ومضى جيل الرواد ، وترك هذه الأمانة فى أعناقنا ، نفى بها على المستوى الذى بلغه نضج وعينا ورشد إدراكنا وتقدم الزمان بنا ، وعلمنا بما بذل المستشرقون وما لا يزالون يبذلون من جهد وعناية بهذا التراث .

انطلقت حركة اليقظة القومية للعرب ، تغذ السير مع العصر الحديث .

ولم يغب عن وعى الأمة ما حاوله رواد اليقظة من إحياء تراثها . فتقدم إلى الميدان خلف لهم من علماء العربية والاسلام ، تابعوا نشر ذخائر من تراثنا

---

(١) راجع محاضرة : أدبنا المعاصر ومنطق التطور ، فى كتابى « قيم جديدة للأدب العربى » ص ١٩٩ وما بعدها . ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ .

كما قامت هيئات علمية رسمية بنصيب من هذا العبء، فنشرت دار الكتب المصرية والمجمع العلمي العربي بدمشق والمجمع العلمي ببغداد ، بضع مئات من أمهات الكتب في اللغة والأدب وتاريخ الإسلام والتفسير ، كما اهتمت دور نشر خاصة بطبع عدد منها .

ومن ناحية أخرى ، كانت الجامعة تدعو إلى منهج علمي لتحقيق التراث . ويذكر تاريخ كلية الآداب بجامعة القاهرة أن أستاذنا أمين الخولي فرض هذا المنهج على طلبة الامتياز بقسم اللغة العربية ، ثم ألزم من يتقدم منا إلى درجتي الماجستير والدكتوراه ، بأن يقدم مع بحثه نصا محققا لمخطوط من تراثنا يتصل بموضوع الرسالة .

قصداً إلى تزويد الأمة بعدد من المتخصصين ، يحملون أمانة تحقيق تراثها ، ويسدون الفراغ الذي بدأ تجار الكتب يقتحمونه ويوردون إليه نصوصا مطبوعة من تراثنا ، لم تخضع في نشرها لأي ضابط من ضوابط التحقيق يحميها من العبث والتشويه .

ويمكن القول بأن وضع التراث في تلك المرحـــلة التي أعقبت فجر اليقظة واستغرقت النصف الأول من القرن الحالي ، كان يساير الوضع العام للأمة ، ويلبي حاجته ، ويشوبه ما شاب وجودنا من مظاهر القلق والاضطراب .

والمرحلة يعرفها تاريخ الأمة العربية ، مرحلة استجماع للقوى وتأهب لمعركة تحقيق الذات وتحفز الانطلاق الثوري .

ويعرف كذلك ما تعرضت له من هزات القلق الجائح وهي تحاول أن تتلمس طريق الخلاص ، وما عصف بها من تيارات متدافعة متضادة ، تأتيها من داخل ومن خارج ، وتضغطها بين شد وجذب .

وإذا كان استمرار الجهود لإحياء التراث ، والدعوة إلى تأصيل المنهج العلمي لتحقيقه ونشره ، واتجاه الكبار من كتاب المرحلة إلى إذاعة مطوى من أمجاد تاريخنا وبطولات ماضينا .

أقول إذا كان هذا ومثله ، معبرا عن وعى المرحلة وإصرار الأمة على حماية مقومات وجودها وعناصر أصالتها .

فكذلك كان ترك مجال التراث مستباحا لغير أهله ، والغفلة عن الثغرات التى يتسرب منها إلى الغرب ، مظهراً لما كان يعوز المرحلة من وضوح الرؤية لأبعاد معركتها الكبرى .

فتركنا مخطوطات تراثنا بضاعة مبذولة لتجار السوق ، يستبيحون كل مالها من حرمة علمية ويهدرون كل قيمة أثرية لها ، من حيث هى مادة للتاريخ !

وتركنا الأجانب يجوسون خلال الديار بحثا عن المخطوطات ، ويخرجون بما يشترون منها على مرأى منا ومسمع !

لأننا لم نتصور أن هذه المخطوطات تدخل فى الآثار التى يتكفل القانون بحمايتها ، فلسلطة الجمرك أن تصادر مثلا قطعة من نسيج أثرى أو وعاء من مخلفات عصر مضى ، كيلا يخرج من ديارنا .

ولا تصادر عشرات من المخطوطات يخرج بها الأجنبي من بلادنا فى ضوء النهار !

وكأن مناط الأثرية فى مثل حجر رشيد ، مادته الحجرية وليس النص المنقوش عليه !

وكأن المخطوط ليس أثرا ، لا بنصه فحسب ، ولكن كذلك بخطه ومداده وورقه وغلافه ... حيث يعطينا كل هذا مادة لتاريخ عصره وبيئته ومجتمعه !!

* * *

ومع النصف الثانى من القرن العشرين ، حيث تبدأ المرحلة الحالية من تاريخنا المعاصر ، انفصلت حركة إحياء التراث عن مد الحركة القومية ، فبدا هذا الانفصال شذوذا فى منطق الحياة وسنة الوجود .

لكنا مع شيء من التأمل الفاحص ، نستطيع أن نلمح تفسير مايبدو لنا شذوذا ، وعلة ما يبدو لنا صدفة واتفاقا :

لقد كان من الطبيعى أن تتجه الأمة بكل طاقتها إلى معركة التحرير ، حسما لمأساة الاستعمار وعار الاستعباد .

وكان من الطبيعى كذلك أن يستغل عدوّنا غفلتنا عن الموقع الفكرى ، فيعبىء له جنودا لانراهم ، أو قد نراهم فلا نرتاب فيهم !

وانكشف الميدان لغزو فكرى جائح ، خطط له الاستعمار بمهارة ودهاء ، وسهر على الإعداد له فى ليلنا الطويل .

وكان من أخطر أسلحته ، ما أورثتنا المرحلة الماضية من تصدع ثقافى ، أثرا لتفاوت البيئات الفكرية والتعليمية التى نشأ فيها جيلنا ، وتلقى منها زاده العقلى والوجدانى .

« فنحن جميعا — كما قلت هنا فى محاضرتى بالموسم الماضى عن المناخ الفكرى لأدبائنا المعاصرين — أبناء جيل أعوزه التعاصر الثقافى فى مرحلة التلقى والتكوين والتأثر : فينا من تلقى زاده الأول من نبع عربى شرقى صميم ، حصنه ضد تيارات الفرنجة الوافدة . وفينا من لازاد له إلا الفكر الأجنبي وقد أمضى مرحلة الحضانة العقلية والتكوين النفسى فى بيئة عزلته عن وجود أمته .

وفى دوامة الصدام بين هؤلاء الغرباء ، لف تراثنا غبار أكثف مما ألقاه عليه طول الإهمال .

وتداعى السائرون غربا ، ممن ينتحلون لأنفسهم صفة العصرية ، بالتخلص تماما من عبء تراثنا الذى يثقل كاهلنا ويعطل خطانا على مراقى التطور .

واستكثروا ماينفق عليه من جهد ضئيل مبعثر ، وهم لايرون فيه ، وفى ماضينا كله ، إلا أكفان موتى وأضرحة قبور ، يفسد ريحها مناخ العصر ،

وجهروا بأن فيما نتعلق به من ميراثنا الروحى والتاريخى « وقفة جامدة على مقابر الأنبياء ، تحاول أن تزج بمجتمعنا داخل صناديق حديدية صغيرة لاتتسع إلا للدمى ، فى طفولة الجنس البشرى »(١) .

وشقت هذه الدعاوى مجراها فى وجودنا المعاصر ، يؤازرها تدفق التيارات الوافدة التى فتحوا لها الأبواب ،بوهم أن وجودنا العصرى يتطلب أن نستعير كل ثقافتنا وفكرنا وأدبنا من الغرب القوى الغالب .

وفى غفلة عن الموقع الفكرى ، بما شغلنا من أعباء التنمية ومعارك تصفية الاستعمار والقرصنة الدولية والتفرقة العنصرية .

تدفق جنود الاستعمار الجديد ، وقد ارتدوا أقنعة خدام علم ورسل ثقافة ومبشرين بالتفاهم والتقارب بين شعوبهم وبيننا !

وغزتنا مؤسسات ثقافية أجنبية قوية النفوذ ، بعضها يعتمد على ذكاء الحيلة وبراعة الخبرة ، وأخرى فاحشة الثراء تعتمد على كرم البذل وسخاء العطاء والاقتدار على وسائل النشر وأفانين الدعاية والإعلان .

دون أن تكون هناك أدنى فرصة للتكافؤ بين فكرنا القومى الأصيل وبين هذه البضاعة الأجنبية الوافدة ،تُدق لها طبول الدعاية وأجراس الإعلان، وتتألق فى طبعاتها الأنيقة الفاخرة ومظهرها الفخم الخلاب ، معروضة للبيع بأرخص الأسعار ، أو موزعة هدايا بلا ثمن ، لأنها تصدر عن « مؤسسات غير تجارية » مهمتها أن تنفق وتنشر وتغزو ، وليس فى حسابها أن تحقق أى ربح مالى مباشر .

* * *

---

(١) انظر ص ٢٢٣ وما بعدها ، من (قيم جديدة للأدب العربى) ط معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ .

ولكن الأمة لم تفقد وعيها فى دوامة هذا الضجيج الهادر .

وهى إذ تدرك استحالة العزلة الفكرية فى عصر (الترانزستور) الذى يحمل إلينا أنفاس الغرب عبر المسافات الشاسعة بأسرع من لمح البصر ومجرى الخيال ، تدرك كذلك ألا بأس عليها فى أن تفتح الأبواب والمنافذ لشتى التيارات الوافدة ، على شرط أن يكون لفكرها القومى كيان راسخ أصيل متميز، لا تمسخه الطوارىء ولا تزلزله الريح. ولا يفوتها أن تفرق بين روافد تأتينا من الخارج فتخصب وجودنا الفكرى وتزيد ثقافتنا رحابة واتساعا ، وبين أن تطغى هذه الروافد على المجرى الحيوى الأصيل فتبدده أو تطمره .

وأن تميز بين المخصبات المستوردة ، وبين النبت المزروع فى أرضنا من بذرة تستمد مقومات حياتها من عناصر التربة المحلية .

وهى بحيث تعى أيضا ، أن حرية الفكر تقضى بأن يكون لإنسان العصر حق الانتماء إلى أى مذهب أو مدرسة . لكن هـــذه الحرية تغدو زيفا وضلالا ، وتمسخها أغلال الرق ، إذا لم تكن للإنسان أهلية الاختيار الحر الرشيد . وهذه الأهلية لا يمكن أن يدعيها من يجهل الشخصية المعنوية لأمته، ويعوزه فهم فكرها القومى بكل ماله من خصائص مميزة ، وكل ماله من ميراث قومى تلقاه من آباء له وأجداد ، منذ خطوتهم الأولى على درب الوجود .

ذلك لأنه بهذا الجهل ، يكون عرضة للغواية والتضليل ، والفتنة والاستهواء ، والاستعباد لما يتسلط على عقله ووجدانه من غزو ، دون مناعة أو رشد .

وبخاصة بعد أن انحرفت المعركة الفكرية فى دوامة العصر ، عن صراع قيم ومبادىء ، إلى سباق على استعمار جديد ، وتنازع على مناطق النفوذ ، الغلبة فيه

لاترتهن بقيمة المبدأ أو قوة الفكرة ، وإنما ترتهن بمكر الحيلة ودهاء الأسلوب ، أو براعة الدعاية وسخاء الإنفاق .

* * *

وآية هذا الوعى، ماتتداعى به الأمة العربية من إعادة فهم تاريخها وكتابته ، لتحريره مما شابه من تشويه وحذف وبتر . وهى مهمة جليلة لايمكن أن تتم بمعزل عن تراثنا الذى هو مادة لهذا التاريخ .

ولاحت على أفقنا الثقافى القومى بوادر استجابة للدعوة إلى تعديل قانون حماية الآثار بحيث يكفل حماية مخطوطات التراث[1] ،

كما جدت الهيئات العلمية فى أقطار الوطن العربى ، فى إحياء تراثنا ، فنشرت وزارة الثقافة بمصر مخطوطات هامة من كتب اللغة والأدب وتاريخ الإسلام ، وشارك المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى هذه الحركة ، بنشر عدد من كتب تراث الإسلام ، ونشر المجمع العلمى بدمشق ، والمجمع العلمى ببغداد ، ووزارة الأوقاف بالمغرب ، ذخائر من أمهات كتب اللغة والأدب والفقه ، كما تقدم الكويت إلى الميدان يبذل له بسخاء .

ووجه معهد المخطوطات عنايته إلى تصوير مخطوطات من خزائن الكتب العربية فى الشرق والغرب .

وشاركت بعض دور النشر الكبرى فى هذا المجال ، فنشرت مؤسسة دار المعارف بالقاهرة سلسلة ذخائر العرب ، واتجهت مكتبة المثنى فى بغداد إلى ما نشر المستشرقون من أمهات كتب تراثنا ، فأعادت نشر مانفد منها ، مطبوعاً بالزنكوغراف .

* * *

(١) بعد إلقاء هذه المحاضرات ، نشرت صحفنا فى شهر ديسمبر الماضى مشروع هذا القانون المرجو ، تقدم به السيد « الدكتور ثروت عكاشة : وزير الثقافة » إلى مجلس الأمة .

ونذكر هنا لوزارة الثقافة بمصر ، مبادرتها إلى إنشاء مركز دراسى للتراث فى دار الكتب على غرار معهد الآثار ، يزود الوطن العربى بخبراء التراث ، ويرجى أن يكون مركزاً عربياً عالياً لبحوث تراثية رائدة ، على ما سوف نعرض له بمزيد تفصيل فى ختام هذه المحاضرات .

* * *

ولا بأس بهذه الجهود كلها ، لولا أنها مبعثرة يعوزها التخطيط الذى ينسقها ويوجهها ، بما يحقق التكامل بينها ، ويحميها من الفوضى والارتجال ، ويحدد لكل هيئة منها دورها فى إحياء التراث .

ويحدونا رجاء كبير فى أن يزداد وعينا لقيمة تراثنا عمقاً ورسوخاً ، بحيث يساير وعينا القومى ، ويستوعب كل ما ترك لنا أسلافنا فى شتى فروع العلم والمعرفة ، لا يقف بها عند عصور تاريخنا الإسلامى ، بل يمتد مع ماضينا موغلا فى أعماق الزمن .

وقد تسألون عن تراثنا فى الغرب المعاصر ، فأقول إنه ما يزال يجد هناك حظه الوافر من العناية والاهتمام . ودخلت حركة الاستشراق فى مرحلة جديدة تريد مزيداً من التفهم لعقليات الشعوب الشرقية وأمزجتها .

وقد ترى فيه ما يدعم دعوة العصر إلى الإخاء الإنسانى والتفاهم بين الشعوب خدمة للسلام .

لكنها فى الوقت نفسه ، ما تزال تمد الصراع المذهبي بأسلحة قوية من فهم شعوب الشرق وتزوده بدعاة يتكلمون بلغات هذه الشعوب ولهجاتها ، فما من لغة شرقية أو لهجة من لهجاتها ، لا تجد هناك — فيما أرجح — من يتقنها من القوم ويترجم منها وإليها .

أذكر أننا فى المؤتمر الأول للكتاب الآسيويين والإفريقيين الذى عقد فى طقشند سنة ١٩٥٨ ، قررنا أن يسمح لأعضاء الوفود بإلقاء كلماتهم بلغاتهم القومية ، وكان اللافت حقا ، أن لجنة تنظيم المؤتمر وجدت لكل هذه اللغات الإفريقية والآسيوية ، وقد بلغ عددها نحو ستين لغة ، من قاموا بالترجمة الفورية من كل لغة ، إلى الروسية والعربية والانجليزية والفرنسية .

كما وجد أعضاء الوفود — ومنهم من لم يكن يتكلم بغير لغته القومية — مرافقين يتحدثون معهم بلغاتهم .

ولم تثر الظاهرة اللافتة دهشتنا ، بعد أن زرنا معهد الدراسات الشرقية فى موسكو ، ووجدنا ما زود به من أجهزة الصوتيات وأشرطة سجلت عليها اللهجات الشرقية ، يتدرب عليها من يعدهم المعهد لتلبية حاجة الاستشراق المعاصر .

* * *

ويقول المستشرق الروسي « جريجوري شرباتوف » فى مقال له عن « دراسة

المخطوطات العربية فى الاتحاد السوفييتى[1] » . بعد بيان لجهود الرواد من مستشرقى الروس :

« وبدأت مرحلة جديدة من مراحل دراسة المخطوطات العربية فى بلادنا بعد ثورة أكتوبر الكبرى. وأدى التغير الجذرى فى الحياة العلمية إلى اتساع الدراسات الشرقية وإقامة مركزى استشراق كبيرين فى ليننجراد وموسكو، وكذلك تأسيس مراكز علمية فى جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز . وفى كل من هذه المناطق تنشط حركة جمع ودراسة المخطوطات الشرقية والعربية خاصة ، كما تغيرت وتحسنت ظروف حفظ المخطوطات فيها ، وتكونت مجموعات المخطوطات العربية فى مختلف المدن : طشقند وباكو وتبليس وخاركيف . . . ، وأضخمها مجموعة المخطوطات فى معهد الاستشراق بطشقند عاصمة جمهورية أوزباكستان ، وتضم هذه المجموعة ثمانين ألف مخطوط بالعربية والأوزباكية وغيرهما من اللغات الشرقية . وأقدم مخطوطة عربية فى هذه المجموعة ترقى إلى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) . وفى السنوات الخمسينية صدرت أربعة مجلدات فى وصف مجموعة طشقند ، تتناول أكثر من ٢٧٠٠ مخطوط فى التاريخ وعلم الطبيعة والطب والجغرافيا والزراعة والفلسفة والآداب واللغة . وفى ليننجراد أيضاً، طبع فى السنوات الأخيرة جزءان من (كتالوجات) المخطوطات العربية فى معهد شعوب آسيا : الجزء الأول فى الأدب النثرى والثانى فى الجغرافيا . ويعد الآن للطبع جزءان آخران فى وصف مخطوطات الشعر العربى ، ومؤلفات التاريخ والسير ، ومخطوطات الطب . كما نشر هناك دليل للمجموعة العربية فى مكتبة ليننجراد . أما المجموعات العربية فى المدن الأخرى كموسكو وباكو وتبليسى وخاركيف ، فوجدت وصفها فى أعمال المستشرقين : ج تسيرتيلى ، و م . ساليه ، و ا . كوفاليوسكى وغيرهم .

« وعلى غرار العلماء المستشرقين الروس للقرن التاسع عشر ، واصل ويواصل

---

(١) نشر بالملحق الأسبوعي لأهرام الجمعة : ٤/١/١٩٦٢ .

المستعربون(١) السوفييت الدراسة الدائمة للمخطوطات العربية ، ولهم فى هذا الميدان ما نفتخر به من كشف وتحليل وطبع المخطوطات البالغة القيمة ، وأسماء هؤلاء العلماء كثيرة ، فنذكر منها : إ . كراتشكوفسكى ، ف . إيبرمان ، أ . بوريسوف ، ف . بيليايف ، ب. بولجاكوف ، أ. خالدوف ....

« ... ومما يجدر ذكره أن لعلماء بلادنا فضل الكشف عن مخطوطات لم تعرف من قبل ، وخاصة ما كان منها بخط مؤلفها ، مثل مخطوط الأمير السورى أسامة بن منقذ المعروف باسم (كتاب المنازل والديار) وهو يتضمن مجموعة غزيرة من الأشعار فيما بين القرنين السادس والثانى عشر ، وفى السنة الماضية نشر فى ليفينجراد النص الكامل لهذا المخطوط ، باللغة العربية .

« ويجدر بنا أن نشير إلى اكتشاف ف . بيليايف مخطوطة مجهولة من أقدم المصادر المتعلقة بتاريخ الحركة العباسية ، فدرسها ونشرها أخيرا المستعرب «ب . جرياز نيفتش » . أما فى الفلسفة فقد وجد « أ . بوريسوف » قبل الحرب فى ليفينجراد مخطوطة لها أهمية استثنائية ، وهى نسخة عربية لعلم اللاهوت الشهير الذى نسب إلى أرسطو دون تحقيق .

« وفى طشقند ، عند دراسة كتب أبى بكر الرازى الكيميائية ، اكتشف المستشرق الأوزبكى « ا . كريموف » مخطوطة يتيمة لكتاب (سر الأسرار .) وعلى أساس مخطوطة فريدة أخرى فى ليفينجراد(٢) ، كتب « ت . شوموفسكى » رسالة عن الإرشادات البحرية المجهولة لأحمد بن ماجد ـ القرن الخامس عشر . م ـ

« هذا والاهتمام الكبير لعلمائنا ، وجه إلى دراسة وترجمة المواد الجغرافية والتاريخية عن تاريخ شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والمناطق الأخرى السوفييتية

---

(١) شاع فى عصرنا استعمال هذا الاشتقاق ، تمييزاً للمشتغلين بالدراسة العربية من المستشرقين . وهو فى مصطلحنا التاريخى ، لتمييز العرب المستعربة ، عن العرب العاربة .

(٢) هي ثلاث أراجيز في علم البحار ، لأحمد بن ماجد . ولها حديث خاص يأتى بعد .

التى تعود صلاتها التاريخية والثقافية مع البلاد العربية إلى قرون قديمة . وفى هذا الصدد حققت ونشرت عندنا آثار مختلفة ومنها مثلا : رسالة ابن فضلان عن رحلته إلى منطقة الفولغا ـ فى القرن العاشر ـ والرسالة الأولى لأبى دلف الخزرجى عن رحلته إلى آسيا الوسطى والهند والصين . ورسالته الأخرى عن سفره إلى أذربيجان وأرمنيا وجورجيا فى القرن العاشر ... » .

* * *

ولعلكم تلحظون معى الاتجاه الواضح إلى العناية بتراث المناطق الآسيوية التى دخلت فى نطاق الاتحاد السوفييتى ؛ حيث بدت الأهمية القصوى لفهم شعوب تلك الجمهوريات الطارئة التى كانت من قبل أقاليم من الدولة الإسلامية الكبرى .

والجيل الحالى من مدرسة الاستشراق الروسى ، يوجه طلابه إلى إعداد بحوثهم للدرجات الجامعية العليا ، فى مجال التراث الشرقى . فالدكتور شوموفسكى نال درجة الدكتوراه فى مخطوط لابن ماجد فى علم البحار ، والدكتور بولجاكوف تقدم ببحث فى معلومات جغرافيين العرب فى آسيا الوسطى ، فى القرنين التاسع والعاشر . وكان موضوع « أولغا فرولوفا » ما فى تاريخ ابن الأثير عن ماضى شعوب آسيا الوسطى !

ويهتم معهد الاستشراق فى طشقند بتراث علمائنا فى أوزباكستان وبخارى وسمرقند وغيرها من أقاليم الشرق الآسيوى . ومما نشر من مخطوطات ذلك التراث الإسلامى ، كتاب « الآثار الباقية » لأبى الريحان البيرونى ، والكتب الأولى من القانون فى الطب لابن سينا ، وكذلك رسائله الفلسفية مع البيرونى ....

وهم يتابعون ما ينشر هنا من تراث تلك المناطق بوجه خاص ، ويترجمون البحوث التاريخية فى هذا المجال . وأقرب ما أذكره هنا ، مبادرتهم بترجمة البحث الذى ألقاه أستاذنا أمين الخولى فى مؤتمر المستشرقين الدولى بموسكو سنة ١٩٦٠ ، فى « صلات بين النيل والفولجا » ونشرت أكاديمية العلوم هناك ،

الترجمة الروسية للبحث ، مع مقدمة للدكتور بيليايف ، قبل أن يطبع الأصل العربى هنا فى القاهرة ، بثلاث سنوات .

وفى انجلترا ، نشرت جامعة أوكسفورد مجموعة محققة من نصوص المخطوطات العربية ، باسم الكتاب التذكارى للأستاذ جب ، المستشرق الانجليزى الكبير .

وتتابع المكتبة القومية فى فيينا ، نشر بحوث عن مجموعتها الكبرى للبردى فى « ألبرتينا » وأحدث ما نشرته من هذه البحوث سنة ١٩٦٠ ، الرسائل التى تبودلت بين المستشرق النمسوى كارباتشك ، والتاجر تيودور جراف ، والأمير راينر ، وهم الثلاثة الذين تدين لهم النمسا ، بفضل ظفرها بأكبر وأشهر مجموعة للبردى فى العالم كله .

وتعكف جامعة باليرمو فى صقلية ، على دراسة المخطوطات فى المكتبة الصقلية ، استكمالا للدور الكبير الذى قام به « المستشرق أمارى » فى هذا المجال وبلغ من اهتمام الدولة الإيطالية بهذا الموضوع ، أن وجهت الدعوة إلى عدد من الخبراء العرب ، ليسافروا على نفقتها ويدرسوا الآثار الباقية هناك للعرب فى صقلية . وقد كنت من بين الذين وجهت إليهم هذه الدعوة ، كى أتتبع الآثار الأدبية واللغوية . ولست أدرى أين وصلت بها الإجراءات الديوانية هنا ، بعد عامين من توجيهها !

ويواصل مركز الاستشراق فى « لايدن » بهولانده ، إعداد طبعة جديدة من « دائرة المعارف الإسلامية » .

كما بدأ منذ نحو عشرين عاماً فى متابعة عمل المستشرق الكبير « بروكلمان » واستكماله من حيث وقف عند عام ١٩٥٤ فى كتابه الشهير الجامع « تاريخ الأدب العربى » وصدر فى عامنا هذا المجلد الأول من امتداد هذا السفر ـ في نحو ألف صفحة ـ مستقصيا تراث العربية والإسلام إلى

سنة ١٣٤٠ هـ ، بإشراف العالم التركى « فؤاد سزجين » على أن يتوالى نشر المجلدات الستة تباعاً .

والحديث عن تراثنا فى الغرب المعاصر يطول، وما أردت بهذا القدر الموجز الذى قدمت منه ، إلا أن أدفع شبهة قد توهم أن الغرب الحديث كف عن الاهتمام بتراثنا ، أو شغل عنه بسباقه العلمى وصراعه المذهبى . .

* * *

وبعد فإذا كان المجال المحدود لهذه المحاضرات قد قضى بأن نتناول تراثنا بالنظرة العامة التى لا تحيط بأبعاده ، وبالفكرة المجملة التى لا تستوعب دقائق الجزئيات.

فلعل فيما أقدم من « أضواء على تراثنا » ملحقة بالمحاضرات ، ما يضيف إلى مجمل الفكرة مزيد تفصيل وبيان . .

أضـــواء على تراثنـــا

— رحلة مخطوط

— ربان السفينة على معبر الحضارة

— كنز البردى ، ومجموعة فيينا

— مؤتمر المستشرقين الدولى



رحلة مخطوط
بين شرق وغرب

المخطوط الذى أتحدث عنه ، هو نسخة من مصحف أثرى قديم فى متحف طشقند ، يقال إنه المخطوط الأصلى لمصحف عثمان رضى الله عنه

ولعل فيما أرويه من قصة رحلته ما يوضح الفكرة عن مصير تراثنا بين أيدينا ، وبين أيدى الغرباء .



شاهدت هذا المخطوط فى مأمنه بمتحف تاريخ شعوب أوزباكستان ، فى طشقند عاصمة جمهوريتها، عندما سافرت إلى هناك فى أكتوبر عام ١٩٥٨ ، عضواً فى وفد الجمهورية العربية المتحدة إلى مؤتمر كتاب آسيا وإفريقيا .

ولا مجال لحديث فى توثيق هذا المخطوط الأثرى الذى يقال هناك إنه المصحف الذى كان عثمان رضى الله عنه يقرأ فيه عند مقتله ، فلم يتح لى أن أخصه بفحص توثيق وإن بدا لى أن خطه أقرب إلى نصوص من الخط الكوفى لأواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى للهجرة . كما أن ورقه - وهو من الكاغد - يضع علامة استفهام أمام ما نعرفه من مخطوطات عصر الخلفاء الراشدين ، التى وصلت إلينا على ورق من البردى أو الرق .

لكن مخطوط طشقند ، يحمل مع ذلك مهابة القدم وجلال السمعة ، منذ اشتهر عنه أنه « مصحف عثمان » . والمسلمون فى آسيا السوفييتية ، لا يشكون فى هذا ، وهم يرون على بعض صفحاته آثار بقع يقال إنها من دم عثمان. وأقرب إلى الاحتمال أن تكون أثراً من عرق أو لطخاً من مداد .

والذى يعنينا هنا من أمر هذا المخطوط الأثرى ، أن نتتبع مسار رحلته إلى حيث انتهى به المطاف فى متحف طشقند وأن نقابل مصيره على مصير مخطوطات لمصاحف أخرى يقال كذلك إنها « مصحف عثمان » ، وقد بقيت فى حوزتنا نحن العرب المسلمين .

* * *

كما لا مجال للبحث العقيم عن المرحلة المجهولة التى قضاها المخطوط فى وطنه العربى الإسلامى، قبل أن ينتقل إلى سمرقند فى العصر المغولى، حيث يبدأ المعروف من سير رحلته .

فهناك رواية تقول إن « تيمور لنك » هو الذى نقله إلى سمرقند ، فيما نقل من ذخائر تراث الإسلام . وتعتمد هذه الرواية فيما أرجح ، على ما كتبه المسلم

الروسى « م. الرمزى »(١) : عن « ختمة شريفة ، أهديت إلى السلطان بركة ـ من ملوك التتار المسلمين ـ يذكر أنها بخط الخليفة عثمان ، بغلاف أطلس مزركش ، ضمن درج أحمر من الجلد ، على كرسى من أبنوس وعاج مطعم بالفضة » .

ولا يستبعد المؤلف ، أن يكون هذا المصحف هو الذى حمله « تيمور لنك » من مدينة سراى إلى سمرقند .

وهناك رواية أخرى تقول إن طبيبا من إقليم أوزباكستان عالج أحد السلاطين الترك من مرض عضال ، فلما خيره السلطان فى المكافأة ، اختار « مصحف عثمان » ، ومنه انتقل إلى شيخ مسجد سمرقند .

ورواية ثالثة تقول إن السلطان التركى شفى من مرضه ، ببركة ولى الله « حاج أحرار قسطنطينى » ودعواته ، فأهداه هذا المصحف الثمين ، ورحل به حاج أحرار إلى سمرقند ، حيث عثر عليه فى مدفنه هناك .

ولا تزال هذه المرحلة ـ من رحلة المخطوط ـ مجهولة المعالم ، فلنتابع بقية المراحل من سمرقند التى يبدأ منها المعروف من خط سيره .

* * *

فى سنة ١٨٦٩ ، غزت قوات قيصر روسيا إقليم تركستان ، وكان من نتائج الحملة ، أن نقلت ذخائر مخطوطاتها إلى «بطرسبورج» وفيها هذا المصحف الأثرى الذى تولى « الجنرال فون كاوفمان » مهمة نقله ، مما يشهد بأن المسألة كان لها ملحظ سياسى وعسكرى ، يتصل بما نعرف من حركة الاستشراق فى مرحلتها الثانية التى وجهتها لخدمة الاستعمار .

وإن كان قائد الحملة « الجنرال فون كاوفمان » قد برر نقل المصحف بأنه

---

(١) فى كتابه « تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار ، فى وقائع قازان وبلغار » وهو مطبوع فى قازان سنة ١٩٠٧ م

« ليست لديه قيمة عند أهله ، بل هو مجرد أثر يخص أمراء بخارى ، وقد ظل بها مئات السنين دون أن يستطيع أحد قراءته أو الانتفاع به » .

وهو تبرير ظاهره حق ، وإن أخفى القائد وراءه الهدف السياسى لنقل مخطوطات بخارى إلى بطرسبرج .

وفى بطرسبورج بدأت مرحلة جديدة للمخطوط ، حيث كان فى انتظاره مع المخطوطات الأخرى ، لجان من الخبراء عكفت على ترميمه وفحصه ودراسته وصيانته .

وكان المخطوط قد وصل من الشرق الإسلامى فى حالة محزنة : فمن بين صفحاته البالغ عددها ٣٥٣ صفحة ، لم يبق غير خمس عشرة صفحة ، سلمت من عبث الحشرات وأفاعيل البلى .

وبقى المصحف فى بطرسبرج مصوناً ، نحو نصف قرن ، إلى أن استجاب « لينين » لرغبة المسلمين فى روسيا ، فى نقل المخطوط الثمين المبارك من ليننجراد ـ بطرسبورج قبل ثورة أكتوبر ـ إلى طشقند عاصمة أوزباكستان ، بعد أن صارت ولاية روسية . وتم النقل عام ١٩٢٢ حيث أودع فى المتحف التاريخى لشعوب أوزباكستان ، فى علبة من الخشب الثمين داخل صندوق من فولاذ ، وإلى جانبه وعاء من الزجاج مملوء بسائل كيميائى ـ أظنه الكافور ـ للوقاية من الحشرات .

ولا يباح للزائرين لمس المخطوط ، كما لا يباح نقله أو إعارته ، وإنما أعدت منه صورة فوتوغرافية ، طبع منها عدة نسخ وزعت على المراكز الإسلامية بالاتحاد السوفييتى ، بقصد التبرك .

وصورة أخرى منه ، بمتحف طشقند ، فى متناول من يطلبها من الدارسين أو الزائرين .

ولدينا صورة لورقة من مصحف طشقند، صورها مدير الفنون الجميلة بتونس

فى رحلة له إلى أوزباكستان ، ومنها نسخة بالإسكندرية فى مجموعة « الأستاذ محمد ابراهيم » مدير مدرسة تحسين الخطوط وأستاذ الكتابة العربية بمعهد الفنون الجميلة بالإسكندرية . وقد تفضل فأهدى إلى نسخة مصورة لها،قابلتها على مصحف دار الكتب بالقاهرة،وعلى ما لدى من صور لبرديات من عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموى- نقلا بالتصوير عن الأصل فى فيينا - ورجحت بعد هذه المقابلة،أن مصحف طشقند يمكن أن يرقى إلى أواخر القرن الأول الهجرى . وخطه أقرب إلى خط مصحف دار الكتب ، منه إلى خط المصحف الأثرى الموجود فى مكتبة مسجد عقبة بن نافع بالقيروان ، وهو مخطوط بماء الذهب على رق أزرق نادر ، والراجح أنه يرجع إلى القرن الثانى للهجرة .

وإلى مثل ما رجحت من تاريخ مصحف طشقند ، اطمأن عدد من علماء المخطوطات فى الاتحاد السوفييتى ، منهم « المستشرق خالدوف مدير معهد الدراسات الشرقية فى ليفينجراد » .

وإن كان المسلمون فى آسيا الوسطى السوفييتية ، يأخذون بالقول الشائع عن كونه المصحف الذى كان أمير المؤمنين عثمان يتلو فيه عند مقتله .

* * *

ولكى تتم الصورة ، أقابل بين المصير الذى آل إليه هذا المخطوط منذ وصل إلى أيدى الأجانب الغرباء ، وبين المصير المجهول لمخطوط آخر قيل إنه كذلك النسخة الأصلية للمصحف العثمانى ، وأن على صفحاته أثراً من دماء الخليفة المقتول .

وقد كان هذا المخطوط فى حوزتنا ، نحن العرب ، إلى ما قبل قرن ونصف قرن من الزمان ، ثم ضاع وتاهت آثاره ، واختلفت فى مصيره الظنون وتعددت الأقوال .

وكنا بحيث نجهل كذلك أنه كان موجوداً قبل مائة وخمسين عاما فى مسجد

قلعة حلب ، لو لم تنشر (مجلة المجمع العلمى بدمشق) مقالا عنه ، لمناسبة مقال نشرته إحدى المجلات السوفييتية ، فى شهر أبريل ١٩٦٣ ، عن (مصحف عثمان الموجود فى طشقند) .

وفى مقال مجلة المجمع(١) ، أن السيد « محمد بن عمر الكيالى » ذكر فى كتابه (الحلة السنية للرحلة الشامية) – وهو مؤلف فى سنة ١٢٣٣ هـ – أنه زار أطلال قلعة حلب وصلى الظهر فى مسجدها، ثم تشرف بمشاهدة المصحف العثمانى ذى النور الساطع ، ورأى فى بعض الكلمات آثار الدم ، التى هى براهين وبينات على شهادة عثمان رضى الله عنه .

ثم يستفسر المقال عن مصير ذلك المصحف العثمانى : ألا يزال موجوداً هناك ؟ أم نقل إلى الآستانة قبل الحرب وحفظ فى متحف الأوقاف الإسلامية ؟ أم – على ما يقال – أخذه امبراطور ألمانيا يوم زار بلاد الشام ، حتى قررت (معاهدة سيفر) إعادته إلى المسلمين وتسليمه إلى الملك حسين ملك الحجاز ؟ وهل استلمه الملك حسين أو بقى لدى الألمان ؟ .

أسئلة حائرة لا تجد جواباً يكشف عن مصير ذلك المصحف الذى شوهد فى مسجد قلعة حلب منذ نحو قرن ونصف قرن ، ثم لم نعد نقف له على أثر . . .
على أن الأسئلة الحائرة تلقى ضوءاً على قضية تراثنا، حين تذكر سلطان تركيا وملك الحجاز وامبراطور ألمانيا ومعاهدة سيفر .

* * *

هل أضيف أن فى القاهرة مخطوطاً ثالثاً يقال كذلك إنه (مصحف عثمان) مخزونا فى ركن المخلفات بمسجد الإمام الحسين ، وأن مخطوطاً رابعاً ، لهذا المصحف العثمانى ، قرأنا فى الصحف – عام ١٩٦٢ – خبر عثور وزارة الأوقاف المصرية عليه ، مدفوناً فى خزانة مهملة برواق المغاربة فى الجامع الأزهر ؟

---

(١) فى عدد شهر أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، من مجلة المجمع العلمي بدمشق .

ولا علم لنا بما تم فى أمر هذين المخطوطين ، كما لا علم لنا بمصير ألوف وألوف من ذخائر تراثنا ، مخزونة فى الزوايا والجوامع ، أو ملقاة مع سقط المتاع فى دور العلماء الراحلين .

* * *

ولست أستبعد أن تكون مخطوطة طشقند ، ومخطوطة المسجد الحسينى ، وتلك التى عثر عليها برواق المغاربة فى الجامع الأزهر ، نسخاً قديمة منقولة عن المصحف الإمام مباشرة . وهذا الاحتمال يظل مجرد فرض ، إلى أن يتاح فحص المخطوطات الثلاث ، ومقابلتها مقابلة علمية تجيب عن الأسئلة الآتية :

- هل النسخ الثلاث ، مخطوطة على صنف واحد من الورق ؟

- وهل هى مكتوبة بقلم ناسخ واحد، ومداد واحد ، أو بأقلام مختلفة ومداد متعدد ؟

- وهل هى متماثلة فى عدد الصفحات ، ونسق الكتابة ، أو تختلف كل منها عن الآخرين ؟

- وهل هناك صلة بينها وبين المصحف الأثرى بمعرض دار الكتب المصرية ، وخطه يشبه خط مصحف طشقند فيما أرجح ، ومصحف القيروان الموجود بمكتبة مسجد عقبة بن نافع ، ويرجع تاريخ خطه إلى القرن الثانى للهجرة ؟

لكن هذه المهمة الصعبة لا تتم بجهد فردى ، دون رعاية من هيئة علمية تتيح للدارس أن يطلع على مخطوط طشقند اطلاع فحص وتأمل ، ثم يعود بنسخة مصورة منه . وتهيىء له كذلك مصورة من مصحف القيروان ، فتوضع المصورتان مع مخطوطات مصحف دار الكتب والمسجد الحسيني ورواق المغاربة ، في أصولها بالقاهرة .

ولعلنا لا نستثقل هذا العبء ، أو نرى فيه ما يبعدنا عن روح العصر ، إذا ذكرنا أن السيدة كراتشكوفسكايا ـ أرملة عميد المستشرقين الروس ـ قدمت بحثاً إلى مؤتمر المستشرقين الدولى الذى عقد فى موسكو صيف عام ١٩٦٠ ، كان موضوعه : (نوادر المخطوطات القرآنية من القرن السادس عشر) وقد استغرق إعداد البحث عشر سنوات دأباً ، برعاية المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى ، المشغول ببحوث الفضاء !

ربان السفينة
على معبر الحضارة

قد يخجل المثقف منا ، ألا يعرف الملاح البرتغالى الشهيرة « فاسكو داجاما » .

ولا يخجله أن يجهل اسم الملاح العربى « أحمد بن ماجد » ربان سفينة فاسكو فى رحلتها التاريخية !

وأقدم هنا كتابا من تراث أحمد بن ماجد ، نشره المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى ، مع بحث للمستعرب الروسى شوموفسكى نال به درجة الكانديدات ، من كلية معهد الاستشراق بموسكو .

وهذا كتاب من تراثنا ، يأتينا من موسكو ، وقد حققه المستشرق تيودور شوموفسكى ، ونشره المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى ، فى عصر غزو الفضاء .

ومعذرة عن البدء بذكر المحقق والناشر ، قبـــل أن أذكر اسم الكتاب ومؤلفه ، فقد يبدو لى أننا لا نزال فى حاجة إلى تبرير عنايتنا بقديمنا ، باللفت إلى ما يحمل من بصمة الغرب الجديد ، لكى نقنع قومنا بأن المكتبة الغربية المعاصرة ، لاتزال تجد فى تراثنا مايستحق كل عناية :

ومؤلف الكتاب ، قد يبدو اسمه « أحمد بن ماجد » غريباً على أسماع هذا الجيل من شباب العرب . وحين أقول إن كتابه ينتمى إلى العصور الوسطى ـــ وقد عاش المؤلف فى القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ـــ فلعل من شبابنا من يصدون عنه ، ويحسبونه أثرا متحفيا لايعنى غيرَ علماء التاريخ والآثار .

لكنهم بحيث يلتفتون إلى « أحمد بن ماجد » عندما يقترن اسمه بفاسكو دا جاما ، الذى لايجهلون أنه مكتشف طريق رأس الرجاء الصالح .

ويلتفتون إلى كتابه ، حين يعلمون أنه خرج فى عصرنا ـــ سنة ١٩٥٧ ـــ ، من « مطبعة الأكاديمية العلمية فى موسكو » .

* * *

وعنوان الكتاب على الغلاف الخارجى للطبعة الروسية :

(ثلاثة أزهار فى علم البحار) .

على حين يحمل الغلاف الداخلى عنوان :

(ثلاثه راهمانجات مجهولة)
لأحمـــد بن ماجد
ربان سفينة فاسكو دى جاما

والراهمانجات : جمع راهمانج ـــ أو راهناج ـــ وهى كلمة أعجمية تعنى كتاب البحر . وينسب إليها فيقال : رهمانى ، أى عالم بالبحار(١) .

والنص الذى بأيدينا ، طبعه المجمع فى مطبعته ، بالتصوير الزنكوغرافى ، لنسخة فريدة بمكتبة معهد الاستشراق فى ليننجراد .

وألحق به الترجمةَ الروسية بقلم شوموفسكى ، وفهارس البلدان ، والمصطلحات الفلكية والبحرية ، مع مصور جغرافى يحمل هذا العنوان :

(صورة بحر الهند ، ولها البنادر التى ندخها أحمد بن ماجد)

وأحتاج هنا أيضاً إلى تفسير لفظ (ندخها) فأقول إن الفعل فى معاجمنا اللغوية ، يعنى : صدم ، ويستعمل فى البحار بخاصة ، فيقول راكب البحر : ندخنا ساحل كذا ، وأندخنا المركبَ الساحلَ .

* * *

(١) ذكر المستشرق الفرنسى « فيران » أن اللفظ يرتفع أساسا إلى الفارسية الوسطى ، الفهلوية (راهمنك) التى تحولت فى الفارسية الحديثة إلى راهنامه ، وانتقلت إلى العربية بلفظ راهنامج أو مقلوبه راهمانج ، وتعنى فى عهد ابن ماجد « المرشدات البحرية » .

وقصة المخطوط ومؤلفه ، فى الغرب ، قصة مثيرة(١) : وهى تبدأ عندما اكتشفه « كراتشكوفسكى » فى أوائل هذا القرن ، ضمن مجموعة المخطوطات العربية فى معهد الاستشراق فى بطرسبورج . ولم تكن لدى المستشرق الكبير فكرة واضحة عن « ابن ماجد » صاحب المخطوط ، ثم لما بدأ يحاضر فى الأدب الجغرافى العربى بالمعهد الشرقى فى بطرسبورج — بين عامى ١٩١٠ ، ١٩١٧ — اتصل بالبحوث الخصبة التى نشرها المستشرق الفرنسى « جابرييل فيران » فى تاريخ الجغرافية البحرية فى العصور الوسطى . وكان « فيران » قد أمضى أعواماً طويلة - فى الثلث الأول من هذا القرن - فى الخدمة الدبلوماسية والمستعمرات الفرنسية فى الشرق الآسيوى ، وتخصص فى دراسة تراث التاريخ الجغرافى والملاحى لهذه الأقاليم . وقد عثر فى المكتبة القومية بباريس ، سنة ١٩١٢ ، على مخطوطين عربيين فى مجال دراساته ، أحدهما يتضمن تسع عشرة أرجوزة لأحمد بن ماجد فى وصف الملاحة بالبحر الأحمر والخليج العربى الفارسى ، والمحيط الهندى ، وكان الظن عندئذ أنها نسخة فريدة(٢) ، وقد بدأ « فيران » فى دراستها من عام ١٩١٤ ، وكان من المعروف أن ملاحاً عربياً صاحب فاسكو داجاما فى رحلته الأولى سنة ١٤٩٨ من مالندى على الساحل الشرقى لإفريقية إلى كلكتا بالهند ، وترد المعلومات عن هذا الملاح العربى فى المصادر البرتغالية غامضة . وهى تتحدث عنه باسم « ماليموكانا ، أو ما ليمو كاناكا » وبفضل جهود « فيران » استطاع أن يحقق هذا الاسم بمقابلة النصوص البرتغالية على المصادر العربية والتركية. وسوف نشير فيما بعد إلى ما وصل إليه من أن الاسم الحقيقى للملاح العربى هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى، وقد توارى هذا الاسم خلف

---

(١) اعتمدت فيما أرويه هنا ، على ما كتبه كراتشوفسكى فى الفصل العشرين من كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » وأذكر بالشكر والتقدير ، مازودنى به كذلك ، الأستاذ محمد منير مرسى — وقد كان مدرساً للغة العربية بالاتحاد السوفيتى — من معلومات هامة استكملت بها عناصر القصة .

(٢) ظهرت بعدها فى أوائل العشرينات من هذا القرن ، نسخة أخرى فى دمشق أشارت إليها مجلة المجمع العلمى بدمشق وجذبت اهتمام فيران . كما ظهرت شائعة عن وجود نسخة بجدة وتم الكشف بعد ذلك عن مصنفات أخرى لابن ماجد فى الموصل ، لا أعلم أنها حققت أو درست

« ماليمو كاناكا » الذى هو لقب بمعنى (المعلم) الخبير بالشئون الملاحية والفلكية

وبدأ كراتشكوفسكى أن يكتب لفيران، بشأن الأراجيز الثلاث التى عثر عليها فى معهد الاستشراق ، وهل ثمت نسخ أخرى لها . ورد عليه « فيران » بأنها فيما يعلم نسخة وحيدة فريدة .وكان من رأى كراتشكوفسكى أن يتولى فيران مهمة تحقيق هذا المخطوط ، لعمق تخصصه فى هذا المجال من التراث العربى . لكن وفاة المستشرق الفرنسى الكبير ، حالت دون ذلك .

وبقيت الأراجيز الثلاث تنتظر ، إلى أن جاء تيودور شوموفسكى — أحد تلاميذ كراتشكوفسكى - فتفرغ لدراسة المخطوط ، فى رسالة علمية نال بها (درجة الكانديدات) من معهد الاستشراق فى موسكو. ثم كان المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى، هو الذى تولى طبع المخطوط ، فى مطبعته بموسكو مع رسالة شوموفسكى سنة ١٩٥٧ .

ورسالة شوموفسكى تبدأ بمقدمة كتبها « أولدروج » ، تليها فصول أربعة : الأول منها يقدم نص الأراجيز الثلاث بالتصوير الزنكغرافى للأصل العربى ، ويقدم الثانى ترجمة روسية له ، وفى الفصل الثالث بيان لموضوع الكتاب وقيمته ، وفى الرابع محاولة للمح الروح العلمية لابن ماجد فى كتابه ، مع تعليقات للدارس الروسى .

وأنقل هنا ما جاء فى رسالة شوموفسكى عن حكاية التقاء فى فاسكو داجاما بأحمد بن ماجد (١) :

وهى تبدأ فى مدينة مالندى على ساحل أفريقية الشرقية ، حيث وصل دى جاما من جنوب أفريقيا . وهناك أشار عليه أحد سلاطين المنطقة ، بأن يصحب معه ابن ماجد ، ربانا خبيراً ماهراً يمكنه أن يقود السفن البرتغالية إلى الهند ، بما له من خبرة طويلة ببحار الجنوب . وبفضل ابن ماجد ، عرف البرتغاليون

---

(١) انتفعت هنا برسالة من السيد الزميل محمد منير مرسى . مع ما جاء فى كتاب كراتشكوفسكي عن أحمد بن ماجد ، ترجمة الزميل الدكتور صلاح الدين هاشم .

الطريق إلى الشرق ، فكان ذلك بداية مأساة حزينة عاشها الشرق: لقد استطاعت البرتغال ، وكانت هى وأسبانيا أعظم دولتين بحريتين فى القرن الخامس عشر، أن تمد نفوذها الاستعمارى إلى الشرق وتستعبد شعوبه ، وعاش ابن ماجد ليشهد حملة إبادة البرتغاليين للسلاطين العرب فى افريقيا الشرقية ، وتدعيم الاستعمار البرتغالى فى الهند وإندونيسيا .

وفى الوقت الذى وصل فيه فاسكودى جاما إلى المحيط الهندى ، كانت هناك مدن مزدهرة وبلاد تجارية على سواحل افريقيا الشرقية . ومع أن سفن التجار الهنود كانت تزور موانى البحر الأحمر وشرق افريقيا ، كما وصلت السفن الصينية إلى الجنوب العربى ومقديشو ومالندى ، إلا أن السيطرة على المحيط الهندى كانت للتجار العرب ، وكان لهم النفوذ التجارى على الساحل كله ، من سفالية فى جنوب الساحل الافريقى الشرقى ، إلى جزيرة سومطرة .

فللعرب إذن ماض حضارى مزدهر فى البحرية . لكن عندما طوى هذا الماضى صارت الثقافة العربية تكاد لا تخرج عن ثقافة بدو رحل فى الصحراء ، أو هذا ما تصوره أحياناً ، فى حين يعرف التاريخ أن البحارة الأوروبيين فى القرن الخامس عشر ، كانوا تلاميذ للعرب ، وأن الملاح البرتغالى « أنريكو » الذى يرتبط باسمه أشهر الكشوف الجغرافية البرتغالية قد استفاد من تجارب العرب فى رحلاتهم البحرية شرق افريقيا . واستطاع البرتغاليون بفضل هذه التجارب والخبرات أن يبرعوا فى صنع الأدوات البحرية ورسم الخرائط وتشكيل هيئة القيادة البحرية وتصميم أنواع جديدة من السفن ، ولم يقتصر تأثير العرب على البرتغاليين فحسب ، بل امتد إلى الغرب الأوربى حيث نرى المصطلحات البحرية مأخوذة عن العرب .

* * *

أما عن مؤلفات ابن ماجد ، فتشير رسالة شوموفسكى إلى :

حاوية الاختصار فى أصول علم البحار : ويرجع تاريخ تأليفه إلى سنة ٨٦٦ هـ (١٤٦٢ م) .

كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد : وقد طبع فى باريس بتحقيق فيران الذى يصفه بأنه أوضح ما ألف ابن ماجد(١) .

* * *

ونشرُ النص العربى لأراجيز ابن ماجد بالتصوير الزنكرافى ، لم يدع مجالا لهوامش وتعليقات حول النص ـ تحقيقا أو خدمة ـ وإنما جاءت كلها فى الفصل الرابع ، باللغة الروسية وقد حال جهلى بها دون قراءتها ، فاكتفيت بالنص العربى المصور للكتاب، وهو يحمل من المعالم الهادية إلى التوثيق نوع الخط ونمط الأسلوب .

وخط النسخة فيما أرجح ، من خط القرن التاسع الهجرى ، أى من عصر ابن ماجد .

أما نمط الأسلوب ، فمن النظم العلمى الذى شاع التأليف به بعد أن استقرت العلوم ورسخت فى العربية ، فهو على غرار (ألفيـــة ابن مالك) فى النحو ، و (عينية ابن سينا) فى الفلسفة ، و (متن السلم الأخضرى) فى المنطق ، و(متن الشاطبية) فى القراءة وعلم التجديد ، وغيرها من المتون العلمية المنظومة فى أكثر علوم العربية والإسلام .

* * *

وموضوع الكتاب ثلاث أراجيز فى علم البحار وما يتصل به من جغرافيا وفلك . والنظم فى مثل هذا أشق وأعسر من النظم فى العلوم اللغوية والأدبية . ومن عجب أن « ابن ماجد » استطاع أن ينظم مادته العلمية وخبراته الملاحية ، الحافلة بالإشارات الفلكية والمشحونة بأسماء المدن والموانى والجزر والخلجان والشعاب . لكنه اضطر ، لكى يتمكن من تطويع المادة للنظم ، إلى التضحية أحيانا ببعض قواعد النحو ، والإخلال أحيانا ببعض ضوابط الصرف والاشتقاق لتسلم له المادة العلمية . كما احتاج إلى إضافة ألفاظ قضت بها تسوية صنعة النظم وحكم القافية ، وهى ضرورة يندر أن ينجو منها ناظم من أصحاب المتون .

---

(٣) انظر حديث كراتشكوفسكى عن هذين الكتابين ، فى ص ٥٧٥ وما بعدها من « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » .

والأرجوزة الأولى اسمها (السفالية) نسبة إلى إقليم سفالة من بر الزنج على ساحل الصومال السفلي — الجنوبي — ومطلع الأرجوزة :

الحمد لله الذى أنشا الملا
من عدم ، جلّ تعالى وعلا
قد كلت الألسن عن أوصافه
وكم نرى فى البحر من ألطافه

وعدة أبياتها سبعمائة وستة وأربعون ، وفيها بيان دقيق لبحر الهند والسواحل الشرقية لإفريقيا وجزيرة القمر (مدغشقر) وأسرار الملاحة فيها ، ووصف لسكانها وأحوالهم الاجتماعية .

ومطلع الأرجوزة الثانية ، المسماة بالمعلقية ، نسبة إلى المعلق السعدى جد المؤلف ، وكان نادرة زمانه فى علم البحر :

عزمتُ والعزم حميد فى السفر
لاسيما من بلدة فيها ضرر
طالب تحت الريح بالإذعان
فى مركب يطير كالعقبان
من أرض كاليكوت بالعنايه
بأول الستين فوق المايه

وعدة أبياتها مائتان وواحد وسبعون ، وفيها بيان للملاحة (من بر الهند إلى بر سيلان وسمطرة والسيام وجاوة ، وما كان فى طريقها من الجزر والشعبان ، وكذلك بلاد الغور والصين إلى الحدود الشارفة على البحر المحيط) .

ومطلع الأرجوزة الثالثة :

سرتْ نسمة الفردوس من أرض مكة

بريح الصبا فاشتاقت السير حلبتى

وأبياتها خمسة وخمسون بيتا ، وترشد ربابنة البحار بأدق بيان ، إلى الملاحة في بحر القلزم من جدة إلى عدن .

* * *

ولاحق لى فى التعرض للمادة العلمية لكتاب ابن ماجد ، ولست من أصحاب الدراية بعلم البحار ومايتصل به من جغرافيا وفلك ، إنما أنظر الكتاب من نواح أخرى ذات بال :

فهو أولا : أثر تاريخى هام ، للملاح العربى الذى قاد سفينة فاسكودا جاما على معبر تحول خطير من العصور الوسطى إلى العصر الحديث ، وما تبع هذا التحول من تطور حاسم فى التاريخ الاقتصادى والحضارى والسياسى ، للشرق والغرب جميعاً .

وهو ثانيا : مصدر أصيل لمعجم ألفاظ عصره وأنماط أساليبه ، كما أنه يسد ثغرة كبيرة فى التاريخ الاجتماعى لشعوب شرقية ، بما يصف لنا من أحوال الناس وعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم ومواسمهم وأخلاقهم وأمزجتهم ، فى كل منطقة مر بها ملاحنا العربى من الشرق الآسيوى الافريقى .

وهو ثالثا : يلفت إلى اهتمام علماء الروس المعاصرين ، بذلك الكتاب الذى ألفه ملاح عربى أمضى فى البحار نحو نصف قرن ، وخبر من الأسرار الملاحية والفلكية ، ما لاشك فى قيمته وجدواه ، عند المشتغلين ببحوث الفضاء .

وهو رابعاً : يقدم إلينا مزيداً من ملامح العقلية العلمية للعرب ، وقد طالما ارتاب المرتابون فيها . كما يضيف جديداً إلى مانعلمه عن شخصية عالم عربى يستطيع أن يتقدم مع زملائه العلماء العرب لتصحيح الفكرة الشائعة عن مناهجا لدرس

العلمى فى البيئة العربية ، وأن يهب البيئة الحديثة بعض ضوابط منهجية يحسبها كثير منا من بضاعة الغرب الحديث .

لقد نشرت باريس من قبل ، كتابا آخر فى علم البحرية لابن ماجد ، هو (كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد) .

وفيه يخضع عالمنا المؤلف ، لمنهج علمى دقيق ، ويجعل (التجريب) أساسا للعلم فيقول :

« إن التجريب شىء ما بعده شىء » ص ٤٨(١) .

ويلتفت إلى العلل التى تشوب القياس فى التجربة ، قائلا لربابنة البحار :

« فلو قاس هذه الأنجم المجهولات أحد منكم ، لا يتكلم بها إلا بعد تجربة مكررة ثم مكررة ، صافية من العلل . فربما جرب أحدكم قياساً وفيه علة وما اطلع عليها ، فإذا رآه تكرر ، ينبغى أن ينطق به ، فو الله ما حققت هذه القياسات المنتخبات إلا بعد أن كررت عليها التجربة عشرين سنة ...

« ولم أترك فى السماء نجما إلا وقد قست درجته ، وعرفت نقصانه وزيادته »

ص ٤٨ ، ٥٢

ويحذر كذلك من استهواء المنطق فيما أدلته التجربة ، فيقول :

« فإن أكثر الخطأ فى كثرة المنطق ، خصوصا فى هذه الصنعة . وخطؤها فى المنطق أكثر من خطئها فى العلم » ص ٦٢

« وأصل علم البحر : الفن والتجريب ، فإن كان مجربا موافقاً للعقل فهو صحيح تجزم بصحته لاستكمال الأصلين » . ص ١٨٦

---

(١) الرقم هنا وفيما يلى ، يشير إلى موضعه من (كتاب الفوائد فى أصول البحر والقواعد) لابن ماجد . ط باريس .

ويؤكد أهمية الوراثة العلمية وضرورة التلقى عن شيوخ الصنعة وحضور مجالسهم معتزا بما توفر له من ذلك :

« جدى عليه الرحمة والغفران ، كان نادرة زمانه فى ذلك البحر . واستفاد منه والدى عليه الرحمة والغفران (١) وقد أخذت علم الرجلين مع كثرة التجربة وحضرت عشرين حلقة زاخرة بالمعالمة المحققين » ص ٥٦

ويؤصل قاعدة منهجية ، فى استيعاب الدارس لآثار من سبقوه فى الميدان ، لكى يبدأ من حيث انتهوا :

« فإن نهاية المتقدم بداية المتأخر »

وقد التزم هذا السلوك العلمى ، فتتبع آثار السابقين وأكبر جهودهم، واختار لنفسه لقب « رابع الثلاثة » اعترافا منه بفضل أئمة ثلاثة من علماء البحرية العرب تقدموه على الطريق : عبد العزيز بن أحمد المغربى ، وموسى الفندانى ، وميمون ابن خليل ، وقال فيهم :

« وقد عظمنا علم سابقينا وتأليفهم ، وأجللنا قدرهم رحمة الله عليهم بقولنا: أنا رابع الثلاثة » .

وفى ابن ماجد من شيم العلماء ، تواضعُ من لا يرى نفسه قطب العلم ونادرة الزمان وعبقرية الدهر ، وما كان أعظمه حين قال عن أحد مخترعاته :

« ومن اختراعنا فى علم البحر ، تركيب المغناطيس على الحقة بنفسه ، ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع فى كتاب ... فإذا كان أحد — غيرنا — يعرف ، فنحن مسبوقون » . ص ٤٦

* * *

(١) نقل كراتشكوفسكى عن الرحالة المشهور سير ريتشارد بورتون ، أن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ولى من أهل الشام يدعى الشيخ ماجد ويقرءون الفاتحة على روحه قبل ركوبهم البحر — ٢/٥٧٣ .

وأعود على بدء ، فأنظر فى كتاب ابن ماجد من حيث اتصاله بقضية تراثنا بين الشرق والغرب . فى الوقت الذى شهد هذه الجهود الجادة المضنية لعلماء الاستشراق فى الكشف عن كنوز تراثنا وماضى حضارتنا ، ومضت رسائلهم تروح وتجىء مابين موسكو وباريس سعيا وراء مخطوط لأحمد بن ماجد ، واستكمالا لوسائل تحقيقه ومعرفة شخصية مؤلفه .

انقطعت صلة هذه الأجيال منا بهذا الماضى البعيد القريب ، وغابت عنهم خطوات أجدادهم على درب التقدم والمعرفة، وثمار جهودهم فى التاريخ الحضارى للإنسانية ، ودورهم فى قيادته وتوجيهه .

وإذ نقف بمخطوط ابن ماجد ، عندما سماه « كراتشكوفسكى » : لحظة حاسمة لانتقال السيطرة من الشرق إلى الغرب ،

أنقل هنا من حديث ذلك المستشرق الكبير عن الجغرافيا الملاحية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

« .. وعندما وضع فرامورو «Fra Maure» مصوره الجغرافى فى عام ١٤٥٧ ، ذكر أن ملاحا عربيا (؟) أبحر حوالى عام ١٤٢٠ من المحيط الهندى حول القارة الإفريقية فظهر بالمحيط الأطلنطى . وقد أبصر فاسكو داجاما Vasco Da Gama فى عام ١٤٩٨ سفنا عربية إلى الشمال من موزبيق تحمل البوصلة ـ بيت الإبرة ـ وخارطات بحرية . وهو يذكر ذلك حرفيا بقوله :

"ويحمل الربابنة بوصلات لتوجيه السفن وآلات الرصد وخارطات بحرية"

وعلى إحدى هذه السفن وجد فاسكو دا جاما مخطوطات عربية بعث بها إلى الملك مانويل Manoel . أما مواطنه الشهير البوكرك Albuquerque فإنه يدين بفتوحاته فى منطقة عمان والخليج الفارسى ، بقدر ليس بالقليل ، إلى خارطة بحرية من عمل ربان عربى يدعى عمر . ويقول فى مذكراته : إن ملاحا مسلما وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى . كان ربانا عظيما ذا معرفة جيدة بهذا الساحل ، وقد أعطاه مرشدا للطرق البحرية مبينا عليه جميع موانى مملكة هرمز ، وهو من وضع ربان آخر يدعى عمر كان قد صحبه فى البحر .

« ومن تقرير لألبوكرك ، رفعه إلى ملك البرتغال بتاريخ أول إبريل ١٥١٢

نعرف أنه قد بعث إلى "الملك" بصورة "منقولة عن خارطة كبيرة عملها ربان أصله من جاوه ، ويظهر فيها رأس الرجاء الصالح . والبحر الأحمر وبحر فارس وجزائر الملوكاس والطرق البحرية لأهل الصين وأهل فورموزا ، وقد بينت الخطوط والطرق التي تسلكها السفن .

« وسنبصر بعد وهلة أن فاسكو دا جاما نفسه ، قد وفق فى الإفادة من تجربة العرب العلمية . فالمؤرخ البرتغالى باروش يذكر فى كتابه « آسيا البرتغالية » أن فاسكو دا جاما التقى فى مالندى بمسلم من كجرات يدعى المعلم كانا (؟) ووُجد لديه عدد كبير من الخارطات والآلات . هذا وقد تمكن البحاثة فى بداية القرن العشرين من الكشف عن شخصية المعلم كانا الذي دل فاسكو داجاما على الطريق من مالندى إلى قاليقوت بالهند » (١) .

* * *

والعبارة هنا عن ربان سفينة دا جاما غامضة ، وقد كان عثور كراتشكوفسكى على مخطوط أحمد بن ماجد ، هو الذى دفعه إلى متابعة البحث عن شخصية المؤلف ، وتتبع مانشر « جابرييل فيران » عن الجغرافيا التاريخية فى العصور الوسطى ، وقرأ نتيجة بحوثه المقارنة ، بين المصادر البرتغالية والعربية والتركية عن قائد السفينة المشهورة . ويأتى اسم الربان فى المصادر البرتغالية Malemo Cana - وقد يذكر باسم Canaqua ، وقد أثبت فيران أنه من ألقاب الاحترام لا من أسماء الأعلام وأن لفظ Malemo ليس سوى اللفظ العربى (معلم) بلغة السواحيلى السائدة بافريقيا . وقد دخل فى الاصطلاح الملاحى وأطلق على الشخص الذى نال خبرة عملية ونظرية فى المسائل البحرية ، وجمعه (معالمة) .

أما لفظ (كاناكا) فهو يقابل اللفظ السنسكريتى Ganika ويعنى الحاسب والمنجم .

---

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى : ج ٢ ص ٥٦٤ ومابعدها من الترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية .

ومن هنا ثبت أن لفظ «المعلم كانا» فى النص البرتغالى عن دليل دا جاما ، يعنى « الخبير بالشئون الملاحية والفلكية » وليس اسم علم لشخص ... ووراء هذا اللقب ، أغفلت المصادر البرتغالية اسم الربان العربى ، حتى أمكن الكشف عنه بالرجوع إلى نص فى مخطوط لمؤلف عربى هو « قطب الدين النهروالى » يرجع تأليفه إلى نحو خمسين عاما بعد ذلك الحادث الخطير ، أى كشف البرتغاليين لطريق الشرق !

ولست أدرى ما إذا كان أحد من مؤرخينا قد اطلع على مخطوط النهروالى قبل أن يلتقط منه سلفستر دى ساسى سنة ١٧٩٤ ، روايته عن ربان سفينة فاسكو دا جاما ؟

أما هناك فى الغرب ، فظهرت بعد قرن تقريبا من سلفستر دى ساسى ، ترجمة برتغالية لرواية النهروالى ، قدمها دافيد لوبيز David Lopes سنة ١٨٩٢ . ثم كان فيران هو الذى عكف على قراءة النص العربى وخدمته وترجمته ، وزوده بتعليقات هامة فى هذه القضية ، وعليها اعتمد « كراتشكوفسكى » فى دراسته للقضية ، واستكماله لمادة بحوثه الخصبة فى التاريخ الجغرافى لعصر ابن ماجد .

وقطب الدين النهروالى (٩١٧ : ٩٩٠ هـ - ١٥١١ : ١٥٨٢ م) أدرك شيوخ ذلك العصر ، ولقى الذين شهدوا الرحلة التاريخية التى قادها ابن ماجد ربانا ودليلا ، وما أعقب ذلك من تحول خطير عدّه قومنا كارثة قضت على ما كان للمسلمين من سيطرة على بحار المنطقة ، وفتحت ثغرة للتسلل الاستعمارى ما يزال الشرق حتى اليوم يئن من صدمتها .

والنص الذى أحدث كل هذا الدوى فى الميدان الغربى ، ورد فى كتاب النهروالى عن فتح العثمانيين لليمن (البرق اليمانى فى الفتح العثمانى) وفيه يقول النهروالى :

« وقع فى أول القرن العاشر - ١٤٩٥ م - من الحوادث الفوادح النوادر ، دخول الفرتقال اللعين من طايفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند . وكانت طايفة منهم يركبون من زقاق سبته - مضيق جبل طارق - ويلجون فى (بحر) الظلمات

ويمرون خلف جبال القُمْر — جمع أقمر أى أبيض — وهى أصل بحر النيل . ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق أحدُ جانبيه جبل والجانب الثانى فى بحر الظلمات ، فى مكان كثير الأمواج لاتستقر به سفاينهم ، وتنكسر ولا ينجو منهم أحد . واستمروا على ذلك مدة يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب — سفينة صغيرة — إلى (بحر) الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر من أمراء البحر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الأملندى (١) ، وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره وقال لهم لاتقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا فى البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وبنوا « كُوَّة » (٢) اسم لموضع من ساحل الدكن هو تحت الفرنج الآن ، (و) من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوتا . ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا ونهبا ويأخذون كل سفينة غصبا ، إلى أن كثر ضررهم وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه ابن محمد شاه ، سلطان كجرات يومئذ (٩١٧ : ٩٣٢ هـ - ١٥١١ . ١٥٢٥ م) إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى يستعين به على الأفرنج » .

* * *

(١) القاعدة النحوية فى عود الضمير على أقرب مذكور ، وجهت فيران إلى القول بأن (الأملندى هو الشكل العربى للفظ البرتغالى الميرانتى Almurante أى الأميرال) ص ٥٧١ .

واحتمال أن يكون الأملندى ، هو أحمد بن ماجد بدلالة السياق ، يجعلنا نميل إلى الظن بأنه قد يكون نسبة سماعية غير قياسية إلى « مالندى » وفيها كان يعيش ابن ماجد ، ومنها كانت رحلته ربانا لسفينة فاسكو دا جاما إلى الهند .

(٢) هي مدينة جوا البرتغالية Nova Goa .

وبفضل هذا النص ، من مخطوط قديم لقطب الدين النهروالى ، اتجه علماء الغرب ـ كما يصرح كراتشكوفسكى ـ إلى أن يتذكروا أن مصنفات شخص باسم أحمد بن ماجد , كانت المصدر الأساسى لمصنف فى الجغرافيا الملاحية وضعه أمير البحر التركى سيدى على ريس الذى قذف به مصيره إلى الخليج الفارسى والهند بعد خمسين عاما بالتقريب من الحوادث التى نتكلم عنها . فهذا الأميرال التركى يذكر فى مقدمة كتابه عددا من مصنفات أحمد بن ماجد بعناوينها . وبفضل هذا وجد اسم ابن ماجد طريقه إلى الدوائر العلمية الأوروبية منذ بداية القرن التاسع عشر . غير أن الكشف عن الأصول العربية لمصنفاته تأخر إلى عام ١٩١٢ ، حيث عثر على مخطوطتين فى المكتبة الأهلية بباريس . ومن الغريب حقا أن ذلك الكشف الضخم كان عليه أن ينتظر إلى عام ١٩١٢ ، مع أن المخطوطتين قد ورد ذكرهما فى فهرس المكتبة الذى صنفه دى سلان De Slane وتم طبعه عام ١٨٩٥ . وقد ساق الكشف عن هاتين المخطوطتين الفريدتين إلى الكشف شيئا فشيئا عن مخطوطات أخرى ومواد مماثلة (١) .

وقد أحصى كراتشكوفسكى ماعرف إلى زمنه من مصنفات أحمد بن ماجد ، فذكر أنها تبلغ نحو أربعين مصنفا .

* * *

أما هنا، فلست أذكر أنى لمحت أثرا لابن ماجد فيما قرأت للدارسين والمؤرخين العرب ، باستثناء عدد قليل منهم ، لعل أولهم شيخ العروبة أحمد زكى الذى كان أول من أشار فى سنة ١٩١٧ إلى أن « أحمد بن ماجد » هو المرشد الذى تكلمت عنه المصادر البرتغالية .

وفى سنة ١٩٢٢ أتيح لطالب مصرى كان يدرس القانون فى فرنسا ـ وهو

---

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، الترجمة العربية .

الأستاذ الدكتور محمد أمين ملش المحامى - أن يطلع على مافى المكتبة القومية بباريس من تراث ابن ماجد الذى كان يشغل دوائر الاستشراق هناك فى ذلك الحين . ثم لما عاد إلى مصر سنة ١٩٢٦ لفت دار الكتب المصرية إلى ضرورة تصوير هذه الذخائر . كما حرص من ذلك الحين على أن يتعرف إلى تراثنا التاريخى فى قوانين الملاحة البحرية . وقد ألقى عام ١٩٦٠ محاضرة بالأزهر عن « الأساطيل الإسلامية والأصول العربية للتشريع البحرى الحديث » وفيها إشارة إلى « ابن ماجد » فى سياق العرض التاريخى الرائع لأمجادنا البحرية ، مع دراسة مقارنة للتشريع البحرى الحديث وتقاليدنا الملاحية ، تكشف عن أثر باق للعرب فى هذا الميدان ، تشهد به المصطلحات العلمية العربية فى نصوص التشريع البحرى الحديث، وقد بلغ ماأحصاه الدكتور ملش من هذه المصطلحات، فى اللغة الفرنسية وحدها ، ثلاثمائة مصطلح لاتزال تحتفظ بأصلها العربى على لسان الفرنجة .

وثالث من علمائنا ، هو « الأستاذ الدكتور حسين فوزى » التقى فى رحلاته عبر تاريخنا بأحمد بن ماجد . عن طريق «قطب الدين النهروالى» الذى سجل المشهد المثير لانتقال شعلة حضارية من الشرق إلى الغرب، وكان « ابن ماجد » بطل ذلك المشهد على مانقلنا من حديث قطب الدين ، فى كتابه (البرق اليمانى فى الفتح العثمانى) .

وقد أطال سندبادنا العصرى الوقوف أمام رواية النهروالى متأملا ، وتتبع آثار رحلة ابن ماجد على السفينة البرتغالية، وهى الرحلة التى دخلت التاريخ خطوة حاسمة على معبر الحضارة، وكانت فى الوقت نفسه إيذانا بمغيب الشمس عن أفقنا، ليبدأ ليل الغزو الاستعمارى الطويل .

وكان هذا هو موضوع محاضرة للأستاذ الدكتور ، ألقاها فى الكويت عام ١٩٥٦ وانطلق فيها يرتاد مجاهل تاريخ الملاحة العربية فى القرون الوسطى، ويتلو هذه الصفحة المطوية عنا ، من تاريخنا الحضارى .

وهذا - فيما أعلم - هو كل رصيدنا من العناية بابن ماجد وتراثه !

* * *

وأختم هذا الحديث الذى طال عن ربان السفينة على معبر التحول التاريخى ، بوقفة عند حكاية سُكر ابن ماجد ، التى جاءت فى حديث قطب الدين النهروالى عن ملاحنا الكبير .

وقد ذهب كراتشوفسكى إلى أنه « يجب أن نطرح من هذا المتن ، الحكاية الخاصة بسُكر الربان المسلم ، إذ من الواضح أن المؤلف ـ قطب الدين النهروالى ـ إنما أراد بهما على ما يبدو إيجاد تبرير لموافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجة » .

وكذلك ارتاب فيها الأستاذ الدكتور حسين فوزى فى محاضرته ومر بالمسألة غير مكترث بها « لأنها لأنها لا تهمنا فى قليل أو كثير » .

على حين أراها بالغة الأهمية فى تفسير موقف الملاح العربى الذى قاد داجاما إلى بحر الهند ، وأسلمه مفتاح الطريق إلى كنوز الشرق ، مما جعل بعض المؤرخين العرب يُحملونه وزر النكبات التى حاقت بالشرق الاسلامى من ذلك الحين، ويعده ويعدونه مسئولا عن مأساة الغزو البرتغالى الذى اجتاح القارة الآسيوية وألح على المسلمين أسراً ونهبا وأخذ كل سفينة غصبا .

والمصادر البرتغالية ، تشير إلى الملاح المسلم ، فتذكر — فيما نقل كراتشكوفسكى عن مذكرات ألبوكرك — أن هذا الملاح وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى ، وكان ربانا عظيما ذا معرفة جيدة بهذا الساحل ، وقد أعطى فاسكو دا جاما مرشدا للطرق البحرية هناك . .

وبمقابلة هذه الرواية البرتغالية ، على الرواية العربية للنهروالى ، نجد أنهما تلتقيان فى القول بأن الملاح المسلم كان مسلوب الإرادة وهو يرشد فاسكو داجاما ، إما بسُكر أو بأسر . وإذا قدرنا أن النهروالى أدرك عصر ابن ماجد ، لم نجد ما يدعو إلى رفض روايته عن سكر هذا الملاح المسلم ، وليس لدينا أى دليل على اتهامها ، سوى الظن بأنه إنما « يبرر موافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة للفرنجة » .

وإذا كنا بعقلية عصرنا الحديث ، ننظر إلى الرحلة من حيث أثرها الحاسم فى التقدم الحضارى ، ولا نستطيع أن نلقى على كاهل فرد واحد ، تبعة حركة تحول حتمى ، قضت بها ظروف وعوامل مادية ومعنوية ، فإن لمؤرخينا القدامى عذرهم حين نظروا إلى الرحلة من زاويتها القومية ، ورصدوا ماحاق بالشرق الإسلامى من ويلاتها . شأنهم فى ذلك شأن الذين عدوا حفر قناة السويس مسئولا عن النكبات والمحن التى حاقت بمصر منذ أعطى « سعيد » صديقه الأجنبى فردينان دى ليسبس ، رخصة حفر المعبر الذى ظل زمانا موطئا لغول الاستعمار وقراصنة الرأسماليين من يهود الغرب .

وكما يحمل « سعيد » وزر هذه النكبات لدى من ينظرون إلى القناة هذه النظرة ، حمل مؤرخونا القدامى « أحمد بن ماجد » وزر المأساة التى كان الشرق الإسلامى مسرحا لها منذ عرف البرتغال طريقهم إلى ساحل الهند . فإذا قال مؤلف (البرق اليمانى) إن ابن ماجد فعل مافعل وهو مسلوب الإرادة من أثر السكر ، وجب أن تستوقفنا هذه العبارة بدلالتها على محنة الملاح المسلم الذى قاد الغزاة إلى وطنه ، وبكشفها عن الوسيلة الخبيثة التى لجأ إليها « كبير الفرنج فاسكو دا جاما » ليحل عقدة لسانه ، ويستدرجه إلى الكشف عما خبر من أسرار البحر وفنون الملاحة ، ويتخذ منه دليلا مرشدا لرحلة الغزو الاستعمارى الذى هى فى حساب التاريخ العام ، رحلة انتقال للحضارة من الشرق إلى الغرب قضت به سنن حتمية ، وأعانت عليه ظروف الزمان والمكان .

* * *

والحديث عن مخطوط ابن ماجد فى علم البحار ، وفضل كراتشكوفسكى فى اكتشافه وتتبع آثاره ، يغرى بحديث آخر عن سفر قيم لهذا المستشرق الكبير نشرته كذلك أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى وأعنى به (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) وتستطيعون أن ترجعوا إلى تعليقى عليه ، فى المجلد الثانى من الترجمة العربية ، نشر جامعة الدول العربية .

كنز البردى

ومجموعة (البرتينا) فى ڤيينا

العرض الموجز لموضوع تراثنا بين شرق وغرب ، تجلوه هذه القصة المثيرة للسباق بين دول الغرب على كنز البردى ، ونحن بمعزل عن هذا السباق ، كأنه لا يعنينا من قريب أو بعيد !



فى عطلة الصيف من عام ١٩٦٤ ، استأذنتُ جامعة عين شمس فى السفر إلى فيينا فى مهمة علمية لفحص أوراق البردى فى مكتبة ألبرتينا الملحقة بمكتبة فيينا القومية ، وحدد قرار مجلس الجامعة لهذه المهمة مدة ثلاثة أشهر (يونيو ، يوليو ، أغسطس) من ذلك الصيف .

* * *

ومن اليوم الأول أدركت أن الوقت المحدد للمهمة لا يكفى لاستيعاب ما هناك من سجلات البردى ووثائقه ، فضلا عن فحص قدر كاف من البرديات العربية التى يبلغ عددها نحو عشرة آلاف بردية ، ضمن مجموعة ألبرتينا الكبرى التى يقرب عددها من مائة ألف بردية مصرية .

كما أدركت أن أى جهد فردى مهما يكن سخياً ومخلصاً ، لا يمكن أن ينهض بهذا العبء .

والواقع أننى ما كنت لأستطيع أن أفعل شيئاً ذا بال ، لولا وجود أستاذى « أمين الخولى » معى موجهاً ، ومساعدة ابنتى أديبة أمين الخولى التى تفرغت لترجمة النصوص والرسائل عن الألمانية، وكانت مطالعتى السريعة لهذه النصوص، قد كشفت لى عن ضرورة أخذ تراجم لها كاملة ودقيقة .

وكنت فى رحلة لى سابقة إلى فيينا ، عام ١٩٥٩ قد زرت مكتبة ألبرتينا ، زيارة سريعة للاطلاع على مخطوطاتها من ذخائر البردى والنظر فى إمكان الانتفاع بها فى توثيق مخطوطات تراثنا ، بمعرفة نماذج من الخط العربى المبكر ، ونسق الكتابة ، وأنواع الورق والمداد . وكان هذا على وجه الخصوص ، هو ما أسعى

---

(١) من تقرير عن مجموعة بردى فيينا ، قدمته إلى جامعة عين شمس ، وإلى دار الكتب بمصر ، وطبعته موسكو باللغة العربيه سنه ١٩٦٦ .

إليه فى رحلتى الأولى إلى ألبرتينا فينا ، غير أنى ما لبثت أن أدركت أن المسألة أخطر وأهم مما قدرت :

ألوف لا تحصى من البردى ، تسجل حياة أجدادنا ، وتضىء للإنسانية تاريخ مرحلة طويلة وهامة من ماضى حضارتها ، وتعطى التاريخ وثائق مادية كاشفة لما فيه من غموض ، ومصححة لكثير مما شابه من أخطاء ، ومكملة لقصور المرويات النقلية التى تقسع للزيف والعبث والوضع ، وتتعرض للتجريح والاتهام .

ومعها ذخائر نادرة من مخطوطات على الرق والخشب والخزف والنسيج ، ودائع تركها الماضون من أهلنا ، وطوتها أرض الوادى وأطلال خرائبه لمدى قرون ودهور ، ثم لما بدأ الكشف عنها فى القرن التاسع عشر ، ازدراها قومنا فلم يجدوا فيها سوى نفايات رخيصة أو كفريات محرمة ، وتركوها للأجانب الذين تسابقوا على الكنز .

(١)

من سجلات البردى

وكانت المرحلة الأولى من العمل ، دراسة مافى محفوظات ألبرتينا من سجلات وبحوث لعلماء البردى ، وقد استطعت أن أستوعب منها ، أهم ما يحتاج إليه عملى وهذا بيان لما طالعته منها باستيعاب :

١ — دليل « كراباتشك » للبردى الذى عثر عليه فى الفيوم .

Karabacek, J. : Der Papyrusfund von el Eayùm. Wien, 1882

وفيه لوحات بالزنكوغراف ، لأهم الوثائق التى خصت من مجموعة الفيوم الأولى .

كراباتشك : « دليل عن مجموعة بردى الأرشيدوق راينر »

Fuhrer durch die Josef Karabacek : Papyrus Erzhezog Rainer. Wien, 1894

وفيه عرض لأهم البرديات التى فحصها كراباتشك ، منسقة فى فصول حسب لغاتها . والفصل الخاص بالبردى العربى ، يقدم ٩٥٠ بردية عربية مصرية ، من الفتح العربى لمصر ، إلى عصر المماليك . وهذه البرديات مرتبة ترتيباً تاريخياً ، مع تعليق من « كراباتشك » على نصها وما حوله من ظروف تاريخية ، ويقع هذا القسم العربى من ص ١٢٣ . وأرقام بردياته فى فهرست ألبرتينا من ٥٥٠ ، ١٤٠٠ .

٣ — وثائق رسمية من البردى العربى ، نشرها الدكتور جروهمان ج ١ طبع فيينا ١٩٢٣ .

Grohmann, A. ; Protokolle u. Herausgaben. Wien, 1923

٣٠٦ لوحة ، مع فهرس بأرقامها فى المجموعة العامة

٤ — جروهمان : « مدخل عام فى البردى العربى » — فيينا ١٩٢٤ .

Grohmann, A. : Allgemeine Einfuhrung in die Arabischen Papyri.

وفيه لمحة تاريخية ، لقصة العثور على البردى وأماكن العثور عليه . ومراحل انتقاله إلى أوربا ، ومواضع وجوده فى مختلف متاحفها وجامعاتها ، مع بيان مفصل للعمل الفنى والعلمى فى فك اللفائف وفحصها وتصنيفها ، وإيضاح للغاتها وخطها ومدادها وهندستها ، وتقييم لمادة الوثائق القديمة .

٥ — كتاب جروهمان عن علم البردى . ط براج ١٩٥٥

Grohmanu, A. : Einfuhrung und Chrestomathie zur Arabischen Papyruskunde. Praha, 1955.

٦ — مجموعة الرسائل المتبادلة بين تيودور جراف ويوسف كراباتشك والأرشيدوق راينر .

نشرها الدكتور هربرت هونجر فى فيينا ١٩٦٢ .

Hunger.H. : Aus der Vorgeschichte der Papyrussammlung der Osterreichischen Nationalbibliothek — Briefe Theodor Grafs. J.V. Karabacek. Erzherzog Rainer. Wien, 1962 .

وفيه نصوص للرسائل الهامة التى تروى قصة اقتناء النمسا لأكبر وأغنى مجموعة من البردى فى العالم كله ، والثمن الذى أخذه التاجر جراف من الأرشيدوق راينر لهذه المجموعة .

والكتب الأربعة الأولى لاتوجد فى المكتبات ، وإنما تستعار للقراءة من محفوظات ألبرتينا ، أما الكتب الثلاثة الأخيرة فوجدت نسخاً منها فى مكتبات فيينا ودار الكتب القومية بها . ومن هذه السجلات والبحوث لعلماء البردى عرفت على وجه الدقة والتفصيل ، قصة العثور على كنوز البردى فى أرض مصر ، والدول التى اشتركت فى السباق عليه ، والقدر الذى تملكه منه

متاحف الغرب وجامعاته ومعاهده ومكتباته ، إلى جانب ما يملكه هواة الآثار وعلماء المصريات والاستشراق .

• • •

وتبدأ القصة من عام ١٨٢٤ حيث عثر بعض الفلاحين فى منطقة سقارة على إبريق صغير من الفخار فيه برديتان عربيتان ،ظفر بهما هاوى الأثريات المصرية « برناردو دروفيتى Bernardo Drovetti » قنصل فرنسا بمصر ،وبادر فقدمهما إلى البارون سلفستر دى ساسى Silvester de Sacy ، الذى اهتم بدراستهما كما درس معهما برديات عربية أهداها القنصل الانجليزى Henry Satt إلى الملك لويس الثامن عشر.

ومضت عشرات من السنين ، دون جديد .

ثم عثر الفلاحون فجأة على أكوام من البردى فى الخرائب المهجورة لأطلال مدينة أرسنوحى القديمة ، ومكانها الحالى كوم فارس ،فى صيف عام ١٨٧٧ ،وعرض البردى للبيع فاشتراه « ج . ترافرس .G. Travers » قنصل الرايخ الألمانى فى القاهرة وأرسله من فوره إلى المتحف المصرى ببرلين .

وفى شتاء العام نفسه،عثر سكان الفيوم على مجموعة ضخمة من البردى فى خرائب (كوم الحرانية) اشترى « ترافرس » أكثرها وذهب قدر منها إلى متحف اللوفر بباريس ، وقدر آخر اشتراه بورجسن ، وروجرز — القنصل الإنجليزى بالقاهرة — وانتقل بفضل جهود شترن .Stern إلى ملكية المتحف المصرى ببرلين، فى عام ١٨٨١ م .

وفى هذه الفترة كان المستشرق النمساوى Karabacek, J. قد التفت إلى أهمية البردى عن طريق هوايته لفن النسيج الأثرى ودراسة السجاجيد الشرقية ، فحدث أن أرسل له من القاهرة ، مواطنه « تيودور جراف Theodor Graf » تاجر السجاجيد المشهور ، مجموعة من قطع النسيج الأثرية ، معها لفائف من

البردى لم يكد « كراباتشك » يراها حتى قدر ما لها من قيمة أثرية لاتقدر بمال وبادر فأرسل إلى « جراف » بالقاهرة يلفته إلى أهمية البردى ويطلب منه أن يسعى لجمعه وإرساله إلى فيينا ، وبدأ دخول النمسا فى السباق على كنز البردى من عام ١٨٨١ وكان تيودور جراف هو الذى قام بأكبر جولة ، بمهارته وخبرته ومعرفته بمصر بعد إقامته بها سنوات عديدة مستشاراً لبيت تجارى كبير .

* * *

وبعدها اتسع نطاق البحث عن البردى ،فشمل أكثر مناطق الصعيد وشاركت الدلتا مع ذلك فى إضافة قدر من الذخائر ، حيث عثر فى الفسطاط على برديات عربية من عصر الفتح ، وأخرى من العصر الفاطمى، كما عثر على قليل من البردى العربى قرب طنطا وفى كوم القلزم قرب السويس .

ولم يترك الأمر طويلا للصدفة، بل شاركت بعثات أثرية وعلماء حفريات من أوروبا فى هذا النشاط ، إلى جانب ما كان البدو والفلاحون يعثرون عليه بين الخرائب والأطلال ومن أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالبحث عن كنز البردى شفاينفورث .Schweinfurth (١٨٨٦) وجوجنت Jougnet (١٩٠٠) .

وعثرت بعثة الحفريات الألمانية بإشراف روبنسون (١٩٠٢ : ١٩٠٥) على وثائق هامة ، ثم استأنفت نشاطها من مارس ١٩٠٨ بإشراف فيريك وتسوكر Viereck & Zucker فى منطقة الأشمونين. وفى سنة ١٩١٠ عثرت البعثة الألمانية برياسة شوبرت وتسوكر ، فى عرب الكوم ، على بردى هام ، وصكوك قبطية من القرنين السادس والسابع (م) .

وشارك الإيطاليون فى الحفريات من عام ١٩٠٣ .واكتشف فيلكن وشوفر Wilcken,V. & Schofer, H. أكواما من البردى العربى فى أبوصير الملق عام ١٩٠٤ .وقام جرنفيل وهانت .B.P. Grenfell. & Hunt A بعدة حفريات فى البهنسا من سنة ١٨٩٦، وفى الفشن عام ١٩٠٢ كشفت عن برديات عربية هامة. وعثر الإنجليز على كمية ضخمة من البردى الأغريقي . وشغلت البعثة الفرنسية

البولندية بالحفر فقدمت نتائج أثرية هامة ،وبدأ المعهد الفرنسي حفرياته في إدفو عام ١٩١٤ ، ثم تعطلت بسبب الحرب العالمية إلى أن استؤنفت في ديسمبر ١٩٢١ بإشراف سان بول جيرار .Saint Paul Girard فعثرت على برديات عربية هامة وعلى عقدين تجاريين على الرق ولوحات من الطين والخشب عليها كتابات عربية وقبطية ، وظلت البعثات الأثرية تمارس نشاطها في البحث عن كنز البردى نحو نصف قرن . ففي عام ١٩٢٧ عثرت بعثة جامعة وارسو بالاشتراك مع المعهد الفرنسي الآثار في أطلال ادفو على سبع برديات عربية ، ووثائق أخرى أثرية مدونة على الرق ، كما عثرت البعثة الإيطالية للآثار Missione Archeologica d,Egitto برياسة الأستاذ فوليانو Vogliano في العام نفسه ، على مجموعات غنية من البردى الإغريقى والقبطي وبعض صكوك عربية للضرائب من القرن الثالث الهجري .

* * *

ولا تشير السجلات التى اطلعت عليها إلى مشاركة لمصر في هذا السباق الدولى على كنزها ، اللهم إلا ماذكره « جروهمان » في كتابه عن البردى العربى عن تاجر عربى اسمه « الشيخ حسن » ، قام بحفريات خفية في منطقة الفشن بقصد السرقة ، ثم لم يذكر جروهمان ماذا عثر عليه هذا السارق ، من آثار بلاده وكنوز أرضه !!

وعلى مدى ذلك الزمن الطويل لنشاط البعثات الأثرية كان البدو والفلاحون يعثرون من حين إلى آخر على ذخائر من البردى أثناء بحثهم فى الخرائب والأطلال والمقابر المهجورة عن بعض ماينتفعون به للوقود أو السماد ! ومن أهم ما عثروا عليه ، كميات كبيرة من البردى العربى فى الأشمونين حوالى عام ١٨٨٥ ضُم جزء هام منها إلى مجموعة النمسا، والباقى تقاسمته مانشستر وهايدلبرج وهامبورج والمكتبة الخديوية بالقاهرة . وهذه المجموعات تكاد توازى مجموعات الفيوم من حيث العدد والأهمية التاريخية . وفى عام ١٩٠١ عثر فلاحو (كوم أشقاو) — وتقع على بعد ٧ كم من جنوب غربى طما — على كمية كبيرة من البردي في مقبرة إسلامية

مهجورة خلف كنيسة القرية، ولم يكونوا يقدرون قيمة هذه اللفائف فأحرقوا بعضها وقودا وتركوا الباقى فى مكانه ،لكن عمدة القرية كان قد سمع تجار الآثار يسألون عن البردى فأسرع إلى المقبرة وحمل ما استطاع منه ، كما حمل الخفير الذى كان يصحبه كمية من اللفائف . وأثار هذا التصرف ريبة فى نفوس أهل القرية فطالبوا بنصيبهم مما عثروا عليه ، ولم يهدأوا حتى ظفر كل منهم ببعض اللفائف، وتسامع تجار الآثار بالحادث فأقبلوا من طما والاقصر وأخميم يساومون أهل القرية على شراء مالديهم من البردى. ووصل الخبر إلى مفتش آثار أبيدوس فلجأ إلى مأمور طما الذى ذهب إلى كوم أشقاو مع قوة من جنود الشرطة ، أرهبت الفلاحين فسارعوا إلى إخفاء مالديهم أو إحراقه ، خوفا من العقاب ! ولم يسفر التفتيش عن نتيجة،وأقامت الشرطة حراسة على المنطقة وبدأ الحفر فيها بإشراف العالم الأثرى كويبل J.E. Quibell واستمر ١٨ يوما ، فكان كل ماعثر عليه ثلاث برديات وبعض لفائف الرق القبطى والاغريقى،وبعد مضى مدة ظهرت مجموعة كوم اشقاو التى أخفاها أهل القرية، لدى تاجر بالقاهرة واستطاع الأستاذ موريتس Moritz. أن يشترى قدرا كبيرا منها، باع جزءا منه لدار الكتب الخديوية ـ وكان مديرا لها ـ واحتفظ بأكثرها لمجموعته الخاصة ، كما وصلت لفائف من بردى كوم اشقاو إلى برلين وهايدلبرج ولندن وشتراسبورج وموسكو ، فضلا عما اشتراه بعض العلماء أمثال مونستر وتاشنر Munster & Taschner, من ذخائر المجموعة .

(٢)

مصير البردى

على هذا النحو كان السباق الدولى على ذخائر تراثنا من البردى . وقد استغرق نحو قرن من الزمان على مرحلتين :

الأولى: من عام ١٨٢٤ حين عثر بعض فلاحى سقارة على إبريق من الفخار فيه لفافتان من البردى العربى — أهداهما القنصل دروفيتى إلى ملك فرنسا — إلى عام ١٨٧٧ حين عثر سكان الفيوم على مجموعة كبيرة من البردى الرائع . وهى التى اشتراها القنصل الألمانى « ترافرس » لحساب المتحف المصرى ببرلين .

وفى هذه المرحلة الأولى ، كان أمر العثور على البردى متروكا للمصادفات . فتحت ضغط الفقر والحاجة ، كان الفلاحون ينقبون فيما حول قراهم من خرائب وأطلال ، التماساً لبعض السماد والوقود ، أو بغية العثور على ما يمكن أن يرجى منه أى نفع . وبين حين وآخر كانت تقع لأحدهم سلال أو قدور قديمة مليئة بلفائف البردى المثقلة بالطين ، فيطرحها بإهمال أو يلقى بها حطباً للنار .

ولا يدرى أحد على وجه التحقيق ، كم من هذه الودائع تلف وضاع ، قبل العثور سنة ١٧٨٠ على مجموعة دمياط التى أحرقت بأمر شيوخ القاهرة ، لاحتمال أن تكون بها نصوص من الكفريات التى لا تحل مطالعتها فى ديار الإسلام .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية : فعلى وهج النار التى التهمت مجموعة دمياط ، التفتت أوروبا إلي هذا الكنز الذي هان على أهله . وبدأ عملاؤها الذين كانوا يجوسون

خلال الديار بحثاً عما تطوى أرضها من آثار، يلتمسون البردى ويتسابقون على البحث عنه ويتنافسون على شراء ما يقع منه لتجار الآثار أو الفلاحين أو البدو. وامتدت هذه المرحلة إلى قرب منتصف القرن العشرين، وفيها نشط البحث عن البردى واشتركت فيه بعثات الحفر الأثرية الأوربية، إلى جانب نشاط علماء الآثار وقناصل أوربا وتجارها وعلماؤها فى تتبع ما يعثر عليه أبناء البلد من البردى. وكان أكثر النشاط موجهاً إلى الفيوم والوجه القبلى بحكم جفاف المنطقة وقدرتها على الاحتفاظ بمثل هذه الودائع. فانتشرت بعثات الحفر وطلاب البردى تفتش فى أطلال الفيوم ومنف والأشمونيين والبهنسا وأهناسيا وأخميم وأسيوط وادفو وطما والنوبة. واتجه بعضها إلى الفسطاط والدلتا وكوم القلزم قرب السويس. ولم تنته هذه المرحلة — قبل منتصف هذا القرن — إلا بعد أن تسربت ذخائر البردى من بلدنا وتقاسمتها دول الغرب من شيكاجو إلى ليننجراد، ومن فلورنسا إلى أوسلو.

وفيما يلى بيان إحصائى لمصير البردى المصرى. نقلا عن سجلات البرتينا ودليل كراباتشك وأحدث كتاب للدكتور جروهمان:

اوروبا

النمسا:

تمتلك فيينا مجموعة الأرشيدوق راينر المودعة فى خزائن ألبرتينا بالمكتبة القومية. وسأفرد لها حديثاً خاصاً فى هذا التقرير لأهميتها وخطرها، ولأنها كانت موضع دراستى فى المهمة العلمية التى أوفدت لها.

وفى انسبروك Innsbruck. مجموعة من مائة وأربع برديات اقتنتها الجامعة عن طريق جروهمان، وفيها برديتان من الأشمونين. أما الباقى فما عثر عليه فى الفسطاط وقرب طنطا، على ندرة ما أعطي الوجه البحرى من هذه الذخائر.

ألمانيا :

فى برلين : مجموعة المتحف المصرى هنـــاك . وكان يقتنى عدداً لا بأس به من البردى قبـل أن يظفر بالصفقة التى اشتراها ترافرس .Travers عام ١٨٧٧ من بردى الفيوم والبهنسا . ثم أضيف إليه ما اشتراه القنصل روجرز .Rogers والأستاذ بورجتش Burgsch ، والقنصل شميت .Schmidt والدكتور بوك .Bock وأصلها من الفيوم . وفى عام ١٨٨٦ اشـــترى شترن .Stern مجموعة من البردى كان يملكها المهندس .Stader واقتناها المتحف . كما اقتنى ما عثر عليه الأستاذ شفاينفورث Schweinfurth· من منطقة الفيوم وأهناســيا . وتبع ذلك شراء مجموعة بورجسن وما عثرت عليه بعثات الحفر الألمانية فى الأشمونين (١٩٠٥) والنوبة وجزيرة فيله وأسيوط (١٩١٠) وفى عام ١٩٢٥ قام الأستاذ شوبرت Schubert· المشرف على مجموعة البردى فى متحف برلين برحلة إلى مصر فاستطاع شراء ١٢٧ بردية قيمة من بردى الفيوم وأهناسيا والأشمونين . وتلقى المتحف عام ١٩٢٨ سبعا وعشرين بردية أرسلها بيكر Becker·

وفى متحف الخط ببرلين أيضاً مجموعات خاصة ، أشهرها مجموعة الدكتور إيبشر Ibscher· وأصلها من الأشمونين . ومجموعة يوليوس كورت Kurth,J· ومجموعة شميت Schmidt·

وفى مدينة جيسن .Giessen : توجـد مجموعة بردى .Jand فى المعهد التحضيرى للدراسات اللغوية بجامعة لودفيج . كما يملك المتحف التاريخى فى المدينة ثمانى قطع عربية من الفيوم والأشمونين .

واقتنت جامعـــة هامبورج عام ١٩٠٧ وثائق من البردى المصرى الاغريقى . ثم بدأت بعد عامين تهتم بالبردى العربى بإلحاح من الأستاذ بيكر . واستطاعت فيما بين عامي ١٩١٠ - ١٩١٢ أن تظفر بذخائر من بردي

الفيوم والبهنسا والأشمونين وأدفو وأسوان ، فوصلت المجموعة إلى مائة وثلاثين بردية ، عام ١٩٣٨ ، أشرف الأستاذ « إيبشر » على فكها وصيانتها بين ألواح من الزجاج .

واقتنت مكتبة جامعة هايدلبرج عام ١٨٩٧ مجموعة من بردى الفيوم وأخميم والأشمونين، اشتراها الدكتور راينهارت Reinhardt — معظمها مكتوب بالعربية وقليل منه بالعبرية . وبعـــد أعوام ظفرت الجامعة بالمجموعة الخاصة بالدكتور راينهارت وعددها ألف بردية أكثرها باللغة العربية، وجزء منها باللغات القبطية والسوريانية والإغريقية والفهلوية ، وكانت المجموعة قد آلت سنة ١٩٠٣ بعد وفاة الدكتور راينهارت - بوصية منه - إلى صديقه المدير شوت Schott الذى قدمها بدوره هدية إلى جامعة هايدلبرج فأطلقت عليها اسم « بردى شوت - راينهارت : Schott—Reinhardt » تحية ذكرى وتكريم لمن جمعها ومن أهداها . وأصل المجموعة من بردى أهناسيا وكوم اشقاو وأخميم والفيوم والأشمونين . وقد نمت بعد ذلك بما أضيف إليها من نتائج حفريات مجمع هايدلبرج والجمعية العلمية فى فرايبورج عام ١٩١٤ ، إلى جانب تسع وخمسين بردية عربية من الفسطاط ، جاء بها الدكتور جروهمان. وتولى عدد من المستشرقين الألمان فحص البردى العربى فى مجموعة هايدلبرج ، منهم الأساتذة بيكر وسايدل وبيلابيل Becher, Seidl, Bilabel .

وفى مكتبة جامعة لايبزج مجموعة ثمينة من بردى الفيوم ، جاء بها الأستاذ لوت Loth من القاهرة عام ١٨٧٩ . مع مقدار آخر أرسل إلى برلين .

وفى ميونيخ تقتنى المكتبة البافارية تسع برديات عربية وبردية أغريقية عربية .

كما يوجد فى مكتبة مونستر عـدد من البرديات العربية اشتراها « الأستاذ تاشنر » من القاهرة . ومنها ما يرجع إلى القرن الثالث الهجرى ، ولم ينشر منها شيء ، وإن كانت حفظت جميعاً بين ألواح من زجاج .

بريطانيا

فى كمبردج : نص سحرى ، عربى قبطى — لعله تميمة أو حجاب — مودع بمكتبة الجامعة وقد نشره كروم وكراب : Crum, W. & Krapp, A.

وفى لندن : بالمتحف البريطانى ، مجموعة صغيرة قيمة من البردى العربى والرق أصلها من سقارة والفيوم والأشمونين ، إلى جانب مجموعة من نصوص المراسيم والصكوك من بردى الأشمونين وكوم اشقاو . وقد شارك فى فحصها ودراستها جروهمان وكروم وبيكر وبل وبيلابل .

وفى مانشستر : يحتوى كنز المخطوطات الشرقية الذى تملكه مكتبة جون رايلاند : John Ryland's Lib. على مجموعة ثمينة من ستمائة بردية عربية أكثرها من الأشمونيين. وكان « إيرل كراوفورد : Earl Crowford » قد اشتراها من مصر عام ١٨٩٩ وحملها إلى قصره فى استكلندا فاشترتها مكتبة جون رايلاند سنة ١٩٠١. وكانت هذه المجموعة جزءاً من مجموعة كبرى من بضعة آلاف بردية اشتراها كارلو جراف لاندبرج Carlo Graf Landberg سنة ١٨٩٨ وذهب أكثرها إلى الأرشيدوق رانير بفيينا . ويعتقد : « جروهمان » أن المجموعتين تكمل إحداهما الأخرى ، وقد نشرت مختارات من مجموعة كراوفورد ، عام ١٩٠٩ بمعرفة كروم ومرجليوث .

وفى عام ١٩٣٣ نشر مارجليوث الكتالوج العبرى ، وفيه وصف لثلاثمائة وأربعين بردية مع ترجمة لبعضها .

وفى أكسفورد : تقتنى مكتبة البودليانا Bodliana مجموعة غنية من البردى بينها أربع وتسعون بردية عربية بدأت بما جاء به شستر Chester من بردى الفيوم مابين عامى ١٨٧٨ و ١٨٨٤ ، ثم تلتها مشتريات المستشرق دى ساسى De sacy عام ١٨٨٨ وكانيبيرا Canybeare عام ١٨٩٦ وبيترى Petrie عام ١٩٠٨ ؛

١٩٠٩ ثم دى ساسى مرة أخرى عام ١٩٣٣ وفيها ست عشرة بردية مما عثر عليه فى كوم اشقاو ، وأحدثها مؤرخة عام ٣٢٩ ه .

ولم ينشر من مجموعة أكسفورد سوى أربعة نصوص بمعرفة مارجليوث ، منها خطابان عربيان نشرهما سنة ١٨٩٣ ، ونصان عربيان — إغريقيان عام ١٨٩٧ ويرجع تاريخهما إلى عام ٧١٩ م ، وإن كان النص العربى فيهما مطموسا .

فرنســـا

تتكون مجموعة متحف اللوفر بباريس من ثلاثمائة وست برديات عربية لم ينشر منها شيء حتى الآن . وأكثرها جاء من الفيوم .

وفى مخطوطات المكتبة القومية Bibliothèque Nationale اثنتان وعشرون بردية عربية ، منها البرديتان اللتان أهداهما دروفيتى Drovetti. B, إلى ملك فرنسا ،وأصلهما من سقارة ، وقد نشرها دى ساسى .

وفى ستراسبورج: اقتنت الجامعة والمكتبة مجموعة جميلة من البردى، بفضل جهود« Spieglberge, Reitzenstein & Preisighen »وقدنمت تباعا بما أضيف إليها من مشتريات مايرهوف .Meyerhcf, M ، وراينهارت Reinnardt ، وبورشارت Borchardt . وتضم المجموعة إحدى عشرة بردية عربية — قبطية ، وثلاثا إغريقية — عربية ، وستمائة وثمانين بردية عربية .

كما تمتلك جمعية ستراسبورج العلمية ثلاثا وعشرين بردية عربية ، وقد نشر « بيكر » اثنتي عشر بردية عربية إغريقية ، أصلها من كوم اشقاو بطما ،

إيطـــاليا

فى معهد البردى بفلورنسا،عدد من البردى العربى عهدبدراسته إلى المستشرق ليفى ديللا فيدا Levi della Vida — توفى هذا العام — وفى المعهد أيضا مجموعة من البردى الإغريقى واللاتينى الرائع .

وظفرت ميلانو بمجموعة من البردى العربى ، جاء بها فوليانو أثناء رياسته لبعثة الحفر الإيطالية بمصر ، وأضيفت إليها بعد ذلك كمية أخرى ، لا يعرف عددها .

تشيكوسلوفاكيا

فى المعهد الشرقى بمدينة براج ، مجموعة فيسيللى C. Wesely الثمينة المكونة من ٨١٨٢ قطعة منها ٨٩٧ بردية عربية ، وكان فيسيللى قد اشتراها عام ١٩٠٤ من تاجر أرمنى فى باريس ، وآلت بعد وفاه فيسللى بوصية منه إلى الأستاذ هوفنر Hopfner, Th. فى براج فباعها فى يونيو ١٩٣٤ إلى المعهد الشرقى . ومن هذه المجموعة نشر جروهمان ستة وتسعين نصا ، فيما بين عامى ١٩٣٨ ، ١٩٤٣ وأكثرها — على الأرجح — من الفيوم والأشمونين .

الاتحاد السوفيتى

توجد ثلاث مجموعات : واحدة فى موسكو ، يقتنيها متحف الفنون الجميلة وقد جمعها جولينتشيف V. S. Goleniscev من مصر عام ١٨٨٨ ، ١٨٨٩ منها نحو مائة بردية عربية ، وبعض البرديات العربية الإغريقية ، والقبطية .

ومجموعتان فى ليننجراد ، أولاهما مجموعة ليشاكوف N. Lichacov التى اشتراها من القاهرة وفيها عدد من بردى كوم اشقاو ، والأخرى فى المجمع العلمى

فى ليننجراد ـ المتحف الباليوجرافى سابقا ـ وفيها مائة صك نشر بعضها بمعرفة بريبلكين Berepelkin عام ١٩٣٦ فى دليل « معرض الخط فى العصور القديمة والوسطى » .

أما مجموعة موسكو فلم ينشر منها شيء . وكان كراتشكوفسكى Krackovskij وبارتولد Bartold قد مهدا للبحث العلمى على البردى العربى قبل الثورة . لكن لم يتم العمل . وفى عام ١٩٣٤ أدخل « معهد الكتاب » فى برنامج عمله ، البحث عن البردى العربى ودراسة مجموعتى ليننجراد ومجموعة موسكو ، ولم تنشر نتائج هذا العمل ، فيما أعلم .

بولندا

اقتنت جامعة وارسو عام ١٩٣٣ تسعا وأربعين بردية عربية من الفيوم أهداها إليها الأستاذ شميت . ثم أضيف إليها بعد ذلك ، ماجاءت به بعثة حفريات الجامعة بالاشتراك مع المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة ، عام ١٩٣٧ .

وتوجد فى مجموعة بردى المعهد التحضيرى للغويات بالجامعة ، أربع برديات عربية منها ثلاث رسائل .

* * *

وحرصت دول أوربية أخرى — لم تشترك فى السباق على البردى — على اقتناء بعض نماذج منه :

فى سويسرا :

يوجد فى متحف أراو Arrau الطبيعى عدد من وثائق البردى يعتقد أن تشوكر Zschokker جاء من بها القاهرة فى أخريات القرن التاسع عشر ، ووضعت فى متحف الجمعية التجارية ، ثم آلت إلى المتحف الطبيعى .

وفى النرويج :

توجد فى مكتبة جامعة أوسلو مجموعة من البردى المصرى نحو مائتين إلى ثلاثمائة جاء بها الدكتور أيتفرم .S. Eitverm من القاهرة .

وفى المتحف العثمانى بالقسطنطينية (تركيا) بردية عربية من كوم اشقاو ، نشرها بيكر .

امريكا

اقتنت جامعة ميتشجان مجموعة من البردى المصرى ، فيها خمس وستون بردية عربية عام ١٩٣١ . ثم أضيفت إليها عام ١٩٣٢ مجموعة أخرى من أجمل البردى ، أصلها من الأشمونين ، وقد اهتم الأستاذ واريل Worell بدراسة هذه المجموعة وان لم ينشر شىء منها حتى عام ١٩٥٥ .

وظفر المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو ١٩٢٩ بالمجموعة القيمة من البردى المصرى والرق والمخطوطات التى جمعها مورتس .B.Mritz خلال إقامته الطويلة بمصر مديرا لدار الكتب الخديوية ، وعندما رحل عن مصر حملها معه ثم باعها :

وبعد سنتين اشترت الجامعة سبعين بردية عربية عن طريق الأستاذ بونر Bouner. وفى أعمال سريعة متلاحقة نشر أبوت Abbott ثلاث عشرة بردية عربية من تلك المجموعة ، منها رسائل من القرن الأول الهجرى (٩٠ ، ٩١ هـ) ونصوص عن أديرة الفيوم ، ووثائق من عهد الخليفة المتوكل على الله ، وعقدان من عقود الزواج العربية .

البلاد العربية

مصر :

لم تظفر مصر من كنزها الذى تقاسمته دول الغرب ، بغير مجموعتين فى القاهرة :
أولاهما فى دار الكتب وعددها نحو ألف بردية ، ويرجع الفضل فى تأسيس المجموعة إلى الأستاذ موريتس ، الذى كان مديرا للدار من عام ١٨٩٦ إلى ١٩١١ فاشترى لحسابها بعض القطع ، مع ما كان يشتريه لمجموعته الخاصة . ثم جاءت بعض القطع هدية إلى الدار ، وأضيف إليها ما اشتراه ميشيل كازيرا Michel Casira من بردى الفيوم والأشمونين فى الأعوام من ١٩٠٣ إلى ١٩٠٥ وفى فبراير ١٩٠٦ ، ضم إلى المجموعة عدد نادر من البردى كان فى حوزة مصرى من الجيزة اسمه « الشيخ على » فبلغ رصيد الدار من البردى فى عهد « موريتس » نحو ألف قطعة زادت بعد ذلك بما أضيف إليها من بردى الفيوم والأشمونين والبهنسا وكوم اشقاو وأدفو والدلتا .

وموريتس ، هو الذى قام كذلك بإعداد المجموعات فى صالة العرض ، وقد استكمل معرض البردى بعد ذلك فى عام ١٩٣٩ وشارك الدكتور ايبشر Ibscher. فى صيانته وإعداده ، وكان من المقرر طبع دليل عن مقتنيات الدار من البردى عام ١٩٣٩ ولكن الحرب حالت دون ذلك .

ونشر عن هذه المجموعة مقال لموريتز عام ١٩٠٥ ، وآخر فى مادة الخط العربى بدائرة المعارف الإسلامية . وثالث فى الجزء الخامس من حوليات الإسلام لكايتانى ، Annali dall Islam. وأعاد بيكر نشر القطع التى نشرها مورتس ، مع ترجمة وتعليق ، بعد إقامة قصيرة فى القاهرة عام ١٩١١ . ثم كان جروهمان هو الذى اشتغل بدراسة مجموعة دار الكتب فنشر بمعاونة موريتز عام ١٩٢٤ ثمانية نصوص ديوانية (مراسيم) ثم وضع برنامجا لنشر المجموعة فظهر الجزء الأول عام ١٩٣٤ وفيه اثنان وسبعون مرسوما ديوانيا ، والجزء الثانى عام ١٩٢٦ وفيه ثلاثة وسبعون صكا

رسمياً أيضاً ، والجزء الثالث عام ١٩٣٩ وفيه ٦٩ نصاً من البردى الحكومى ، وأعد للنشر الجزء الرابع وفيه ٧٤ نصاً ، والخامس والسادس وفيهما ١٧٤ وثيقة من تاريخنا الاقتصادى ، ويختص الجزء السابع بصكوك الضرائب ، والثامن بالرسائل والأدب . وترك لدار الكتب نشر هذه الأجزاء خدمة لتراثها الوطنى . وفى عام ١٩٣٤ نشر جروهمان محاضرة عن بردى دار الكتب كان قد ألقاها فى الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٩٣٢ .

والمجموعة المصرية الثانية موجودة فى المتحف المصرى بالقاهرة وأغلبها قبطى لم ينشر عنها إلا بحث للمستشرق كازانوفا .P. Casanova . كما نشرت بعض نصوص عربية كانت ضمن صكوك قبطية ، من ترجمة سلان .Slanes وطبع جياسكو بعض هذه النصوص سنة ١٨٨١ . وبالإضافة إلى مجموعتى دار الكتب والمتحف تقتنى دار الآثار العربية رِقَّين من جلد الغزال عليهما عقدان تجاريان وبعض البردى من حفريات الفسطاط وأدفو ، مما عثرت عليه بعثة المعهد الفرنسى للآثار بالقاهرة ، وذكر جروهمان أن بالقاهرة عدداً من المجموعات الخاصة أهمها مجموعة ميكاليدس .G· michaelides ، ومجموعة مايرهوف ، ومحمد على سعودى بعين شمس (؟)

• • •

وفيما عدا القاهرة لا تشير سجلات البردى بفيينا إلى وجود شىء منه فى الأقطار العربية ، عدا مجموعة أستاذنا «حسن حسنى عبد الوهاب» بتونس ، كما لا تشير إلى أى أثر للبردى فى الشرق الآسيوى الإفريقى .

(٣)

مجموعة راينر فى ألبرتينا

(مكتبة فيينا القومية)

وأتحدث الآن عن مجموعة فيينا وهى أكبر وأغنى مجموعة من البردى المصرى فى العالم كله. وقد استطعت من مطالعتى للوثائق والسجلات الخاصة بها فى محفوظات ألبرتينا أن أتتبع القصة المثيرة من أولها ، حيث يتكرر المشهد بصورة أو بأخرى فيما آل إلى بقية الدول الغربية التى اشتركت فى السباق على الظفر بودائع هانت علينا من تراث أجدادنا .

والغريب أن النمسا لم تتجه إلى الاشتراك فى السباق على البردى منذ بدأ فى أوائل القرن الماضى ، وحتى حين بلغ ذروته فى الربع الأخير من ذلك القرن ، كانت النمسا لاتزال زاهدة فيه منصرفة عنه . وفى الوقت الذى تنافس فيه قناصل ألمانيا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا على شراء مايعرض من البضاعة فى أسواق القاهرة والصعيد ، وقف قنصل النمسا بمعزل عن السباق وترك زملاءه الآخرين يتقاسمون الغنيمة. بل إن العالم النمساوى المستشرق «كراباتشيك» والتاجر «تيودورجراف» اللذين كسبا للنمسا مجموعتها الكبرى ، لم يهتما بالبردى فى بادىء الأمر ، وإنما كان أولهما مشغولا بهوايته لفن النسيج الشرقى وكان الآخر مشغولا بتجارة السجاجيد ، يحمل منها إلى فيينا روائع القطع الأثرية النادرة فى رحلاته التجارية إلى مصر ، حيث أقام سنوات طويلة مستشارا لبيت تجارى كبير فى الاسكندرية ومن هنا نشأت الصلة الوثيقة بين تاجر السجاجيد وبين المستشرق الهاوى للمنسوجات الأثرية ، فكان جراف يربط كل رحلة تجارية له إلى مصر ، بالغرض العلمى الذى

يهم صاحبه . واستطاع قبل الثورة العرابية أن يرسل إلى فيينا مجموعة نادرة من السجاجيد الشرقية لم تشاهد عاصمة النمسا لها مثيلا من قبل .

وبلغ من اهتمام « كاراباتشك » بهذه البضاعة الأثرية أن أغرى « جراف » بالحفر فى المناطق الجافة بالصعيد عن مقابر العصور التى تلت عصر الفراعنة بمصر ، أملا فى العثور على خرق من النسيج فى عهد الإغريق والرومان ، وكانت مفاجأة لكاراباتشيك أن بعث إليه صاحبه ، فى عامى ١٨٨١ ، ١٨٨٢ م ببعض خرق البردى ضمن مجموعة من قطع النسيج القديمة . ومن هنا بدأ اهتمام « كاراباتشيك » بالبردى المصرى ، وبدأت فى الوقت نفسه قصة المجموعة الثمينة التى تعدها النمسا اليوم ، من أمجد مآثرها على تاريخ الحضارة ، ذلك أن العالم المستشرق لفت صديقه التاجر إلى أهمية هذه الخرق ، وألح عليه فى بذل أقصى الجهد للظفر بأكبر قدر منها .

ولم يكن للقناصل الأوربيين الذين جندتهم دولهم للسباق على الكنز قبل تنظيم البعثات الحفرية ، من الخبرة بالسوق والصلة بأبناء البلد ، مثل ما لهذا التاجر الخبير الذى لم يكد يدخل الميدان حتى خرج من الجولة الأولى بمجموعة من لفائف بردى الفيوم وأهناسيا مقدارها عشرة آلاف بردية ، ظهر بعد الفحص أنها مكتوبة بست لغات ومنها ثلاثة آلاف بردية عربية ! وعرفت برديات هذه الصفقة فى الدوائر العلمية فى أوربا بمجموعة « جراف أو مجموعة الفيوم الأولى » Der erste Fayumer Fund.

وتلقى « كاراباتشيك » هذه البضاعة وهو لايكاد يصدق أنها صارت إليه ، لكنه حين حاول فحص نصوصها ، وجد البرديات فى حالة تعسة ، فإلى جانب ما تآكل منها وعبث به الدود ، كانت هناك ألوف من اللفائف المتحجرة لطول المدى على طيها ، مع ما تراكم فوقها من الطين الجاف ، ومنها ما كان مربوطا بخيوط من الصوف أو ما كان مخيطا من أحد جوانبه على هيئة كراسات . وكانت محاولات فكها تعرضها للتمزق والتلف ، مالم تبذل عناية تامة لإزالة الطين منها وتطريتها ، كى يمكن فردها وفحصها . وكان المعروف أن قدرا هائلا مما عثر عليه البدو والفلاحون

فى خرائب الصعيد قد تلف تماماً عندما حاولوا فك اللفائف بغمرها فى الماء . من هنا اتجهت محاولة « كراباتشيك » أول الأمر إلى تطرية اللفائف شبه المتحجرة بتعريضها لبخار الماء الساخن ، لكنه ما لبث أن عدل عن هذه الطريقة التى طمست بعض النصوص ، إلى طريقة التطرية الباردة التى جربها الألمان بنجاح فى صفقة القنصل « ترافرس سنة ١٨٧٧ » وبعد عمل شاق متواصل وجهود مضنية أمكن فك اللفائف الملتوية وفتح الكراسات الملتصقة .

وكشف الفحص السريع لما تم تنظيفه وتطريته ، عن وجود نصوص ذات أهمية لا تقدر ، فكانت الخطوة الثانية ، تصنيف برديات المجموعة ، فى فئات متجانسة لغة أو متقاربة زمنا أو متكاملة قطعا ونصا . واقتضى تعدد لغاتها الاستعانة بعلماء فى اللغات العربية والسامية والفارسية والفهلوية والقبطية واليونانية وكلما تم تجهيز إحدى البرديات ووضعت بعناية فى إطار بين لوحين من الزجاج برقم مسلسل .

* * *

وتقدم العمل بفضل الجهود المتآزرة مع الخبرة الفنية والعلمية بحيث أمكن إعداد مئات من البرديات التى تم فحصها وتنسيقها ، وأقيم لها معرض فى السابع والعشرين من مارس ١٨٨٣ بالمتحف النمسوى للفنون . وألقى « كاراباتشيك » فى حفل الافتتاح محاضرة عن قيمة هذه الوثائق وأهميتها والنتائج الأولى لبحوثه وبحوث زملائه من العلماء كما قدم ثمرة العمل فى دليل مفصل مطبوع .

ولكن المتحف النمساوى لم يبد مع ذلك رغبة ما فى شراء هذه المجموعة الثمينة واقتنائها . وعبثاً حاول « كاراباتشيك » أن يقنعه بضرورة شرائها ، وخاصة بعد أن تحرج الموقف : فالتاجر « جراف » قد دفع ثمنها من ماله الخاص ، وقد طال انتظاره للبت فى موضوع شراء النمسا لها ، فى الوقت الذى تعرض فيه لضغط إلحاح شديد ومساومة مرهقة من بعض الدول الأوروبية وبخاصة ألمانيا التى أبدت استعدادها لشراء المجموعة بالثمن الذى يرضيه .

وبدا كأن النمسا توشك أن تفقد ما وصل إلى عاصمتها من كنز البردى ، لولا أن سعى كاراباتشيك لدى « الأرشيدوق راينر » — راعى المجمع العلمى فى ذلك الوقت — ونجح المسعى فدفع الأمير ثمن المجموعة كلها . وأبقاها باسمه فى متحف فيينا ، ثم أضاف إليها المجموعة التى اقتناها « كرال » أثناء مقامه بمصر سنة ١٨٨٢ كما آلت إلى « راينر » بعد ذلك مجموعة العالم الأثرى « شفانيفورت Schweinfurth. التى عرضها للبيع فى سوق القاهرة سنة ١٨٨٦ ، ونجح التاجر جراف فى شرائها . وهى التى تعرف بمجموعة الفيوم الثانية «Der zweite Fayumer Fund»

وظل الرصيد ينمو بما أضيف إلى مجموعة جراف مما كان جراف وغيره يرسلونه إلى فيينا ، من جديد ما يعثر عليه من البردى المصرى، ومنه كتاب الموتى Totenbuch الذى جاء به هاينريش Heinrich ، ومخطوطات من هوميروس جاء بها فسيلى Wessely فضلا عما اشتراه العالم الأثرى جراف لاندبرج Graf Landberg الذى كان يقوم إذ ذاك بحفريات فى الجنوب العربى موفدا من مجمع فيينا للعلوم ، وقد ألح عليه زميله كاراباتشيك أن يمر بالقاهرة لشراء ما يمكن شراؤه من البردى العربى ، فاستجاب لاندبرج لرجاء زميله ومر بالقاهرة فى خريف عام ١٨٩٨ . وقد تم فى هذا العام شراء آلاف من بردى الأشمونين تمتاز بدقتها وتفوقها ولونها البنى الفريد . وكانت كل المشتريات تتم لحساب الأرشيدوق راينر .Erzherzog Rainer وتضاف إلى مجموعته التى بقيت فى متحف الفنون بين أيدى الخبراء والدارسين .

* * *

وقبل أن تلتفت مصر إلى تسرب هذا الكنز من أرضها، كانت مجموعة راينر قد بلغت نحو سبعين ألف بردية ! وفى أغسطس ١٨٩٩ قدمها الأمير إلى مكتبة البلاط الامبراطورى، هدية عيد الميلاد القيصر « فرانز جوزيف Franz Josef »

وكان كاراباتشيك قد عين مديرا للمكتبة قبل ذلك ، حيث عاش ما بقى من عمره متفرغا للمجموعة ، ينميها ويرعاها ويفحصها ويدرسها بمعونة عدد من العلماء والخبراء ، إلى أن مات فى التاسع من أكتوبر ١٩١٨ وبقيت المجموعة من بعده فى قاعة ألبرتينا بمكتبة فيينا ، ذخيرة قومية غالية ، ومزاراً للعلماء والسائحين من أنحاء العالم الغربى المعاصر .

* * *

وكل هذا الذى أشرت إليه من مجموعة بردى فيينا ، لم يكن شىء منه مجهولا للمستشرقين وعلماء المصريات ومؤرخى الحضارة من الغربيين ، فمنذ عام ١٨٨٣ تتابعت المنشورات من البحوث والوثائق كاشفة عن قيمة هذا الكنز ومحصية ذخائره ومعلنة عن أشخاص الأبطال الثلاثة الذين كسبوا للنمسا أكبر جولة فى السباق وجعلوا من فيينا العاصمة الأولى لدراسة البردى . لكن بقى وراء هذا المعلوم من القصة ، أسرار خفية لم يكن أحد يدرى بها سوى أولئك الثلاثة ، حتى ظهر كتاب هربرت هونجر .Hunger. H فى فيينا ١٩٦٢ فأذاع كل الأسرار المطوية بنشر نصوص الرسائل التى تبودلت بين تاجر السجاجيد تيودر جراف ، والمستشرق يوسف كاراباتشيك والأرشيدوق راينر . وتبدأ الرسائل من عام ١٨٨١ حيث بدأ كاراباتشيك يحث صديقه العزيز « تيودورجراف » على البحث عن البردى فى خرائب الصعيد وأطلال الفيوم ، دون أن يكون للتاجر خبرة بقيمة البضاعة المطلوبة والثمن الذى يجوز لمثله أن يدفعه . ومن القاهرة بعث «جراف» إلى صديقه الأستاذ خطابا مؤرخا فى ١٨٨١/٣/٨ جاء فيه :

« ..... بعد رسالتى الأخيرة التى طلبت فيها نصيحتكم بخصوص شراء السجادة الدمشقية القديمة ، يسرنى أن أبلغكم اليوم أن بحثى عن قطع البردى انتهى بنجاح ، وإن تكن قطعا صغيرة . ولعل قيمتها فى أنها مكتوبة بعدة لغات من أقدم العصور . ومن الصعب على أى حال العثور على لفائف كبيرة سالمة من

الضرر . وأنا أتابع فى الوقت الحاضر البحث بحماس مع الأمل فى النجاح . وقد أرسلت إليكم هذه القطع بالبريد المسجل وآمل أن تخبرنى قريباً عما إذا كان لها قيمة ؟ وما قيمتها ؟ وهل أستمر فى إرسال القطع الصغيرة إذا لم أوفق فى العثور على لفائف كبيرة ؟

« الواقع أنى لا أدرى هل تستحق هذه القطع المرسلة إليك مادفعتُه فيها من ثمن ؟ وسوف أسافر إلى أسيوط بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، ولعلى أعود من رحلتى بنتائج طيبة ...... » .

ومن فيينا جاء رد « كاراباتشيك » مؤرخا فى ١٨٨١/٤/٩ :

« ....والآن إلى البردى ! كنتَ على حق إذ أرسلت هذه اللفائف الصغيرة ، ففيها قطع جميلة لايزال خطها واضحاً جديداً ، وبعض هذه القطع كاملة . ومنها صك من عام ١٦٢ هـ (٧٧٩م) وفى الجزء الأخير منه ، صيغة كاملة وردت مبتورة فى بردية أخرى بتاريخ ١٨٠ هـ ولم يكن من المستطاع إكمالها لولا الظفر بالصيغة نفسها تامة ، فى هذه البردية التى أرسلتها مع الدفعة الجديدة. ومع سرورى البالغ بجمال هذه القطع وقيمتها ، لا أزال ألح فى طلب مزيد منها ، فإن قطعة صغيرة من صك أو وثيقة ما ، يمكن أن تضىء لنا ما ظل غامضاً علينا لمدى طويل . واكتب لى فى خطابك التالى بيانا عن حالة الأختام على اللفائف ومدى سلامتها ...

« وعشرون فرنكا للقطعة قد تبدو غالية ، لكن سوف نرى . وعلى أى حال لن تصاب بخسارة ما ولى رجاء : تجد على زاوية الصفحة الأخيرة من خطابى ، ثلاث عبارات عربية ، لها دلالة خاصة فى العربية . وتستطيع أن تستفسر لى من بعض أصحابك العرب ، عما إذا كانت لاتزال مستعملة إلى اليوم بدلالتها القديمة ؟ وثق أنني سوف أدين لك بكثير إذا ماتمت لى بهذه المهمة ، ولكن يجب ألا تذكر

إطلاقا أن هذه العبارات منقولة من نصوص البردى ، بل يكفي أن تقول إنها وردت في مخطوط قديم »(١)

* * *

والرسائل التى بعثها جراف من مصر عام ١٨٨٢ تنم عن قلقـه البالغ بسبب أحداث الثورة العرابية ، ومايمكن أن تسبب من تعطل التجارة بعد أن تقدم العمل فى البردى بسرعة مذهلة ونجاح باهر . لكنه استطاع مع ذلك ، أن ينظم العمل بفضل رجاله من الأعراب الذين كانوا يجوسون خلالى الديار ويحملون البضاعة إليه حيثما كان ، فى حرص وأمان ، فنقرأ فى رسالة منه إلى كاراباتشيك بتاريخ ١١/٤/١٨٨٢ :

« رجالى العرب Meine Araber قد تعلموا الآن جيداً ، ودُربوا على العمل تدريباً طيباً ، وحتى فى حالة اضطرارى إلى الغياب عن مصر ، فإنهم سوف يحفظون لى كل مايعثرون عليه من البردى ، ومنذ ثمانيــة أيام وهم غائبون عن القاهرة فى جولة لجمع البضاعة ، وأنتظر عودتهم بصبر نافد ، وأطمع فى أن يحضروا لى هذه المرة شيئاً رائعاً ... » .

ثم كتب من القاهرة بعد خمسة أيام :

« ... وقد تسلمت خطابك اللطيف ، ويؤلمنى حقاً أن الطرد الذى بعثته إليك — وفيه أقمشة أثرية وبردى وعملات ذهبية قديمة — لم يكن قد وصل إليك فى فيينا ، حتى اليوم الخامس من أبريل . ولا بد أن رحلة الباخرة كانت سيئة لتأخر وصولها إلى تريستا . . .

---

(١) يعلق الدكتور هونجر ناشر الرسائل على هذه الفقرة بقوله : كل مايتعلق بالبردى كان يتم فى الخفاء بصورة أو بأخرى ، وقد حذر كاراباتشيك فى خطابه رقم ١١ إلى تيودورجراف من الكلام في مصر عن وصول شيء من البردي إلى فيينا .

وأنت ترى أننى أسير فى الطريق السليم ، وأرجو أن أوافيك قريباً بأشياء هامة مما نعثر عليه . وقد أحضر رجالى العرب تحفاً مصرية أثرية ستأخذ طريقها إلى فيينا ، ثم عادوا إلى الصعيد يستأنفون بحثهم . وقد انتظم العمل بحيث يجد ما يعثرون عليه ، طريقه المأمون إلىّ ، ولو لم أكن موجوداً بمصر...

وقد زرت القنصل العام بالإسكندرية « البارون كوزبيك » ولم تتح لى فرصة لقائه ، لكن البارونة استقبلتنى بلطف زائد . وإذ كانت مهتمة بالسجاد القديم ، أهديت إليها نسخة من كتابك عنه .

وأرجو أن يصلنى يوم الخميس خطاب منك عن الأقمشة والبردى والنقود الأثرية التى بعثت بها إليك ، فأنت لا تتصور مقدار لهفتى على وصولها ومعرفة رأيك فيها .

بالأمس كنت فى طنطا ، وعدت إلى القاهرة فى المساء ونحن نعيش هنا فى وقت عصيب بسبب الأحداث السياسية . وقد اكتشفت مؤامرة على حياة « عرابى باشا » البطل الأسطورى ، فى اليوم الحادى عشر من هذا الشهر ، ولا يدرى أحد ما تأتى به الأيام القادمة ، وإن شاء الله سأسافر اليوم إلى الإسكندرية ومنها إلى تريستا حيث أرجو أن أكون عندك بفيينا فى آخر الشهر .

* * *

ووصل جراف إلى فيينا ، فلم يجد صديقه الدكتور كاربارتشيك هناك فبعث إليه رسالة بتاريخ ١٨٨٢/٥/٨ يقول فيها :

« صديقى العزيز ... جاءنى فى بريد اليوم من مصر نبأ سار : تم شراء صفقة جديدة من الأقمشة الأثرية : قد تصل إلى فيينا فى الأسبوع القادم . وكتب لى نائبى بالقاهرة أن من بينها قطعة طولها نصف متر ، وعرضها ٢٠ سم مطرزة بنقوش رائعة ، ويمكن أن تعد أجمل القطع التى اشتريت إلى الآن على الإطلاق . وسوف يسرنى أن تكون القطعة من الصناعة الساسانية حتى تثرى مجموعتنا . وقد يواتينا الحظ فنعثر على روائع أخرى رومانية وإغريقية قديمة ، فالذي لا شك فيه أن كثيراً منها مدفون في رمال مصر ... »

وظل جراف فى فيينا ، ينتظر الأنباء عن مجرى الأحداث فى مصر وهو مطمئن إلى أن رجاله العرب هنا ، يواصلون البحث عن الكنز المدفون . وفى رسالة منه إلى كراباتشيك مرسلة من فيينا بتاريخ ١٨٨٢/٩/٢٠ يقول :

« الصديق العزيز ... يبدو أن الأمور فى مصر تسمح لى لحسن الحظ باستئناف نشاطى هناك عن قريب . بعد غد يصل السيد ترنتى Trenti من تريستا إلى الاسكندرية والقاهرة . وأنا واثق تماماً ، من أن رجالى العرب قد جمعوا فى الشهور الأخيرة كثيراً من التحف والبردى والمنسوجات الأثرية ، ولهذا فإننى أنتظر أن أتلقى قريباً طروداً كبيرة من القاهرة ... وإلى اللقاء . »

* * *

وتكشف الرسائل عن الثمن البخس الذى دفعته فيينا — الأرشيدوق راينر — فى هذه الصفقة التى لا يعرف العصر لها مثيلا ، كما تكشف عن الظروف التى تمت فيها والمساومات التى جرت بشأنها ، والمكاتبات التى تبودلت حولها ما بين القاهرة وفيينا وبرلين .

لقد كان جراف يطلب فى مجموعة بردى الفيوم الأولى — وتبلغ عشرة آلاف بردية بست لغات ، ومعها مجموعة من الأقمشة الأثرية — ثمانين ألف جولدن فقط . والجولدن عملة هولندية تساوى الآن حوالى ١٢ قرشاً مصرياً . ولا أعرف كم كانت تساوى فى زمن الصفقة ، على أى حال فهى تساوى الآن شلنين انجليزيين ، فيما أخبرنى مدير البنك الأهلى فى فيينا ، أى أن الصفقة بيعت بخمسة آلاف جنيه انجليزى تقريباً ، بالسعر الحاضر .

والرقم لا يعطى هنا دلالته كاملة ، إلا إذا رجعنا إلى سجلات وزارة المعارف المصرية حوالى ١٩٥٠ ، لعلها تكون قد احتفظت بالمكاتبات التى دارت بين الوزير وبين سيدة من هواة الآثار حول كتاب واحد من البردى المصرى كان فى حوزتها وعرضته على وزارة المعارف وطلبت ثمناً له آلافاً من الجنيهات . وقد سمعت بقصة

هذا الكتاب من الأستاذ الوزير . « على أيوب » رحمه الله ، ثم أخبرنى الأستاذ الدكتور طه حسين بعد ذلك أن الثمن الذى طلبته السيدة الأجنبية لكتاب البردى كان خمسين ألفاً من الجنيهات :

ونعلم كذلك من الرسائل المنشورة فى كتاب « الدكتور هونجر » أنه حتى عام ١٨٨٣ لم يكن « الأرشيدوق راينر » ظهر على المسرح ولا عرف له أى دور فى القصة التى بدأت أحداثها تدور ما بين الفيوم والصعيد والقاهرة وفيينا ، من عام ١٨٨١ ، وإنما كان الدور كله للمستشرق « يوسف كاراباتشيك » وتاجر السجاجيد الشرقية « تيودور جراف » الذى جازف فدفع ما دفع من ثمن البضاعة وطال عليه المدى فى انتظار استرداد هذا المال المعطل .

وكان الأمر — كما أشرت من قبل — يتم فى الخفاء ، طبقاً لتعليمات كاراباتشيك . لكن صفقة جراف كانت من الضخامة بحيث لا يسهل أن تظل لمدى طويل طى الكتمان فلا تذهب الظنون كل مذهب فى الهيئة التى تتوارى خلف التاجر النمساوى . وشاعت شائعة فى الأفق الدولى تقول إن « جراف » لا يهتم بجمع البردى لحسابه الخاص وإنما يعمل لحساب متحف فيينا . والرسالة التالية — وقد بعث بها جراف إلى كاراباتشيك فى ١٤/٨/١٨٨٣ — تسجل صدى ما شاع من أمر الصفقة فى أكبر العواصم الأوروبية حينذاك :

« الصديق العزيز . . . .

منذ فترة قصيرة تلقيت من أخى الدكتور برنارد جراف هذا المقال المنشور فى صفحة برلين اليومية بتاريخ ٣١ من مايو ، عن مجموعة البردى الكبيرة التى ظفرت بها . وحين قرأت فيه أننى جمعت هذا الكنز لحساب المتحف النمساوى وجدت من مصلحتى أن أكتب إلى الصحيفة ، مطالباً بتصحيح هذا الخطأ ومؤكداً أننى جمعت هذا البردى لنفسى لا للمتحف النمساوى . واليوم صباحاً تلقيت من برلين خطاباً من السيد جورج بورش Georg Bursch ، هذا نصه :

— برلين فى ١٨٨٣/٦/١٢

السيد المحترم ، تلقيت من إدارة صحيفة برلين اليومية التى أتشرف بالعمل فيها ، خطابك الكريم المؤرخ فى الثالث من هذا الشهر، وكم كادت دهشتى ودهشة زملائى كبيرة ،حين علمنا منه أنه لم يتم أى إجراء فى فيينا لشراء المجموعة الهامة التى جمعتها من البردى ، لحساب الدولة ! وأرجو أن تأذن لى فى أن أتقدم إليك بنصيحة ، وهى أن تتجه إلى الإدارة العامة المتاحف فى برلين ، وتعرض عليها شراء البردى ، وأنا واثق تماماً أن عرضك سوف يقبل على الفور ، وسأكون مديناً لك بالشكر إذا أبلغتنى قرارك فى هذا الأمر — .

وواضح من هذا العرض يا صديقى أنهم فى برلين مهتمون بمجموعتى من البردى بحماس شديد . على أننى لن أعرض هذا البرى للبيع خارج النمسا إلا إذا طال الوقت ولم يتم شىء هنا ، وعندئذ أرسله إلى برلين وأطلب ثمانين ألف جولدن ثمنا له . وهو ليس كبيراً بحال ما ، إذا قدرنا ضخامة المجموعة وما فيها من قطع قيمة . ولك تحيات قلبية من صديقك ، جراف » .

ولم تمض سوى أيام معدودات ، حتى أتبع جراف خطابه هذا بالخطاب التالى المؤرخ فى ٨٣/٦/٢٦ :

« صديقى العزيز . .

السيد فون أيتلبرجر Eitelberger — مستشار البلاط بالنمسا — أرسل اليوم إلى ، يرجو أن أتوجه لمقابلته فى المتحف هذا الصباح ، وقد أخبرنى أن سمو الأرشدوق راينر ، قد كتب إليه لكى يتولى عنه المفاوضة فى شراء مجموعتى من البردى والنسيج ، وعلمت أن السيد فون أيتلبرجر والأستاذ فون هارتل Von Hartel كتبا إليك فى هذا الموضوع .

وسئلت أن أقابل الأستاذ ليسللى بعد ظهر اليوم وأبلغه قرارى النهائى عن الموقف والثمن الذى أطلبه على وجه التحديد ، وقد أبديت للسيد المستشار

الامبراطورى استعدادى لقبول ثلاثين ألف جدلدن لمجموعة البردى ، وعشرين ألف جولدن لمجموعة الأقمشة ، أى خمسين ألفا للمجموعتين . . . »

* * *

على هذا النحو تمت الصفقة الكبرى ، ودفع الأرشيدوق راينر ثمنها ، ومن ذلك الحين بدأ حرصه على تنعيها ورعايتها ومتابعة دراسة العلماء لنصوصها ، فنفوا فى خطاب له أرسله من قصره الصيفى إلى كاراباتشيك فى ١٦/٦/١٨٨٤ :

« الأستاذ العزيز .

الأيام القليلة التى أمضيتها فى فيينا لم تتح لى فرصة زيارتك فى مكان عملك . وأكتب الآن لأعبر لك عن جميل شكرى على النشرات الأخيرة والصور التى تفضلت فأرسلتها إلى . . . ويسعدنى حقاً ، العثور على برديات جديدة باللغة الإغريقية أو الرومانية أو العربية ، مما يقدم دليلا جديدا على اهتمامنا بهذا العمل الجليل . وأتمنى أن يتم بنجاح فك أوراق كتاب البردى الذى حدثتنى عنه كى تتاح لى قراءته كله ، وما أشك فى أنه سوف يعطينا مادة تاريخية هامة .

وإذ أكرر لك شكرى ، أتمنى لعملك الجليل أحسن النتائج وسأبقى المخلص ، راينر » .

* * *

وأتابع قراءة الرسائل فأجد بينها رسالة من جراف فى القاهرة بتاريخ ١٩/١/١٨٨٥ تنبىء بأن الفيضان الكبير للبردى فى مصر قد انحسر ، وترك لدى التجار بقايا ، يود جراف أن يعود بها إلى وطنه. لكنهم يغالون فى ثمنها فيطلبون ثلاثين فرنكا لثلاث أو أربع أران مليئة بلفائف البردى ! ويستطرد جراف قائلا : « وقد رفضت لوحات أثرية من الخزف عليها كتابات إغريقية وقبطية وديموطيقية وهيروغليفية ، عرضت فى السوق بسعر سبعين فرنكا ، وهى الآن فى طريقها إلى متحف اللوفر بباريس . والواقع أن الضيق المالى الذى تعانيه حكومتنا قد أصبح معروفا هنا . ونفوذنا يتقهقر بسرعة إلى الوراء . . . وقد سمعت هنا قصصا مثيرة ، ومع ذلك يقولون : الشرق لنا ! »

كما أجد بعدها رسالة كتبها « جراف » وهو فى فيينا إلى صديقه المستشرق بتاريخ ١٥/١٢/ ٨٥ . وفيها يقول :

« الصديق العزيز

« علمت مما كتبه نائبى بالقاهرة فى رسالة إلىّ ، أن الاهتمام بالبردى ثار من جديد ، وقد انتشرت هناك شائعة تقول إنه تكونت فى برلين جمعية برياسة هاينريش شليمان Heinrich Schliemann رصدت نصف مليون مارك لاجتلاب البردى من مصر » .

* * *

وتتتابع الرسائل ، لنعلم منها أن الحكومة المصرية ظلت فى غفلة عن الأمر إلى أن ذاعت أخبار سوق البردى وانتشرت قصص مثيرة عن المساومات التى كانت تجرى فيها والهدايا التى كانت تُحمل منها إلى الأباطرة والملوك ، فبدا للحكومة أن تفرض رقابة على السوق لكى تحتكر البضاعة وتستأثر بالثمن المجلوب .

ويبدو أن إعلان عزم الحكومة المصرية على التدخل فى الموقف ، قد أزعج الذين حسبوا أن الرقابة الحكومية جد لا هزل فيه ، فتوقف نشاطهم فترة خوفا من العقاب الصارم ، كما يظهر ذلك بوضوح فى رسالة بعث بها جراف إلى كاراباتشيك فى منتصف ديسمبر عام ١٨٨٥ وقال فيها :

« ... وكتب لى نائبى فى القاهرة ، أنه قد بلغه أن الأستاذ أدولف أرمان — من علماء المصريات المشهورين — يبحث الآن فى كل مكان عن البردى ويسأل عنه كل من يلتقى ، لكن دون أن ينجح إلى الآن فى الوصول إلى شىء منه . وليس هذا بمستغرب ، فالبردى أولا : لايعوم بالقاهرة فى الهواء ! وثانيا : معروف أن جواسيس الحكومة المصرية منتشرون فى كل مكان يحاولون أن يعرفوا أين

عُثر أو يعثر على البردى ، ومن الذى عَثر عليه . ولهذا فإن مصادر البردى لابد أن تتوقف وتصمت لفترة طويلة . وأعتقد أنه بمجرد نشرك ماأعددتَ من مجموعتنا من البردى — وفيها وثائق بالغة الأهمية عن غزو المسلمين لمصر — سيكون من الخطر المجازفة بالسؤال عن البردى فى مصر ، فما بالك بمحاولة تصديره إلى الخارج ؟

« وعلى أى الأحوال ، لنا أن نعد أنفسنا سعداء لأننا استطعنا لحسن الحظ أن ننقل إلى فيينا فى الوقت المناسب هذه الكمية الضخمة من وثائق البردى الموجودة لدى سمو الأرشيدوق راينر .

« وتتجمع الآن فى مصر سحب العاصفة آتية هذه المرة من السودان . متى نتمتع بالهدوء فى هذا البلد كى تسير الأمور التجارية على الأقل سيراً حسنا ؟ » .

* * *

لكن فترة التوقف فى سوق البردى ، لم تطل إلا ريثما كشفت الأيام عن عقم هذه الرقابة الحكومية وغفلة الحراس الإداريين الذين نام منهم من نام التماساً للراحة وإيثارا للعافية ، وآخرون منهم أغمضوا عيونهم وقد أعشاها بريق المال ، فصْدق فيهم المثل : حاميها حراميها .

ودب النشاط من جديد فى السوق بعد أن أدرك المتعاملون فيها عبث الرقابة الحكومية ، واطمأنوا إلى أنهم يستطيعون استئناف نشاطهم فى البحث عن الكنز فى غفلة من الخفراء والحراس أو بالتواطؤ معهم ! وعاد البردى يتدفق من مصر إلى أوروبا ، وحقق التاجر المحنك « تيودور جراف » جولات جديدة ظافرة فى الميدان ، فتقرأ فى رسالة منه إلى صاحبه بتاريخ ١١/٢/١٨٨٧ خبراً عن مجموعة جديدة من البردى حملها بنفسه من مصر إلى فيينا ، وطلب من صديقه المستشرق عرضها على الأرشيدوق راينر ، ثم إفادته عن رأى سموه فيهما ، وختم خطابه قائلا :

« .... ولن يسعدنى فى هذه الظروف التجارية السيئة أن تتم الصفقة فقط ، بل إنى أرحب كل الترحيب بإتمامها فى أقرب فرصة . ذلك لأنى أود أن أسافر خلال هذا الشهر إلى القاهرة ، وأرى من الضرورى تأجيل سفرى إلى أن ينجلى الموقف بالنسبة إلى هـذه المجموعة الجديدة من البردى والرق . والواقع أنه لو خامرنى أدنى ريب فى تردد سمو الأرشيدوق راينر فى شرائها ، لكنت اضطررت إلى عرضها للبيع فى مكان آخر . لأنى دفعت فيها من رأسمالى ، مالا أستطيع الاستغناء عنه طويلا فى مثل هذه الظروف ..... » .

وقد تم بالفعل شراء البضاعة الجديدة لحساب راينر الذى ضمها إلى مجموعته، وكتب إلى كارباتشيك بتاريخ ١٣/٤/١٨٨٧ ماترجمته :

« الأستاذ العزيز .

« .... ويسعدنى كذلك أن أسمع عما فى هذه المجموعة الجديدة وأن أعلم أن العمل فيها يتقدم بنجاح بفضل جهدك وجهود السادة زملائك المشتغلين بها . وأنا مقدر بطبيعة الحال أن العبء تضاعف بالزيادة المضطردة فى مجموعتنا التى ترجع الوثائق الأخيرة منها إلى عام ٨١٨ م ، ولا شك أن ترقيم هذه المجموعة وتصنيفها ، يحتاج وحده إلى جهد شاق ... وأحييك إلى اللقاء .

راينر » .

ونستطيع أن نتصور مدى عقم الرقابة وغفلة الحراس ، إذا علمنا أن « جراف » لم يتردد فى القيام برحلة معلنة إلى مناطق الكشف عن البردى فى الصعيد ، دون خوف أو حذر ، بعد عامين اثنين من فرض الرقابة التى حسبها فى أول الأمر ، تجعل مجرد السؤال فى مصر عن البردى مجازفة خطرة ! وهو يبدو فى عام ١٨٨٧ أقوى تفاؤلا وأرحب أملا فى العثور على بقايا ماسماه « الكنز الراقد تحت أرض مصر » ومن الفيوم ، بعث إلى بهذه الرسالة المؤرخة فى ١٩/١١/١٨٨٧ :

« الصديق العزيز .

« اليوم أبعث إليك تحيــة قلبية من الفيوم مكان العثور على بردينا Unsere Papyri فلقد قمت أمس بزيارة مناطق الكشف عنه فى كوم فارس ، تل من أطلال أرسنوحى العاصمة القديمة للفيوم وتبعد عنها بحوالى ربع ساعة . ولست أشك فى أنه إذا أتيح لنا البحث الجاد فى الأكوام والأطلال الخربة ، فسوف نعثر على بقايا ممتازة من آثار العصور القديمة . فهنا يرقد الكنز تحت الأرض ، ولا يحتاج إلا إلى المال فقط لنستخرجه ! والبردى فى السوق قليل ، لكن الحظ حالفنى فاستطعت الظفر بكمية منه كادت تفلت من أيدينا ، إذ من المنتظر أن يأتى الأستاذ أولريش فيلكن Ulrich Wilken قريباً لزيارة هذه المنطقة ، فلولا سبقى إلى هذه الصفقة الجديدة من البرديات ، لكانت فيما أعتقد ستأخذ طريقها إلى برلين » .

ثم تلتها بعد يومين رسالة منه إلى كاراباتشيك جاء فيها :

« . . . . من الفيوم أرسلت إليك أمس الأول تحية ألحقها اليوم ببضعة أسطر : ذكر لى رجالى العرب ، أنه قد عثر فى خرائب منزل قديم بأخميم على نحو مائتى لفافة مقفولة من البردى ، وتدل الكتابة المقروءة بوضوح على الأجزاء الظاهرة منها ، على أنها ترجع إلى عصور قديمة . وأبادر فأرسل إليك اليوم ، فى طرد بالبريد المسجل ، أربع لفائف منها لكى تفحصها وتحكم عليها . وهى تبدو صعبة الفتح ولا يدرى أحد شيئاً عن النصوص المدونة فيها ، لكن من السهل عليك فتحها وقراءة نصوصها . فإذا بدت لك ذات قيمة فأنى أستطيع أن أوافيك بالكثير منها ، من نفس الحجم والصنف تقريباً . والعرب هنا تحت أمرى إلى أن أتلقى برقية منك . . . » .

واستمر نشاط جراف وأمثاله رغم الرقابة المفروضة ، والحكومة عاجزة عن الاهتداء إلى سر الكنز . وكان يحدث أحياناً أن يسمع موظفوها المكلفون بالرقابة عن نبأ العثور على بردى فى جهة ما ، ثم ما يكادون يصلون إلى هذا المكان

حتى يكون البردى قد أفلت منهم كما حدث فى مجموعة بردى «كوم اشقاو» التى عثر عليها الفلاحون عام ١٩٠١ ثم لما وصل جنود شرطة طما إلى القرية اختفى البردى كله فلم تعثر الشرطة على شىء منه . وبعد مضى أسابيع ظهر لدى تاجر بالقاهرة لفائف إغريقية جيدة من البردى المختفى ، كما اشترى الأستاذ موريتس لفائف عربية منها . وبعد زمن ، أعلن عن وصول كميات من بردى كوم اشقاو ، إلى برلين وهايدلبرج ولندن وشتراسبورج وموسكو ، فضلا عن اللفائف الرائعة التى اشتراها الأستاذ « ن . ايبشر ، وتاشند » من تجار القاهرة .

* * *

وأظننى بهذا القدر الذى رويته من قصة البردى قد بينت مدى اهتمام الدول الغربية بهذه الذخائر من تراثنا ، لما تضىء من التاريخ الحضارى للإنسانية بوجه عام،ومن حيث هى تراث مشترك لا يصح أن تتخلى دولة متحضرة عن مسئوليتها فى الكشف به عن معالم التطور البشرى ما بين ماض وحاضر ، فضلا عما يكشف لهم هذا التراث من سر وجودنا وطبيعة مزاجنا وملامح عقليتنا .

ومن قبلهم سعت رسل الغرب إلى أقطار الشرق باحثين عن كنوز مخطوطاته ، وجاء نابليون معه بجنود من العلماء لدراسة أحوال الشعب المصرى والكشف عن أسرار تاريخه القديم ، فكيف بنا والتراث لنا والتاريخ تاريخنا ؟ ألسنا فى حاجة إلى أن نكشف عن حقيقة ذاتنا ونهتدى إلى معالم وجودنا منذ شهدنا التاريخ نقود البشرية على درب الحضارة والتمدن ؟ .

إن حاضرنا لا يمكن أن يستغنى عن تجارب ماضينا ، وعن الفحص الدقيق لأرضه التى يقوم عليها البناء الجديد .

* * *

(٤)

فحص المجموعة

استطعت بفضل المعونة الصادقة التى قدمتها الى الدكتورة لوبنشتاين Loebenstein مديرة المجموعة ، والأستاذ فاكلمان Fackelmann خبير البردى فى ألبرتينا ، أن آخذ فكرة كافية عن ذخائر مجموعة راينر .

وتقدر المجموعة بنحو مائة ألف بردية تم فك أكثرها ، ولا يزال هناك نحو عشرة آلاف لفافة لم تفك بعد . ويتابع الأستاذ فاكلمان فكها بتطريتها وإلصاقها على الورق المقوى . وقد قام كاراباتشيك ومعاونوه بفحص مقدار من هذه الذخائر نشر منها فى دليل كاراباتشيك ١٤٠٠ نص مع شروح وتراجم وتعليقات، وما نشره جروهمان ، موجود فى كتبه عن البردى . وبقى نحو خمسين ألف بردية تم فتحها وصيانتها ، لكن دون أن تفحص أو تقرأ .

ويقف عمل الخبير فاكلمان Fachelmann الآن فيما يختص بالبردى العربى عند تطرية اللفائف وصيانتها دون متابعة الفحص والتنسيق ، لجهله باللغة العربية، وقد قال لى فيما قال : إن فحص نصوص البردى العربى فى مجموعة ألبرتينا وقف عند كاراباتشيك وجروهمان من بعده ، بحيث يمكن القول أن دراسة البردى العربى قد ماتت ـ أو بنص عبارته : Ist schon tot ـ على حين استمرت دراسة البردى اليونانى واللاتينى حية ، لوجود علماء متخصصين يواصلون فحصها واستقراء نصوصها .

وما تم فكه وفهرسته ، وُضع منسقاً فى خزائن ذات أرفف من الصلب ، أعدت خصيصاً لهذه الغاية . وهى مصونة فى غرف موصدة منيعة لايباح الدخول فيها إلا بإذن خاص ، وفى صحبة مديرة المجموعة . وجدران الغرفة عازلة للصوت

مكيفة الهواء والرطوبة ، مجهزة بما يقيها من الحشرات والنار والتقلبات الجوية. وعلى كل رف بطاقة تحمل الرمز اللغوى لمجموعته ، وأرقامها فى الفهرس العام :

رمز الرق العربى : A.P.G ، ورمز البردى العربى A.B. ، والورق العربى A.C .

ولم يتح لى بطبيعة الحال أن أشتغل بغير النصوص العربية وإن كنت بدافع الاطلاع قد ألقيت نظرة سريعة على نماذج من البردى فى اللغات الهيروغليفية والقبطية واللاتينية حيث لفتنى دقة خطها وروعة نسقها .

والجزء الذى اشتغلت عليه من البردى العربى ، يبلغ تسعمائة وخمسين بردية ، أرقامها فى فهرست المجموعة من ٥٥٠ إلى ١٤٠٠ وكلها عن مصر. وأقدمها مؤرخة عام ٢٢ هجرية من عهد عمر بن الخطاب . وأحدثها مؤرخة عام ٧٨٠ هـ . من عهد السلطان المنصور محمد ، فى عصر المماليك . وهذا بيان لها :

عصر الخلفاء الراشدين :

الخليفة عمر بن الخطاب من رقم	٥٥٠	:	٥٦٢
الخليفة عثمان بن عفان	٥٦٣	:	٥٦٧

مصر فى العصر الأموى :

من عهد معاوية ويزيد ، من رقم	٥٦٨	:	٥٨١
« عبد الملك بن مروان ، من رقم	٥٨٢	:	٥٩١
من عهد الوليد بن عبد الملك : من	٥٩٢	:	٥٩٥
« عمر بن عبد العزيز : رقم	٥٩٦		
« هشام بن عبد الملك : من	٥٩٧	:	٦٠٧
« مروان بن محمد : رقم	٦٠٨		

مصر فى العصر العباسى (١٣٢ : ٢٥٥ هـ)

من عهد أبى العباس السفاح	٦٠٩	
» أبى جعفر المنصور	(١/٩٠ مراسيم)	
» محمد المهدى	٦١٠	٦١٦
» هارون الرشيد	٦١٧	٦٦٥
» محمد الأمين	٦٦٦	٦٨٢
» المأمون	٦٨٣	٧٢٣
» المعتصم بالله	٧٢٤	٧٤٩
» الواثق بالله	٧٥٠	٧٥٥
» المتوكل على الله	٧٥٦	٧٧٥
» المنتصر بالله	٧٧٦	
» المستعين بالله	٧٧٧	٧٨٥
المعتز بالله	٧٨٦	٧٩٣

مصر فى الدولة الطولونية : (٢٥٤: ٢٩٢ هـ)

من عهد أحمد بن طولون	٧٩٤	٨٣٤
» خمارويه	٨٣٥	٨٥٣
» جيش بن خمارويه	٨٥٤	٨٥٧
» هارون بن خمارويه	٨٥٨	٨٨٣

الدولة العباسية الثانية : (٢٩٥ : ٣٣٣ هـ)

من عهد الخليفة المكتفى بالله	٨٨٤	٨٨٥
» الخليفة المقتدر بالله	٨٨٦	٩٠٧

«	الخليفة الراضى بالله	: ٩١٤	:	٩١٥
«	المتقى لله	: ٩١٦		

مصر فى العصر الإخشيدى : (٣٣٣ : ٣٥٧ هـ)

من عهد	محمد بن طغج الإخشيد	: ٩٤٩	:	٩٦٨
«	أنوجور بن محمد	: ٩٧١	:	١٠١٦
«	على بن طغج	: ١٠١٧	:	١٠٥٨
«	كافور الإخشيدى	: ١٠٥٩	:	١٠٦١

مصر فى العصر الفاطمى : (٣٥٨ : ٥٦٧)

من عهد	المعز لدين الله	: ١٠٦٤	:	١٠٧٢
«	العزيز بالله	: ١٠٧٤	:	١٠٨٩
«	الحاكم بأمر الله	: ١٠٩٠	:	١١٤٦
«	الظاهر لإعزاز دين الله	: ١١٤٧	:	١١٨٢
«	المستنصر بالله	: ١١٨٣	:	١٢٨٥
«	الآمر بأحكام الله	: ١٢٧١	:	١٢٨٢
«	الظافر بأمر الله	: ١٢٧٣	:	١٢٨٦
«	العاضد بالله	: ١٢٨٧		

مصر فى العصر الأيوبى : (٥٦٧ : ٦٥٢ هـ)

من عهد	صلاح الدين	: ١٢٩٠		
«	العزيز عثمان	: ١٢٩١		

من عهد العادل سيف الدين	:	١٢٩٢	: ١٢٩٧
« الكامل محمد	:	١٢٩٨	: ١٣٠٢
« الصالح نجم الدين أيوب	:	١٣٠٣	: ١٣١٠
« الأشرف موسى	:	١٣١١	: ١٣١٥

دولة المماليك : (٦٥٧ : ٧٨٣)

من عهد السلطان سيف الدين قطز	:	١٣١٦	: ١٣١٧
« ركن االدين بيبرس	:	١٣١٨	: ١٣٢٥
« قلاوون	:	١٣٢٦	: ١٣٣٩
« ناصر الدين محمد	:		
(فى ولايته الأولى)	:	١٣٤٠	: ١٣٤١
(فى ولايته الثانية)	:	١٣٤٢	: ١٣٤٨
(فى ولايته الثالثة)	:	١٣٤٩	: ١٣٦٤
« المنصور أبى بكر	:	١٣٦٥	
« الملك الصالح اسماعيل	:	١٣٦٦	: ١٣٧١
« الكامل شعبان	:	١٣٧٢	
« الناصر حسن	:	١٣٧٣	: ١٣٨٣
« المنصور محمد	:	١٣٨٤	: ١٣٩٠
« الأشرف شعبان	:	١٣٩١	: ١٣٩٩
« المنصور على	:	١٤٠٠	

وقد شغلتُ بمراجعة نصوص هذه الوثائق على ما نشره كاراباتشيك

عنها ، كما شغلت بقراءة ماكتبه من تعليقات على أكثرها . وقدرت المشقة البالغة التى تحملها وهو يقرأ هذه الوثائق بخطها القديم ، فى أوراق قديمة لم تسلم من عبث البلى ، مما أجهدنى والعربية لغتى ونصوص التراث تخصصى . على أنى لاحظت أنه فى التعليق عليها قد جاوز فى أغلب الأحيان ، ماتعطيه نصوص البرديات من دلالات ، مضيفا إليهـــا من مطالعاته وآرائه مالا يحتمل النص .

* * *

القيمة التاريخية لهذه النصوص

لم يعد مجهولا أن أجيالا متعاقبة من شباب مصر قرأت تاريخها الوطنى على غير حقيقته . وتراث البردى فى جملته ، يعطى وثائق مادية لهذا التاريخ الذى نحتاج إلى استجلاء حقيقته فى مرحلة اكتشاف الذات .

وفيه مفاتيح لكثير مما غاب من ذلك التاريخ ، وإضاءة لدور الشعب فى صنع حياته، وهو الدور الذى أغفله أكثر مؤرخينا ، ممن داروا فى فلك السياسة وشدت عيونهم إليها يرصدون حركات السلاطين والحكام ، ومن حولهم من حاشية وجند ووزراء وشعراء وندماء ، فجاء تاريخنا السياسى حلقات مسلسلة من أسماء أسر وحكام تتابعوا على العروش، وسرداً مفصلا لأعمالهم ومعاركهم الحربية والمذهبية، كما جاء تاريخنا الأدبى فى جملته ديوانا جامعاً لما نظم المرتزقة من شعر المدح وما قال المأجورون فى تمجيد أصحاب السلطان، وتبرير أفاعيلهم أمام الجماهير المحكومة حكماً فردياً مستبداً . ولقد استطاع المستشرق «الدكتور يوسف كارا باتشيك» أن يدرس بضعة آلاف من البرديات العربية فى «مجموعة راينر» من بداية الفتح العربى لمصر ، إلى عصر المماليك . وقدم فى أول كتاب نشره عن بردينا وثائق تعطى مادة تاريخية لحياة هذا الشعب القومية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية :

رسائل أفراد من عامة الشعب عن حاجاتهم وشكاواهم ، وعن عواطفهم وأذواقهم . وتذاكر طبية من عصر مبكر تحدد أصنافاً من الدواء وطرق العلاج منها مثلا البردية رقم ٧٤٣ من عهد المعتصم العباسى ، ورقم ٨١١ من القرن الثالث الهجرى .

وطلبات سلع وبضائع من الأهالى والتجار ، حملها البريد من أشمون إلى الفيوم ومن دمياط إلى الصعيد، فى طلب شراء أصناف من الأطعمة والملابس والحلى والعطور يتطلبها السوق أو يحتاج إليها بيت أو تجهز بها عروس، أذكر منها على سبيل المثال البردية رقم ٥٦٣ فى شعبان سنة ٢٦ هـ من عهد الخليفة عثمان بن عفان، والبردية رقم ٥٧٤ من عهد معاوية ، وفيها طلب لثلاثة معاطف ، وعدد من مناديل الرأس والألحفة

الصوفية مع تحديد ألوانها ، ومقدار من عصير البلح ، والبردية رقم ٦٠٤ من عهد هشام بن عبد الملك ، وفيها بيان لميزانية بيت أحد الأغنياء ، والمقرر لنفقات اصطبل خيوله . والبردية رقم ٧١٠ بتاريخ ٢٠٨ هـ من عهد المأمون ، وفيها مبادلة أصناف من السلع بين التاجرين « فيب وقسطنطين » من قبط مصر .

والبردية رقم ٧٧١ من عهد المتوكل ، ببضائع تجارية من الملبوسات والأقمشة مع بيان أسعارها ، ورقم ٨٤١ من العصر الطولونى . وفيها بيان لمستحضرات حمام: كحل قيمته ١/٦ دينـار ، وعطر بربع دينار ، وزعفران لصبغ الشعر بدرهم و ١/٨ درهم ، وحناء للشعر والأيدى بثمن درهم وزيت طيب بدرهم .

والبردية رقم ١٠٧٢ من العصر الفاطمى وفيها توكيل بشراء كتب وورق وأطعمة وأقداح شراب وغطاء مائدة ، مع تحديد أسعار كل منها . والبردية رقم ١٢٩٠ مؤرخة فى عام ٤٠٧ هـ من العصر الفاطمى أيضاً ، بطلب شراء منديل رأس أحمر وقميص داخلى من قماش ناعم جداً أحمر اللون ، ومعطف من صنف ممتاز .

وحجج لوفاء النيل فى سنوات بعينها كالبردية رقم ٦١٨ من عصر الرشيد . وأمر ديوانى بإحصاء لعدد السكان بمصر وأعمارهم وأماكن إقامتهم ، كالبردية رقم ٥٩٩ عن الإحصاء الذى تم فى عهد هشام بن عبد الملك واستغرق ستة أشهر.

وعقود زواج وإيجار ، وصكوك معاملات رسمية وأهلية ، أذكر منها مثلا البردية رقم ٥٦٨ وفيها وثيقة صداق من عهد معاوية، ورقم ٦٠٩ بصكوك ضرائب من أول العصر العباسى ، ورقم ٦١٣ من عهد المهدى، وفيها نص وصية رجل قبل موته مع بيان بتوزيع تركته، والبردية رقم ٦١٧ وتعد أقدم وثيقة عتق عُرفت حتى اليوم ، وهى لعِتق مملوك من الأتراك اسمه «نتجيش» كانت تملكه سيدة تدعى بنت يوسف . والبردية رقم ٦٤٦ من عهد الرشيد وفيها صكوك إيصالات من أرملة اسمها « سمية » للأوصياء على أولادها الثلاثة القصر ، باستلام نفقاتهم السنوية من مال وطعام .

وشكاوى من أزمات القحط والغلاء ، منها ما يرجع إلى العصر الأموى (بردية

رقم ٥٩٦) ومنشورات ثورية ضد جور الحياة وعسف الولاة، أذكر منها البردية رقم ٧٨٨ من آخر العصر العباسى ، وفيها ثورة ضد الوالى التركى ، ورفض سيادته على أبناء مصر وعدّ ولايته غير شرعية لأنه تركى كافر .

وكل هذا مما يحتاج إليه تاريخنا تصحيحاً لخطأ أو إكمالا لنقص أو كشفاً عن تزييف وتزوير . إلى جانب ما تقدمه هذه الآثار المادية إلى التاريخ الحضارى العام وإلى المشتغلين منا بتوثيق مخطوطات تراثنا ، من إضاءة لتطور المواد المستعملة فى الكتابة وأنواع المداد ونسق الخط ، وأشكال الزخارف والرسوم ، وطرق اللف والطى والتجليد .

ويقول «كاراباتشيك» فى مقدمته لدليل البردى العربى، بعد إشارة إلى ما كانت مصر تعانى تحت حكم الرومان من عسف واضطهاد :

« كلما اقترب بردينا Unsere Papyri الإغريقى من العصر البيزنطى ، تغير المعروف لنا عن تاريخ مصر، واتضح لنا إلى أى مدى كان هـذا البلد العريق الذى جمع من أقدم العصور بين أخصب الأراضى وأزهى العمران والتفوق الحضارى والتجارى ، به شعب يتحمل المصاعب بصبر . كما ترينا صكوك البردى كيف شل الفقر الطبقة الشعبية ، وكيف خلق الضغط الضريبى أزمات عميقة .

« وهى تفسر لنا كيف وقع أكثر بلد على الأرض بركة ، كالثمرة الناضجة بين أيدى الفاتحين العرب ، ويعد نجاح الفتح فى تلك الفترة القصيرة من أغرب الأحداث فى التاريخ العام . وقد جاءنا البردى العربى بمعلومات قيمة فريدة عن مصر ، ونقل إلينا صورة للحياة فيها بطريقة دقيقة ، نشعر معها كأننا نعيش فيها .

« ومن نصوص البردى لذلك العهد ، يظهر لنا أن فكرة غزو العرب لمصر ، كانت تحمل طابعاً آخر غير ما نعلم ، وأن الكتابة الحديثة لتاريخ تلك الفترة ، وقعت فى أخطاء جسيمة عديدة .

« كم يظهر لنا فاتحو مصر — بفحص هذه الوثائق — فى صورة جد مغايرة

للصورة المعروفة ! فهم لم يكونوا مجرد غزاة جياع ، ولا كانوا جماعة مغامرين من البدو راكبي الجمال ، وإنما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ويقاتلون ببسالة فى سبيل عقيدة اعتنقوها بإخلاص . وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطى ورحبت بأبناء الصحراء الذين نادوا فيها بحرية العقيدة كما تشهد بذلك وثائق من البردى ، إحداها مؤرخة فى ٨ يناير ٦٤٢م. وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح بأن العرب الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة قديمة ، وفى كتابة الأسقف يوحنا — المعاصر لتاريخ الفتح — اعتراف بأن عمرو بن العاص لم ينزع شيئاً من أملاك الكنيسه » .

* * *

وقد أشرت إلى أن أقدم الوثائق العربية مما فحص من مجموعة راينر ، يرجع إلى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقعت بتصوير البردية رقم (٥٥٨) ونقرأ عليها بوضوح أنها كتبت فى شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين هجرية ، وأحدثها من عصر المماليك حيث تحمل البردية رقم ١٤٠٠ تاريخ سنة ٧٨٠ هـ من عهد السلطان الملك المنصور على .

وليس من المتصور أن نكون قد عرفنا تاريخنا وأحطنا بأسراره علما دون مطالعة لما كشف الأجانب الغرباء من وثائق مادية لها مثل تلك الأهمية ، إلى جانب ما لم يفحصه أحد من عشرات الألوف غيرها ، فضلا عن لفائف البردى التى لا تزال مطوية لم تفك وعددها فى (مجموعة راينر) وحدها نحو عشرة آلاف.

وفيما يختص بجدوى فحص هذه الوثائق على الدراسات الأدبية واللغوية — موضوع تخصصى — كان من الضرورى أن أطلع على نماذج من الكتابة العربية فى العصر الإسلامى المبكر ، لأهتدى بها فى توثيق مخطوطات تراثنا ، من حيث نسق الخط ورسمه ومداده ، فضلا عما تضم مجموعة راينر من نصوص ذات أهمية في معرفة نماذج من لغـــة الكتابة وأساليبها . وقد عنيت بوجه خاص بما في

المجموعة من برديات فيها نصوص قرآنية ، مثل البردية رقم ٧٢٨ وفيها الآيات من ٦٧ إلى ٩٨ من سورة مريم. والبردية رقم ٧٢٩ وفيها آيات من سورة يونس ويبدو أنها كانت تُستعمل تميمة .

وعنيت كذلك بالرسائل ذات الطابع الأدبى، مثل البردية رقم ٦١٥ من القرن الثانى الهجرى — عهد الخليفة المهدى العباسى — وفيها مظلمة يتيم اغتصب أحد الأعاجم دينا ضئيلا كان عليه لوالد الشاكى ، فهو يتضرع إلى الوالى أن يستدعى المغتصب ويرغمه على الإقرار بالحق ، ثم يدعو الله أن يطيل عمر الوالى ويباركه . والبردية رقم ٦٣٩ من عهد الرشيد ، وهى من النثر الفنى العاطفى ، كتبها مريض أنهكه الحب نفسياً وجسدياً .

والبردية رقم ٨٤٢ وفيها نص كتاب عتق « بإرادة الله عتقناك ، مما لا يحل لى أو لأى إنسان آخر أن يتعرض لحريتك بأى طريق» مع التاريخ وتوقيع الشهود. والوثيقة رقم ١٠٦٤ من العصر الفاطمى — عهد المعز لدين الله — وفيها منظومة لأحد الإمامية فى هجاء معارضيهم السياسيين والدينيين ، واتهام لهم بالانحراف عن الإسلام .

والواقع أننى كما أشرت فى مقدمة هذا التقرير ، قصدت من رحلتى إلى التماس مثل هذه النصوص والوثائق التى قدرت جدواها على ما أشتغل به من توثيق المخطوطات وتحقيق النصوص ، لكن قصة البردى المثيرة ، ما لبثت أن دفعتنى إلى متابعتها ومراجعة كل ما يتسع له الوقت من سجلاتها ورسائلها والكتب المؤلفة فيها. فاتضح لى آخر الأمر أن موضوع هذه الذخائر لا يقتصر على أهميتها للمشتغلين بتحقيق التراث العربى والدراسات اللغوية والأدبية فقط ، وإنما يتسع ويمتد ، فيتصل اتصالا مباشراً كذلك بتاريخنا القومى. وبالتاريخ الحضارى للإنسانية بوجه عام .

توصيات ومقترحات

ونتيجة لما قمت به من عمل فى هذه المهمة العملية ، أتقدم بالمقترحات والتوصيات الآتية :

١ — تتبنى جامعة عين شمس بالاشتراك مع دار الكتب قضية هذه الوثائق المجهولة لنا من تاريخنا وتدخلها فى برنامج نشاطها العلمى ، بحيث تخطط لها فى مشروعاتها وترصد لها جزءاً من رصيد ميزانيتها للبحوث والمهمات العلمية .

وأرى أن هذه القضية تتصل فى التخطيط المستقبل بموضوع إنشاء معهد عال للتراث وسوف أتقدم إلى الجامعة بمذكرة تفصيلية خاصة ، عن مشروع هذا المعهد الذى يحتاج إليه وجودنا ، قومياً وعلمياً .

٢ — توصى الجامعة بأن يدخل فى اتفاقية التعاون الثقافى بين مصر والنمسا تصوير الوثائق التى تم فكها وفهرستها من مجموعة بردى فيينا ، وإيفاد لجنة من السيد مدير دار الكتب وأساتذة الجامعة المتخصصين فى التاريخ المصرى والإسلامى والتراث العربى ومعهم أمين مكتبة الجامعة ، لاستكمال فحص هذه الوثائق واختيار ما يجب تصويره منها . مع التوصية كذلك بترجمة مافى ألبرتينا من دراسات بردية ، عن الألمانية .

٣ — تسعى الجامعة لدى إدارة العلاقات الثقافية الخارجية ، لتكليف ممثليها الثقافيين فى روسيا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا وانجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، بكتابة تقرير عام عن كل مجموعات البردى المشار إليها فى هذا التقرير .

وأود هنا أن أسجل شكرى الخالص وتقديرى الصادق لما لقيت من رعاية الأستاذ السيد « حسن التهامى » سفيرنا فى النمسا ، ومساعدة المكتب الثقافى العربى بالنمسا .

كما أذكر بجميل التقدير الدكتورة لوبنشتاين Dr. Loebenstein مديرة مجموعة بردى فيينا ، والأستاذ أنطون فاكلمان Fackelmann, A. خبير البردى فى ألبرتينا ، لما قدما لى من معاونة صادقة وما هيأا لى من فرصة العمل المثمر .

ولعل الجامعة تتفضل فترسل إلى كل منهم كلمة تقدير لما كان لهم من فضل فى مساعدتى على القيام بالمهمة العلمية التى أوفدتنى الجامعة لها .

* * *



مؤتمر المستشرقين الدولى

فى نيودلهى ، يناير سنة ١٩٦٤

الحـــديث عن الدورة السادسة والعشرين للمؤتمر ، وقد عُقدت فى نيودلهى فى يناير ١٩٦٤

وما أقدمه هنا ليس تقريراً عن المؤتمر ، وإنما هو عرض سريع لافت إلى ضآلة اهتمامنا بمؤتمر يشتغل بقضايا من صميم وجودنا ، بالقياس إلى مايوجه الغرب إليه من عناية جادة واهتمام بالغ .



شرق وغرب

فى صيف عام ١٩٥٧ ، كانت الدورة الرابعة والعشرون لمؤتمر المستشرقين فى ميونخ .

والتقينا هناك فى بهو الجامعة ، جمعاً عجيبا مختلط الألوان والأزياء ، متفاوت الملامح والسمات ، متعدد اللغات واللهجات .

يومها ، تنبهت لأول مرة ، إلى أن المؤتمر عقد كل دوراته السابقات فى بلاد أوروبية ، أصالة أو بالتبعية :

فى القرن الماضى، عقدت دوراته الاثنتا عشرة الأولى فى :

باريس سنة ١٨٧٣ ، ولندن سنة ١٨٧٤ ، وسانت بيترسبورج سنة ١٨٧٦ ، وفلورنس سنة ١٨٧٨ ، وبرلين سنة ١٨٨١ ، وليدن سنة ١٨٨٣ ، وڤيينا سنة ١٨٨٦ ، وستوكهلم سنة ١٨٨٩ ، وجنيف سنة ١٨٩٤ ، وروما سنة ١٨٩٩

ثم فى القرن الحالى ، عُقد فى :

هامبورج سنة ١٩٠٢ ، والجزائر - تحت الاحتلال الفرنسى - سنة ١٩٠٥ ، وكوبنهاجن سنة ١٩٠٨ ، وأثينا سنة ١٩١٢ ، وأكسفورد سنة ١٩٢٨ ، وليدن سنة ١٩٣١ ، وروما سنة ١٩٣٥ ، وبروكسل سنة ١٩٣٨ ، وباريس سنة ١٩٤٨ ، واستانبول - فى تركيا التى انسلخت من الشرق - سنة ١٩٥١ ، وكامبردج سنة ١٩٥٤ ، ثم هذه الدورة فى ميونخ سنة ١٩٥٧

* * *

وخطر لى أن أسأل لجنة تنظيم المؤتمر ، أن تفسر مابدا لى من شذوذ الوضع:

فاختصاص المؤتمر بالدراسات الشرقية ، يجعل الشرق هو المكان الطبيعى لانعقاده؛ كما أن الصفة العلمية لمثل هذا المؤتمر الجليل ، جديرة بأن تعصمه من جموح التعصب لغرب على شرق .

وقيل لى ببساطة :

ــ ليس الأمر كما تتصورين ، فمفهوم الاستشراق هو تخصص علماء غربيين فى الدراسات الشرقية على اختلاف مجالها . وفكرة انعقاده اتجهت أصلا إلى اجتماع هؤلاء المستشرقين الغربيين ، لتبادل الرأى فى الجديد من بحوث الاستشراق ، فكان من الطبيعى أن يعقد فى أى بلد أوربى له نشاط فى هذا الميدان ، دون الغفلة عن أهمية اشتراك الشرقيين فيه ، ممن لهم تخصص فى الدراسات التى تهم المستشرقين .

قلت بصراحة :

ــ ذلك لاينفى شذوذ الوضع ، بل لعله يؤكده ، إذ يجعلنا نحن الشرقيين الأصلاء ، أشبه بضيوف مدعوين . ثم إنه لايجيب عن السؤال : مادامت أعمال المؤتمر خاصة بالشرق ، فلماذا لايجتمع المستشرقون فى بلد شرقى ؟

وكان الجواب :

ــ وجهوا الدعوة إلى عقده فى بلدكم إن شئتم ، ولن نتردد فى عرضها على أعضاء المؤتمر فى جلسته العامة بعد يومين .

وأسرعت إلى الزملاء المصريين ـ وكانوا سبعة أعضاء ـ أشاورهم فى الأمر ، ففوجئت بأننا لانملك حق توجيه الدعوة ، دون تفويض من الدولة ، أو استئذانها عن طريق سفارتنا فى « بون » .

واليومان الباقيان ، لموعد الجلسة العامة ، لاتكفيان للاتصال بسفارتنا فى بون ، ثم اتصال السفارة بالقاهرة وانتظار الرد !

واقترحت على أستاذنا الجليل « السيد حسن حسنى عبدالوهاب » أن يدعو المؤتمر إلى عقد دورته التالية فى تونس ، وله تأييدنا المطلق .

ولكن موقفه كان مماثلا لموقفنا ، وضاعت الفرصة .

وقرر المؤتمر قبول دعوة الوفد السوفييتى ، للانعقاد فى موسكو .

* * *

وفى موسكو ، سنة ١٩٦٠ ، تكررت المحاولة :

بادر العضوان المصريان بالمؤتمر « الأستاذ أمين الخولى ، والأستاذ محمد حسين » فاتصلا إثر وصولهما بالسيد سفيرنا هناك. واقتنع سيادته بالفكرة فبادر بالكتابة إلى القاهرة ، يستأذن فى توجيه الدعوة .

ومضت فترة انتظار ، حتى جاء الإذن من القاهرة ، بعد أن أفلتت الفرصة هذه المرة أيضا :

فأثناء فترة الانتظار ، كان بنو إسرائيل هناك، يقحمون سياستهم على المؤتمر، ويحذرون من عقده فى أى بلد عربى ، لكيلا يحال دون اشتراك إسرائيل فيه :

وفى الجلسة العامة الختامية للمؤتمر ، عُرضت عليه دعوات من : مصر ، والعراق ، والهند ، وأمريكا .

ووقف مندوب العراق ، فأعلن تنازله عن دعوته ، تأييدا لمصر ،قائلا : إن بغداد والقاهرة سواء .

وأدرك الوفد الأمريكى أن التيار مع الشرق،فتنازل عن دعوته تأييدا للهند ، على أن تكون الدورة التى بعدها لأمريكا .

ومال « غفوروف » رئيس الدورة « بعيداً عنا ، وقال فى حديث خاص يبرر موقفه : إن مصر ليس لديها من العلماء المتخصصين فى بحوث التراث الشرقى من يمثلونها فى

الشعب العشر للمؤتمر . والمفروض — فى تقديره — أن يكون للدولة الداعية من يرأسون كل لجانه . وقد يكون لمصر علماء فى المصريات ، وربما فى الإسلاميات والإفريقيات ، لكن ماذا عن الدراسات الهندية والقوقازية والإيرانية والعبرية ؟

وأخذت الأصوات على الدعوة الموجهة من مصر والهند، فنالت الهند الأغلبية.

وبقدر مااغتبط الأعضاء العرب بنجاح دعوتهم إلى عقد المؤتمر فى بلد شرقى.

وبقدر ماتقبلوا كسب الهند للدورة. بشعور الرضى والارتياح ، تقديرا لعراقة تاريخها وأصالة شرقيتها. واستجابة لما يربطنا بها من أواصر ود متبادل، وصلات مادية ومعنوية على مسار التاريخ .

أقول : بقدر ماتلقى الأعضاء العرب هذا القرار بغبطة وارتياح ، ضاقوا بالتبرير الغريب الذى قدمه رئيس الدورة ، كما أنكروا إقحام السياسة على مؤتمر علمى ، تأثرا بالدعاية الإسرائيلية .

وغاب عن المؤتمر ، وهو يؤخذ بخدعة اسرائيل فى أن عقده ببلد عربى يحرمها قطعا من الاشتراك فيه ، أن وضعا مماثلا حدث ، ويحتمل أن يحدث، فى أى مؤتمر دولى يعقد فى أى مكان من الدنيا :

ومؤتمر المستشرقين عقد فى تركيا سنة ١٩٥١ ، ولم تشترك مصر فيه لأسباب سياسية .

وعقد فى ميونيخ بألمانيا الغربية سنة ١٩٥٧ ، ولم تشترك فيه ألمانيا الشرقية، لأسباب سياسية كذلك .

ولم تتعطل هذه الدورة أو تلك ، ولا فتحت ثغرة تهب منها ريح السياسة .

وحين تقرر عقده فى الهند ، لم يواجه القرار باحتمال عدم اشتراك الصين وباكستان فيه، ولهما من المجد التاريخي والأصالة في موضوع المؤتمر، ماليس لإسرائيل الطارئة ،

وهو ماحدث فعلا ...

ذهبنا إلى الهند،وقد أنستنا فرحة اللقاء بشعبها الصديق وزيارتنا للبلد العريق الذى أهدى البشرية تراثه الفكرى والروحى من قديم الزمان،أنستنا هذه الفرحة ماطوينا من ذكرى الموقف فى الدورة السابقة .

لكن واقع الأحداث مالبث أن ذكرنا بما حاولنا أن ننساه :

التقى الجمع فى قصر المعرفة بنيودلهى ، مختلط الألوان والأزياء ، متفاوت الملامح والسمات ، متعدد اللغات واللهجات :

ألف وبضع مئات من الأعضاء ، وفدوا من شتى أنحاء الدنيا ، يمثلون تسعا وأربعين دولة شرقية وغربية ' عريقة ومحدثة .

ولم تشترك فيه الصين الشعبية .

وكذلك لم تشترك فيه باكستان .

وفى جلسته الختامية تقرر عقده ، سنة ١٩٦٧ ، فى أمريكا ، دون أن تقحم السياسة بإثارة عدم اشتراك دول عربية أو الصين الشعبية فيه ، والجو السياسى مشحون بنذر مرهصة بمثل هذا الاحتمال .

فلماذا ساغ إقحام اسرائيل على المؤتمر ؟ الجواب عند من حملوا إثم هذا الإقحام ، متأثرين بخدعة مكشوفة ، ومحصورين فى أفق ضيق لايقدر التبعة ، ولايحسب حسابا لما وراء هذا الإقحام من سوابق وعواقب خطيرة .

وعلى كل حال ، لم يكن غياب الصين وباكستان عن المؤتمر مفاجأة لى ، فقد توقعت من قبل أن يحدث مثل هذا فى أى مؤتمر دولى يعقد فى أى بلد من بلاد الدنيا .

ولكن الذى لم أتوقعه ، هو أن أجد كل الرؤساء لأقسام المؤتمر العشرة ، علماء من غير الهنود !.

قسم الدراسات المصرية : يرأسه أستاذنا الدكتور عبدالمنعم أبو بكر .

قسم الدراسات السامية : يرأسه المستشرق فولكشتاين ـ هايدلبرج .

قسم الدراسات القوقازية : يرأسه المستشرق بوريس بيوتروفسكى ـ ليننجراد.

قسم الدراسات التركية : يرأسه الدكتور زكى طوجان ـ من جامعة استانبول.

قسم الدراسات الإيرانية : يرأسه الأستاذ بور داوود من جامعة طهران ـ إيران

قسم دراسات جنوب شرق آسيا: يرأسه الدكتور زويتمولدر ـ من جاكارتا

قسم دراسات الشرق الأقصى : يرأسه الدكتور كاكو إينوكى ـ من جامعة طوكيو

قسم الدراسات الإسلامية : يرأسه الدكتور ولفريد سميث ـ من جامعة هارفارد

قسم الدراسات الإفريقية : يرأسه الدكتور بيتشى ـ من جامعة شرق أفريقيا فى كامبالا : أوغنده

وأعجب من هذا ، أن قسم الدراسات الهندية ، بشعبه الخمس ، كان رؤساؤه من غير الهنود :

المستشرق الفرنسى لاكومب ، لشعبتى الدين والفلسفة .

المستشرق الألمانى بون تيمس (توبنجن) لشعبة الدراسات الفيدية .

المستشرق لودفيج شتير نباخ (نيويورك) لشعبة السنكريستية الكلاسيكية .

المستشرق باشام (من جامعة لندن) لشعبة التاريخ والفن

المستشرق هرمان برجر (من هايدلبرج) لشعبة اللغويات الهندية الحديثة .

واكتفت الهند لعلمائها ، بمراكز السكرتارية لكل هذه الأقسام والشعب .

كما اكتفت بعضوين اثنين من الهنود ، الدكتور همايون كبير : رئيس الدورة والدكتور داندبكار : من جامعة بونا ، فى اللجنة الاستشارية للمؤتمر ، أما باقى مستشاريه العشرين ، فكانوا من غير الهنود .

وقد كان كل رؤساء الأقسام العشر ، فى الدورة الماضية بموسكو ، من علماء الاتحاد السوفييتى .

وأى دولة ، لايضيرها إطلاقا أن تدعو عالما كبيرا ليرأس قسما من أقسام مؤتمر دولى يعقد على أرضها .

ودولية المؤتمر ترتفع به عن هذه النظرة الإقليمية المحدودة ، إلى الأفق الرحب الذى تتآزر فيه جهود العلماء من مختلف الأقطار وشتى الأجناس ، لخدمة البحث العلمى الذى تتحاحى فيه هذه الفوارق .

وأرى الهند بهذا المسلك ، قدمت مثلا جديرا بشرقنا العريق ، وشهادة بمدى ما بلغته من أريحية وسعة فى الأفق ونضج فى الشخصية ، يحميها من غرور الادعاء وسذاجة التعصب ، ويؤكد أصالة الروح العلمية فيها ، ميراثا عتيدا راسخا تلقته من ماضى تاريخها الحضارى المجيد .

نحن . . وهم :

من بين ألف وأربعمائة عضو، يمثلون تسعاً وأربعين دولة من شتى أنحاء الدنيا، كان هناك تسعة أعضاء يمثلون الوطن العربى الكبير بمختلف أقطاره :

عضوان من العراق ، وآخران من تونس ، وواحد من لبنان . وأربعة من مصر : أحدهم مدعو بصفته الشخصية ، والثانى موفد من جامعة الدول العربية ، وعضوان يمثلان جامعة عين شمس .

وبعملية حسابية بسيطة ، نقسم عدد أعضاء المؤتمر على الدول المشتركة فيه ، فيكون المعدل المتوسط لكل دولة نحو ثلاثين عضواً .

والوطن العربى، من الخليج إلى المحيط ، ليس له إلا تسعة أعضاء فقط لا غير . أى بنسبة عددية أقل من ثلث المعدل المتوسط لكل دولة .

ومن بين أربعة وأربعين مراقباً ، أوفدتهم هيئات ثقافية ومراكز إعلامية من مختلف أقطار الأرض ، لم يكن فيهم أى عربى !

وهذا وحده يكفى لتحديد الحيز الذى قررنا باختيارنا أن نشغله هناك، وبيان الموضع الذى حددناه لأنفسنا ، فى مؤتمر دولى كبير يشغل بقضايا من صميم وجودنا ، وينبش عن عميق جذورنا ، ويكتشف ملامح شخصيتنا عبر التاريخ الطويل .

وهو أيضاً يكفى لنعرف جواب السؤال الذى كان يملأ رحاب المؤتمر ولو لم ينطق به لسان :

أين نحن وأين هم ؟

أين نحن من حقيقة ذاتنا وماضى خطانا على درب الزمن ؟

وأين هم ، من صميم الشرق وأسرار مزاجه وعقليته وجوهر شخصيته ؟

بل أين نحن مما يقولون عنا ، ومما يذيعون من مطوى تاريخنا وينشرون من تراثنا ويحفرون عن آثارنا ، ومما يرسمون لنا من صور : بعضها صحيح وإن أعوزته الأصالة والمشاركة الفكرية والوجدانية ، وأكثرها زائف عبث به الهوى والتعصب ، أو مسخه سوء الفهم وقصور الإدراك وخطأ التقدير ؟

يبدو ألا شيء من هذا عندنا بذى بال !

ويدور الصراع هناك حول أخطر قضايانا ، وتحتدم المناقشة حول عقائدنا وعقليتنا الشرقية ، والمزاج النفسى الذى تمثله آثارنا المادية وتراثنا الروحى والعلمى والأدبى ، وما حملته الأجيال المتعاقبة من هذا كله إلى جيلنا المعاصر .

وقومى بمعزل عن ذلك ، لا يعنيهم الأمر فى كثير أو قليل ، ولسان حالهم ينطق ببيتٍ لشاعرهم المتنبى ، قاله قبل ألف عام :

أنام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

فليقل المستشرقون فينا ما شاءوا

ولتسهر الدنيا مشغولة بنا ، فى نيودلهى أو فى موسكو أو ميونخ ، فى تركيا أو أمريكا .

وليختصم فينا الخلق من شتى الشعوب والأجناس ، ومن مختلف الملل والنحل والمذاهب . . .

ولننم نحن ملء الجفون . .

تمثلا بكلمة شاعر ينفث سحره فى أجيال متعاقبة منا ، ويترك طابعه فى ذوقها وأثره فى وجدانها . . .

وأعجب العجب ، أننا ندرك هذا الأثر ونعترف به ، ونجحد مع ذلك كل

ميراث الماضى فينا ، متأثرين بمفهوم خاطىء للعصرية يروجه فينا من يزعمون أنها انفصال بات عن ماضينا وانبتار حاسم من أصولنا ، وإقامة سد أصم بيننا وبين قديمنا . وقد تغلغل ذلك القديم فى أعماقنا رضينا أو كرهنا ، وترك فينا طابعه المميز لنا،به نفترق عن شعوب أخرى تُعاصرنا وليست لها شخصيتنا التى تكونت على تعاقب الدهور وتتابع الأجيال !

أجل ، نجحد ميراث الماضى فينا ، فندع للأجانب الغرباء أن يشغلوا به ويكشفوا عنه ، حتى إذا حاول محاول منا أن يشارك فى شىء من هذا بنشر نص من تراثنا أو بحث فى قديمنا ، أخذته الصيحات من كل جانب تنفى انتماءه إلى عصرنا ، وتنكر عليه أن يعوق دفع التطور بالاشتغال بماض ولى وراح . . .

* * *

وتسألون : ماذا قالوا عنا فى المؤتمر ؟

وأجيب : لا أدرى !

فيما عدا الذى قيل فى « قسم الدراسات الإسلامية » وهو لا يعدو أن يكون أحد أقسام عشرة للمؤتمر .

فهل يدرى سواى من الزملاء العرب شيئاً مما دار فى الأقسام التسعة الأخرى، وفيها بحوث أسيوية وإفريقية وسامية ؟

كلا أيضاً !

فيما عدا قسم المصريات الذى كان يرأسه أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو بكر أما بقية الزملاء،فكانوا مثلى فى قسم الدراسات الإسلامية وكنا قلة من بين أعضائه الذين قاربوا المائة عدا ، بينهم عشرة يهود من إسرائيل ، وعشرة من الأمريكان ، ومثلهم من الاتحاد السوفييتى .

وفيهم من جاءوا من القاهرة وبيروت ودمشق ممثلين لمؤسسات ثقافية أجنبية، كالجامعة الأمريكية ومعهد الآثار الفرنسي .

ومنهم من جاء من استراليا وتنجانيقا ، وهولاندا .

وكان من الممكن أن نجتمع نحن الأعضاء العرب لتنسيق جهودنا، لكنا وصلنا إلى نيودلهى ليلة انعقاد المؤتمر ، بعد أن تم تسجيل كل منا فى القسم الذى اختاره منفرداً ، ودون أن يعرف أسماء زملائه ، والأقسام التى سجلوا فيها ، وموضوعات البحوث التى أعدوها واشتركوا بها .

بل إننا نحن الأربعة المصريين ذهبنا فرادى ، نمثل هيئات أو بالصفة الشخصية ، دون فرصة لقاء أو تفاهم أو تعاون فى مرحلة الاستعداد .

لأن الدولة لم تشترك فى مؤتمر المستشرقين الدولى بوفد يمثلها على مستوى الجمهورية ، وهو الوضع الذى كان يضمن تنسيق جهودنا الفردية وتوجيهها ، على النحو الذى شهدته فى كل المؤتمرات التى اشتركنا فيها بوفد رسمى ، فلماذا حرم مؤتمر المستشرقين هذه الصفة الرسمية ، وليس أقل أهمية من باقى المؤتمرات ؟

سؤال ظل يشغل بالى ، وأنا أرقب وفود الدول الأخرى متآزرة متفاهمة ، ينزل كل وفد منها فى مكان واحد ، ويعقد بين حين وآخر جلسات خاصة لتبادل الرأى وتنسيق الجهد ، فيما يواجه من مواقف .

والأعضاء العرب كل منهما فى حاله ، ولكل منهم برنامجه فى الرحلة ، مستقلا عن بقية الزملاء .

لا نلتقى إلا اللقاء العابر فى قاعات قصر المؤتمر ، وفى حفلات الاستقبال ، على موائد من تفضلوا بدعوتنا إلى غداء أو عشاء !

* * *

وأخرى ، كانت نتيجة طبيعية لوصولنا ليلة انعقاد المؤتمر ، بعد أن تم إعداد

برامجه وتأليف هيئات لجانه، وتحديد الأعضاء الذين يشتركون فى نشاطه العام خارج حدود اللجان .

دون أن تتاح لنا فرصة فى هذا كله ، فما كانت لجنة تنظيم المؤتمر لتجازف باختيار أى عضو منا فى هيئات لجانه أو ندواته العلمية التى كانت جزءاً جوهرياً من برنامجه ، وهى لم تتلق منا ، حتى اللحظة الأخيرة . ما ألحت فى طلبه من تحديد موعد وصولنا ، وتأكيد اشتراكنا الفعلى فى المؤتمر .

وتتابعت رسائلها إلينا ، ونحن لا نملك أن نجيب ، لأن إجراءات سفرنا لم تتم إلا فى يوم السفر ذاته ، والمؤتمر على وشك انعقاد !

باستثناء « الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو بكر» الذى سافر قبل انعقاد المؤتمر بخمسة أيام ، ليتسلم درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة نيودلهى ، فأخذ مكانه عضواً فى اللجنة الاستشارية للمؤتمر ، ورئيساً لقسم الدراسات المصرية .

* * *

وكان فى برنامج المؤتمر ندوتان ثقافيتان :

إحداهما عن دور دراسات الاستشراق فى الإنسانيات ، برياسة الأستاذ « همايون كبير » رئيس الدورة .

والأخرى عن التعديلات الحديثة فى تشريع الأحوال الشخصية للمسلمين ، برياسة الدكتور شرى شاجلا وزير التعليم الهندى .

اشترك فيها الأساتذة « مولانا سعيد أحمد أكبر أبادى ، وشيرى فضل الرحمن، وخواجه محمد أحمد ، والدكتور حسين ناصر (إيران) والسفير التركى سيف الله أسين ، والمستشرق أندرسن .

وقدرت لجنة التنظيم أهمية اشتراك الدول العربية فى هذه الندوة ، فدعت

سفيرنا بالهند ، السيد أحمد حسن الفقى ، ليتحدث عن تشريع الأحوال الشخصية بمصر ، وما أدخل عليه من تعديلات .

وكان محض اتفاق أن يكون السيد السفير متصلا بهذا الموضوع الدقيق ، وعلى دراية به ، بحكم نشأته فى بيت دين ، مما أتاح له أن يدرس تشريع الأحوال الشخصية فى نصوصه المعدلة بقانون بعد قانون .

ولولا هذا الاتفاق المحض ، لما كان من المستطاع أن تشترك مصر — بسفيرها — فى الندوة ، ولتركنا المجال كله للهند وإيران وتركيا والمستشرق «أندرسون» دون أن يسمع أى صوت لعربى مسلم !

* * *

وكان فى برنامج المؤتمر أيضاً ، إقامة معرض عام لنوادر المخطوطات والذخائر التى نشرت من تراث الشرق والإسلام ، والمؤلفات المتصلة ببحوث الاستشراق .

اشتركت فيه وفود وهيئات شتى ، من شرق وغرب ، ولم يشترك فيه أى قطر عربى !

من الهند : اشتركت ثلاث هيئات أكاديمية ، وسبعة مراكز ثقافية ، وخمس دور للنشر .

ومن ألمانيا ، فى الشمال الأوربى ، جاءت معروضات من مراكز الاستشراق.

ومن أقصى الغرب الأمريكى ، جاءت معروضات مركز البحوث اللغوية فى «واشنطون» ، واتحاد الدراسات الآسيوية فى ميتشيجان .

ومن الاتحاد السوفييتى ، جاءت معروضات مما نشرته معاهد الاستشراق فى موسكو وليننجراد وطشقند ، برعاية المجمع العلمى السوفييتى .

. . . . . .

ونحن ... لسنا هناك .

ما من أثر فى المعرض ، يعلن عن وجود الشرق العربى فى الميدان ، فيما عدا ما قدمته بعض الهيئات الهندية من مترجمات أوردية لبعض مؤلفاتنا فى الإسلام !

وكل ما فى المعرض متصل بصميم وجودنا .

وفى هذا أيضاً ، سهر الخلق مشغولين بنا ، ونمنا نحن ملء الجفون ، مخدرين برُقيةٍ نفثها ذلك « المتنبى » فى وجدان قومنا منذ أكثر من ألف عام :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم !

تجربةٌ وامتحان

كانت هذه الدورة لمؤتمر المستشرقين الدولى ، أول دورة له تعقد فى بلد شرقى حر .

تجربة أولى واجهتها الهند ، لتحتمل عبئها الصعب . . .

والمؤتمر قديم وعريق ، يحمل تاريخه تجارب خمس وعشرين دورة سابقة ، تنقل فيها بين عواصم أوروبا ، وأغنت رصيدَه خبرات وجهود لدول تتنافس على المراكز القيادية لعالم اليوم .

وبهذا الرصيد اتجه المؤتمر إلى الهند ، وهو يرقب مصير التجربة بحساسية بالغة ، واستعداد يقظ لالتقاط أخفى المآخذ وتسجيل أهون الأخطاء .

وذهب ممثلو الدول التسع والأربعين ، ومعهم مائة وأربعة وأربعون من المراقبين ، موفدين من شتى هيئات الثقافة ومراكز الإعلام . ومن هؤلاء كثرة غالبة تمرست بالمؤتمرات الدولية وشهدت دورات سابقة لمؤتمر المستشرقين ، فى دول غربية عظمى .

ذهبوا بعيون مفتوحة وحس نقدى مرهف ، يسيطر عليهم جو التطلع والترقب ، وكأنهم مدعوون لشهود امتحان مثير ، يؤديه هذا الشرق أمام الغرب ، على مرأى ومسمع من ذلك الجمع الحاشد ، تتنازع أفراده عاطفتان مختلفتان :

الشرقيون منهم يواجهون التجربة بوجدان مشترك ، يخفق بلهفة الرجاء ويتوهج بحرارة التجاوب .

والغربيون يغلب عليهم شعور من الزهو والتفوق ، توارى خلف قناع من المداراة وبرود اللامبالاة .

وبدوا كأنهم جميعاً يقومون بدور المراقبين .

وبدونا كأننا جميعاً ، نؤدى الامتحان مع الهند ، وإن احتملت وحدها العبء ، واختيرت لتمثل الشرق كله فى الموقف الصعب .

وكانت قد استعدت له منذ وقت غير قصير :

فى منتصف سنة ١٩٦٢ ، قبل انعقاده بعام ونصف عام ، كانت لجنة التنظيم قد ألفت ، وبدأت تعلن عن وجودها على المستوى العالمى ، بتوجيه الدعوات إلى الهيئات والأشخاص المشتغلين بتراث الشرق .

ومن ذلك الوقت ، تتابعت نشرات اللجنة ، معلنة عن الجهد المبذول استعداداً للدورة .

وقبل أن يحل موعد المؤتمر بنصف عام ، كان كل مدعو منا قد حدد القسم الذى اختاره ، وعين البحث الذى يعده ، وعرف اسم عضو لجنة التنظيم ، المشرف على مكاتبات القسم .

وحُدد منتصف شهر أكتوبر من سنة ١٩٦٣ ، آخر موعد لتلقى خلاصات البحوث المعدة للمؤتمر .

وفى شهر نوفمبر ، كان البرنامج العام قد وزع على الأعضاء فى أنحاء الدنيا ، مرفقاً ببيان دقيق عن الفنادق ومستوياتها وأسعارها ، ولائحة الجمارك الهندية ، وأسعار العملات المختلفة فى التبادل الرسمى ، وجو الهند فى فترة انعقاد المؤتمر ، سواء فى مقره بنيودلهى ، أو فى المناطق السياحية بالشمال والجنوب .

ومع البيان ، بطاقتان يضعهما العضو على حقائبه ، ليكون بهما موضع عناية وتكريم .

وكان هذا الاستعداد كفيلا بأن يبعث الطمأنينة إلى نفوسنا ، نحن الشرقيين الذين نواجه مع الهند تجربة الامتحان .

ومن المطار تلقانا مندوبو المؤتمر ، ومروا بنا — فى طريقنا إلى الفنادق المحجوزة لنا — على مقر انعقاد المؤتمر لنسجل حضورنا ونستلم حافظة الأوراق الخاصة بكل منا .

وكانت مفاجأة لأكثرنا ، أن نجد فى « نيودلهى » قصراً خاصاً بالمؤتمرات ، هو « قصر المعرفة : Vigyau Bhavan » بنى على أحدث طراز ، وزود بكل ما يمكن أن يخطر على البال من وسائل العمل والراحة .

ففى البهو الكبير أماكن منظمة لخدمة الأعضاء موزعين عليها حسب أرقام عضويتهم ، بحيث يعرف كل عضو أين يجد ما يصل إليه من بريد ودعوات ومطبوعات ، والنشرات الدورية للمؤتمر .

ويفضى البهو ، من الأمام ، إلى القاعة الكبرى الرئيسية ، ومن الجانبين إلى مكاتب البريد والبرق والتليفون والمصرف ، وقاعات الاستراحة ، والمكاتب المخصصة لرؤساء اللجان وسكرتارية المؤتمر . وفى الدور العلوى قاعات رحبة ، أعدت لتكون معارض للكتب ، والمخطوطات ، والفنون ، والآثار ، ونماذج مختارة للصناعات الهندية .

وفى الدور الأرضى ، قاعة كبرى فخمة للطعام ، تتسع لكل هذا الجمع ، ويقوم بالخدمة فيها جهاز مدرب على أعلى مستوى .

وهنا وهناك ، ينتشر الأدلاء والتراجمة يحملون على صدورهم شارة مميزة ، ويؤدون عملهم بروح عالية ويقظة تامة . وفيهم سيدات وآنسات ، فى زيهن القومى ، يضفين على المؤتمر جو الشرق الأصيل العريق ، بكل سحره وسره .

وعلمت أن هذا الجهاز الإدارى كله جهاز دائم ، أعنى أن أفراده يعملون فى قصر المعرفة — المخصص للمؤتمرات — بصفة مستمرة . على استعداد متصل لاستقبال الوفود لأى مؤتمر يعقد فى عاصمة الهند .

دون أن يترك الأمر لفوضى الارتجال وحيرة البحث عن مرافقين وأدلاء

وموظفين ، يلتقطون من هنا وهناك بصفة عارضة مؤقتة ، ويكلفون بالعمل الطارىء بلا تدريب أو إعداد ، ودون اختبار لمدى صلاحيتهم لاستقبال الوفود ، وأهليتهم للمهمة الخطيرة ، من حيث هم ممثلون لبلدهم أمناء على سمعتها ، بسلوكهم وثقافتهم، وخبرتهم على المستوى الدولى .

تلك كانت الجولة الأولى للمؤتمر .

وقفت حيالها أسترجع ذكرى مؤتمرات لنا ، تعقد فى أماكن مستعارة ، فتقحم على الجامعات أو دور الهيئات الثقافية أو قاعات المجالس المحلية .

وينتدب لها موظفون ، معارون كذلك ، من شتى الدواوين ، ومجموعون جمعاً لمـًّا لقضاء المهمة الطارئة على أى وجه ومستوى !

* * *

وتتابعت الجولات واحدة فى إثر أخرى . والهند تواجهها بكل ما فى طاقتها من جهد سخى باذل ، عن إدراك عميق لأهمية الموقف ، ووعى كامل لمسئوليته .

وأصبحنا يوم افتتاح المؤتمر ، وكان المقرر أن يفتتحه الرئيس « الدكتور رادا كريشنان »

وتوقعنا أن تكون كلمته مجرد تحية رسمية تقليدية ، يرحب فيها بضيوف الهند ويرجو لهم النجاح وطيب المقام . وقدرنا لكلمته خمس دقائق أو عشر ...

لكن الرئيس اشترك فى المؤتمر بمحاضرة خصبة ، ألقاها نيابة عنه « الأستاذ همايون كبير رئيس الدورة » واستغرقت ساعة كاملة :

بحث فى التاريخ الحضارى والروحى للهند ، وميراثها منه عبر آلاف من السنين تفاعل خلالها مع ما طرأ على الهند من حضارات وافدة .

مطلا بنا ، فى محاضرته ، على الأفق الإنسانى الرحب ، حيث تلتقى جهود البشرية من مختلف الأجناس وعلى تتابع العصور ، وتغدو تراثاً مشتركاً للإنسان .

وحيث تلتقي الروافد من شتى المناطق ، تصب فى النبع الكبير خلاصة تجارب الشعوب العريقة فى الحضارة ، والجديدة المحدثة .

وكان «الدكتور رادا كريشنان» فى محاضراته ، فيلسوفاً معلماً وشاعراً ملهماً، تتجلى فكرته فى فيض من نور الإيمان بإنسانية البشر ، وتخايله رؤى باهرة لعالم تتماحي فيه الفوارق بينهم فيرتل فينا « نشيدالإنسان » فىخشوع ومهابةوجلال:

تقابلوا معاً ، وتحادثوا معاً

ولعل عقولكم تلتقى

فى تفاهم ومودة وقربى

ولتكن أفكاركم وعواطفكم وأمانى قلوبكم

نابعة من ضمير الإنسان

ومتجهة إلى الخير العام

وعلى الطريق ، سيروا معاً

نحو وحدة البشر »

وفى نشوة الانفعال بالنشيد المثير ، توجهنا إلى القصر الجمهورى حيث كان فى استقبالنا السيد « الدكتور ذاكر حسين نائب رئيس الجمهورية » ـ والرئيس الحالى للهند ـ ليتدارس معنا قضايا الاستشراق ، ثم يودعنا على موعد للقاء معه ، فى بيته ، ثم فى دار سفيرنا بالهند ، لنتابع الحديث فى موضوع الفكرالإسلامى المعاصر،وماذا يستطيع أن يقدمه إلىالإنسانية من قيم عليا ، فى العدل الاجتماعى والأخوة البشرية .

وعدنا إلى قصر المؤتمر ، لنلتقى فى جلسة المساء بالرئيس نهرو ، وكانت الأنباء عن حالته الصحية قد شغلتنا ، فتوقعنا أن يعتذر .

لكنه أصر على لقائنا ، ليحاضرنا فى الأحداث الكبرى التى تشغل عالم اليوم،

ويهيب بالعلماء أن يجاهدوا لإنقاذ العالم مما يكابده من حدة التوتر، ومايروعه من مآسى التفرقة العنصرية والصراع الدامى بين المذاهب والعقائد .

ونسى الرئيس نهرو صحته وشواغله ، لكى يحمل نصيبه من العبء الذى اضطلعت به الهند لينجح المؤتمر ، وجاء يعلن دعاء السلام ، ويهيب بالعلماء رجاء كبيراً فى تحرير الإنسان من شر الأثرة ولعنة الحقد والتعصب ، ونكبة تسخير العلم للتخريب والتدمير .

• • •

وفتحت الهند قلبها الكبير لضيوفها ، فكان لشارة المؤتمر على صدورهم أثر يشبه السحر ، فى كل من لقينا من عامة الشعب .

وبدا كأن كل فرد هناك ، من رئيس الجمهورية إلى أبسط عامل ، يعد نفسه مسئولا عن نجاح المؤتمر .

وانعكس الوضع :

فلم يعد الشرق يؤدى امتحاناً أمام هذا المؤتمر للمستشرقين ، وإنما صار المؤتمر نفسه فى موضع الامتحان .

ليثبت طاقته على التسامى بالعلم إلى أفقه الإنسانى متجردا من ضغائن العصبية .

وليكشف عن مدى استجابته لنشيد الإنسان ودعاء السلام .

وكان امتحاناً صعباً ، علينا وعليهم :

علينا نحن الشرقيين الذين دخلنا المؤتمر بحساسية مرهفة نحو التجربة الأولى التى فرضت علينا أن نقف موقف الاختبار .

وعلى الغربيين الذين جاءوا مزهوين بعقدة التفوق التي فرضت عليهم أن يقفوا موقف الرقيب الفاحص .

وقد انفض المؤتمر ،وأقصى ما وصل إليه من نجاح فى التسامى إلى الأفق الإنسانى ، أن بذل جهد المحاولة فى حدود طاقته .

دون أن يبلغ بها المدى المرجو من التجرد .

ولا أبرىء نفسى من قصور ، فقد أعيانى فى الواقع أن أنسى انتمائى إلى الشرق .

ومعذرة إلى الدكتور رادا كريشنان والرئيس ذا كرحسين وذكرى الرئيس نهرو ، فما زلت حتى اليوم أكتب ما أكتب عن المؤتمر فأقول :

شرق وغرب . . . ونحن وهم !

بعض ما قالوا هناك :

قلت إن تجربة انعقاد المؤتمر للمرة الأولى فى بلد شرقى حر، قد واجهتها الهند بأقصى ما فى طاقاتها من جهد سخى باذل عن إدراك عميق لأهمية الموقف ، ووعي كامل لمسئوليته .

دون أن أعنى — من قريب أو بعيد — أن نجاح الدورة من حيث دقة التنظيم وكفاية الاستعداد وكرم البذل ، يدخل فيه الحكم بنجاحه من الوجهة العلمية الموضوعية .

فلهذا حديث آخر ، أحاول أن أعرض لجانب منه ، فى نطاق قسم الدراسات الإسلامية الذى اشتركت فيه وشهدت جلساته وأصغيت إلى ما ألقى فيه من كلمات.

راجية مع هذا ألا يؤخذ حديثى عنه مأخذ التعميم ، وهو لا يعدو أن يكون قسما واحدا من أقسام عشرة ، لا علم لى بما جرى فى غيره منها .

سجلت قائمة البحوث المقدمة إلى قسم الدراسات الإسلامية خمسة وتسعين بحثاً . وهو أعلى رقم فى الأقسام كلها ، باستثناء قسم الدراسات الهندية .

ولم ندر فى الواقع كيف يمكن أن تتسع جلسات عشر، لتقديم خلاصات لأكثر من تسعين بحثاً ، مهما تبلغ من تركيز وإيجاز . حتى أعلن رئيس القسم المستشرق الأمريكى « ولفريد سميث » فى مفتتح الجلسة الأولى ، أنه لا يجد أمام ضخامة عدد البحوث وضيق الوقت ، إلا أن يحدد لكل عضو منا ربع ساعة فقط لتقديم خلاصة بحثه ، ومناقشته فيه .

* * *

وكان سؤال: ماذا لو استنفد المتحدث ربع الساعة، فى إلقاء كلمته؟ وأجاب «الدكتور سميث» ببساطة: إذن لا تكون مناقشة:

ولعل هذا يعطى فكرة عن حدود المجال الضيق المتاح للمناقشة، إذا قدرنا أهميتها، وقدرنا كذلك مالا بد أن يكون من تفاوت المستوى بين البحوث، وماهى مظنة التعرض له من خطأ أو قصور أو انحراف، فى مجال دقيق صعب كالدراسات الإسلامية.

وأدخل فى صميم الموضوع، لأعرض بعض ما قالوا هناك.

وأتجاوز عمداً عن بحوث ستة قدمها يهود من إسرائيل، جاءوا إلى المؤتمر، من أورشليم وتل أبيب ليتحدثوا بكل جرأة عن الاسلام والمسلمين، مستبيحين حرمة تاريخنا، على امتداد الزمان والمكان، كما استباحوا حمانا فى المناطق المغتصبة من بلاد العرب.

* * *

كان الموضوع الذى شغلنا هناك، فى حدود ما أعرف، هو «القرآن الكريم» سواء فى الجلسات الرسمية للدراسات الإسلامية. أو فى المجالس والندوات الخاصة والمحادثات الحرة التى أتيح لى أن أشارك فيها.

وقد يكون غيرى من الزملاء شغلوا بموضوعات أخرى، لكنى ما شهدت مجلساً هناك إلا كان هذا الموضوع هو مدار حديثنا ومناط اهتمامنا:

المستشرقون يعنيهم أن يتتبعوا ما يظهر من جديد فى مجال تفسير القرآن، ليعرفوا كيف يفهم المسلمون اليوم كتاب الإسلام.

والمسلمون من غير العرب، يعنيهم أن يدركوا قيمة التراجم القرآنية التى يقرأون فيها كتاب دينهم، بغير لغته التى نزل بها.

* * *

والحق أن الموضوع لم يقدم فيه رسمياً سوى عشرة بحوث ، هى :

— القرآن الكريم ومشكلة الترادف اللغوى ، وهو الموضوع الذى اشتركتُ به رسمياً فى المؤتمر .

— الترجمة الانجليزية للقرآن ، والحروف الغامضة فى فواتح السور : قدمها الدكتور هاشم أمير على ، من نيودلهى .

— بحث فى التفسير الحديث : قدمه أرنولد ليو ، من كلية سان جوزيف فى بيروت .

— الكفر ، والشرك ، والطغيان فى القرآن: قدمه المستشرق « ت.ب إيرفنج » من الولايات المتحدة .

— التقدم الإنسانى والقيم القرآنية : للأستاذ شرف الدين عبد الصمد . من عليكره .

— فكرة الألوهية فى القرآن ، فى ضوء شروح مولانا آزاد : الأستاذ محمد مرتضى صديق ، من حيدر أباد(١) .

لكن « القرآن الكريم » مع ذلك ، فرض علينا أهميته واستأثر بالقدر الأكبر من تفكيرنا ومناقشاتنا .

وإذا كانت الموضوعات الأخرى قد أخذت نصيبها من الاهتمام فى الجلسات

---

(١) وجاء يهود من تل أبيب ، ومن أورشليم ، يتحدثون عن مثل :
— عبد القادر الجزائرى وعبد الكريم وأثر الاسلام فى حركتهما .
— الحياة اليهودية فى كريت فى ظل الحكم الاسلامى .
— موالى الخلفاء العباسيين والحدود الاسلامية .
— دراسة للعربية الوسطي من النصوص المسيحية . . .

الرسمية ، فقد بقى الوقت الحر لحلقات بحث ومدارسة ، يجذب أكثر الأعضاء حول هذا الموضوع الذى يستأثر باهتمامهم .

* * *

ذكرت أن قائمة البحوث المقدمة إلى قسم الدراسات الإسلامية سجلت خمسة وتسعين بحثاً ، وهو أعلى رقم فى الأقسام كلها باستثناء الدراسات الهندية .

وأحاول هنا أن أعرض صـــورة مجملة لما كان هناك ، عن طريق ما قدمه « الدكتور هاشم أمير على » من كلام فى فواتح السور ، وترجمة إنجليزية لبعض سور من القرآن الكريم .

لتخصصى فى الموضوع من ناحية ، ولعلمى بما للدكتور هاشم من نفوذ بالغ ، لدى من يتصلون عن طريقه بكتاب الإسلام ، فى اللغة الإنجليزية .

وكانت دعاية واسعة قد سبقت الجلسة التى تحدث فيها ، وقدمته إلينا حجة فى القرآن الكريم باللغة الإنجليزية . وتلقى كل الأعضاء هدية من الدكتور قامت سكرتارية القسم بتوزيعها علينا : نسخة من كتابه الصغير فى ترجمة وتفسير خمس عشرة سورة من « جزء عم » .

* * *

وعنوان مقاله بالانجليزية :

The Mystrious Ietters of Quran.

وقد وزع علينا قبل إلقائه ، خمس ورقات باللغة الانجليزية ظننتها خلاصة للبحث ، لكنى لم أجد بينها غير ورقة واحدة تتصل بالموضوع ،أما الأربع الباقيات فإعلان عن ترجمته الانجليزية لسور من القرآن ، مع مقتطفات منقولة من تقريظ لهذه الترجمة فى صحف ومجلات هندية وانجليزية وأمريكية .

والورقة الوحيدة المكتوبة عن فواتح السور ، اقتطع منها هامش للتعريف بالدكتور هاشم أمير علي ، نقرأ فيه أنه :

نال درجة الدكتوراه فى الإسلاميات (؟) من جامعة كورنيل

وحضر حلقة الدراسة الاسلامية فى برنستون سنة ١٩٥٤

وهو صاحب ترجمة القرآن التى نشرت فى نيودلهى ولندن ونيويورك ، بعنوان قرآن الطالب The Students Quran

وعميد معهد الدراسات الإسلامية العليا ، للجمعية الملية الإسلامية فى نيودلهى.

وإنما أنقل كل هذا ، قصدا إلى بيان مركز الباحث ، ونوع ثقافته ، ومدى شهرته ، واهتمام دور النشر به ، لكى يعرف قومى ما يتاح لكلامه عن كتاب الإسلام ، من ذيوع وانتشار .

وقد قرأت ورقته عن فواتح السور ، قبل أن يلقى كلمته

وكل ما فيها ، مقدمة تقول أن القرآن يستهل بحروف (الم) — يعنى سورة البقرة — ثم تتتابع سور عددها تسع وعشرين مفتتحة بهذه الحروف الغامضة التى أعيا القدامى إن يفهموها حتى اهتدى الدكتور هاشم إلى حل لهـــذه المشكلة التى لبثت تنتظره أربعة عشر قرناً بغير حل .

ثم تقدم الورقة الحل فى فقرة واحدة تقول ما ترجمته :

إن هذه الفواتح الغامضة جاءت متلوة بسياق المخاطب فى كل السور بلا استثناء ومن ثم يمكن فهمها على أنها نداء للنبى . بحيث لو وضعنا « يا محمد O. Muhammed » مكان كل هذه الفواتح لا نجلى الموقف وحُلت المشكلة .

ويستطرد الدكتور هاشم فى ورقته قائلا : إن هذه الفواتح تشترك فى ظواهر منها :

أنها جميعاً بلا استثناء فى سياق المخاطب .

وهى جميعاً لا تؤثر على معنى النص فيما يليها

وإن خمساً وعشرين ســـورة من التسع والعشرين المفتتحة بهذه الحروف

الغامضة ، نزلت فى العهد المكى المتأخر حين كان النبى منبوذاً Ostracised من قومه وفى حاجة شديدة إلى التأييد .

وأضاف : إنه لا حاجة بنا إلى الوقوف عند الدلالة الأصلية لهذه الحروف ما دامت لا تؤثر على فهمنا للسياق بعدها ، بإحلال « يامحمد » مكانها ، ولا تعطى أى مغزى آخر وراء ذلك ، والنبى لم يكشف لأصحابه عن حلها ، ربما عن تواضع !

* * *

ووقفت عند الدليل الذى قدمه الدكتور هاشم وهو أن كل السور المبدوءة بهذه الحروف الغامضة ، تأتى الآيات التالية للفواتح فيها فى سياق الخطاب (لمحمد ﷺ) ثم رحت أسترجع فى ذهنى ، الآيات الأولى من سور :

العنكبوت . الروم . لقمان . ص . غافر . الزخرف . الجاثية . الأحقاف . ق . يونس . فإذا سياق الآيات للفواتح فيها ، ليس خطاباً للنبى ﷺ .

وما قاله عن نزول خمس وعشرين سورة من ذوات الفواتح ، فى أواخر العهد المكى ، والأربع الباقيات مدنيات ، ينتقض كذلك ، إذا ذكرنا أن عدد السور المكية كلها فى المصحف ، سبع وثمانون سورة : فإذا اعتبرنا المتأخر منها ما بعد السبعين ، لم نجد فى السور المفتتحة بالحروف غير أربع فقط مما يمكن عده من متأخر السور المكية . وهذه الأربع هى على التحديد : ابراهيم ، والسجدة ، والروم ، والعنكبوت .

أما باقى السور المكية المفتتحة بالحروف المقطعة ، فمنها ما يقع فى ترتيب النزول ، فى الثلث الأول من العهد المكى . بل منها كذلك سورة القلم وقد نزلت آياتها التسع والأربعون الأولى ، بعد سورة العلق مباشرة ، أول سورة نزل بها الوحى !

* * *

واستحضرت ذلك كله فى بالى ، استعدادا لمناقشة الدكتور هاشم فيه بعد أن قام يلقى كلمته ، وفى حسابى أنها لن تستغرق أكثر من خمس دقائق ، إذا افترضنا أنه

بحيث يقرأ كله ما جاء فى ورقته المكتوبة عن فواتح السور . لكنه أمضى عشر دقائق يزكى ترجمته للقرآن ، ويحصى ما سبقها من تراجم بالإنجليزية ، مؤكدا أن ترجمته تفضلها جميعاً . ثم استنفد الدقائق الخمس الباقية له ، فى كلمة عن فواتح السور لم يضف بها جديدا إلى ما قرأناه عنها فى ورقته .

وهكذا لم يترك لنا دقيقة لمناقشته .

وانتظرت حتى انتهت الجلسة ، فتعرضت له بالسؤال عما قال فى فواتح السور ، فكانت المفاجأة أن التمس منى محادثته بالانجليزية لأنه لا يعرف العربية !

سألته : وتقول إنك جئت بأفضل ترجمة للقرآن الكريم ، وأنت لا تعرف لغته؟

فتبسم ضاحكا من قولى وهو يسأل بدوره :

— وهل القرآن للعرب وحدهم !

أجبت : كلا ، بالتأكيد . ولكن أن تترجمه وأنت لا تفقه لغته ، أمر غريب حقا !

قال : فلنؤجل هذه المناقشة ، إلى أن تطلعى على الترجمة ، لأرى ما إذا كنت تنكرين منها شيئاً .

وقلت على الفور :

قد فعلت ، ألقيت نظرة سريعة على ترجمتك التى أهديت إلى كل الأعضاء قبل الجلسة ، وأنكرت منها الكثير .

فسألنى : مثل ماذا ؟

وأجبت : مثل ترجمتك للكافرين ، بذوى الإيمان القليل :With little faith وترجمتك « لا ريب فيه » بـ « لا صدع ولا ثغرة » وترجمتك « الذين يؤمنون بالغيب » بالذين يعتقدون بلا ريب .....

ولم يبد عليه أنه يفهمنى

ولم يبد لى أن المضى فى مناقشته يجدى !

* * *

وأدع ترجمته للقرآن إلى حين ، لأقول هنا إن مقال الدكتور هاشم ، وعشرات أخرى من كلمات الأعضاء ، مرت بغير مناقشة .

والمؤتمر بمثل هذا الوضع الذى حشد فى جلسات عشر ، خلاصات لما قدمه أعضاؤه الذين قاربوا المائة ، أضاع الكثير من جوهر أهميته بإهدار فرصة المناقشة التى تمحص ما يعرض من آراء ، فتصحح أو تستدرك عليها ، أو تضيف إليها مما لدى الدارسين المتخصصين .

وإلا فأى جدوى فى أن نجلس مستمعين لما يلقى علينا ، دون أن نملك سؤالا ولا رداً ؟

ولقد كان أمام القسم ، بحثان على طرفى نقيض :

بحثى فى « القرآن الكريم ومشكلة الترادف اللغوى » فى ضوء التفسير البيانى ، وواضح فيه أننا لا نستطيع أن نفسر اللفظ القرآنى بآخر مما يبدو مرادفاً له ، دون أن يفقد اللفظ سر دلالته فى سياقه القرآنى ببيانه المعجز .

وفى الطرف المقابل ، وقف الدكتور هاشم يعلن غبطته وزهوه بتقديم أفضل ترجمة انجليزية للقرآن . ثم نفاجأ بأنه يجهل العربية ، ويعييه أن يفهم من يخاطبه بها !

وما أبعد ما بين الموقفين :

يعييني ، والعربية لغتى والنص القرآنى موضوع تخصصى ، أن أفسر لفظاً منه بآخر من مادته ، أو بمرادف له فى معاجمنا اللغوية .

ويهون على الدكتور هاشم ، أن يترجم هذا النص إلى الإنجليزية ، وليس له أدنى معرفة بلغة القرآن !

وموقفه ، قد يبدو فى ظاهره غير شاذ ، فليس الدكتور هاشم بأول من نقل نصاً من لغة لا يعرفها ، مترجما إلى لغة يجيدها . والغرب قد اتصل بتراث أرسطو عن طريق التراجم العربية له،وأكثر ما لدينا من نصوص إغريقية وهيروغليفية ، قد نقل إلينا عن طريق تراجمها إلى اللغات الحديثة .

لكن الشذوذ بدا فى أوج حدته ، تجاه الذى عرضتُه على المؤتمر ـ فى نفس الجلسة الذى ألقى فيها الدكتور هاشم كلمته ـ من دراسة لموقف البيان القرآنى من الترادف اللغوى !

ومرت كلمة الدكتور فى القرآن الكريم بغير مناقشة .

لكن التناقض بين الموقفين ، أثار موجة من القلق والحيرة والتساؤل ، اندفعت من قاعة الجلسة ، إلى خارج جدران قصر المؤتمر « فيجيان بهافان » فشغلتنا حيث التقينا ، فدار الحديث فى كل مجالسنا الخاصة ، حول ترجمة القرآن إلى لغة أجنبية .

ولم نختلف على أن الترجمة لا تكون إلا لمعانى القرآن ، كما لم نختلف على أن أى ترجمة لهذه المعانى ، مهما تبلغ من الدقة والصحة ، لا يمكن أن تجلو أسرار دلالاته فى إعجازه البيانى .

إنما الذى أهمنا حقاً ، أن جمهرة الذين قاموا بالترجمة ممن لا يؤمنون عليها من غير المسلمين ، كانت ترجماتهم تقابل بالحذر ، وتتلقى بالحرص اليقظ لما يُظن بهم من انحراف وتعصب .

وهذه ترجمة يقدمها شرقى مسلم ، ليس مظنة اتهام . .

فإذا كان يجهل العربية ، فإنه يحتكم فى توجيه النص القرآنى بما يأخذ عن الترجمات الإنجليزية . ويقدمه بهذا الوضع الشاذ ، إلى مئات الملايين من المسلمين، غير العرب ، ليأخذوا عنه تأويل كتاب دينهم ، ويحدد فهمهم له !

والدكتور هاشم ليس مترجما مسلما فحسب ، ولكنه يتجاوز الترجمة إلى

التفسير ، ومن ثم يعم خطؤه وينتشر ، ويؤثر فى أجيال من القراء ممن يطالعون هذا التفسير المطبوع فى أكبر دور للنشر بلندن ونيويورك ونيودلهى ، والموزع على أوسع نطاق . .

ولنأخذ مثلا : تفسيره لكلمة الوحى الأولى « اقرأ » فى آية العلق : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

بدأ الدكتور هاشم فترجمها بلفظ Call ، أى ادع وناد . ثم مضى يفسرها فقال ما ترجمته الحرفية :

« إن فعل الأمر اقرأ Call ، يجانس من قرب الكلمة الإنجليزية صح -Cray- وهى هنا كأنها قرع الطبل . وتحمل الكلمة أيضاً معانى الأمر بالدعاء، والإعلان، والإشهار ، والإعلام ، والتعليم ، والتبشير » .

وقد يبدو عجيبا أن المفسر لم يجد وهو يسوق كل هذا الحشد من التأويلات للفظ اقرأ ، مكاناً لما يقابلها بالإنجليزية Read وهو أول لفظ يخطر على البال فى ترجمة اقرأ .

ولكن العجب يزول ، حين نمضى معه فنطالع ما جاء به من توجيه لآية الوحى الأولى فيما ساق من تأويلات .

ففى الفقرة التالية مباشرة ، ذكر أن هـذا الأمر بالصياح - Cry - موجود فى « العهـد القديم » خطاباً للنبى اشعياء ، قبل القرآن بنحو ثلاثة عشر قرناً .

واستشهد لهذا بترجمة لآية من سفر أشعياء ، رجعت إليها فى « العهد القديم» فإذا نصها فى أول الإصحاح الثامن والخمسين من السفر :

« ناد بصوت عال ، ارفع صوتك كبوق ، وأخبر شعبي بتعديهم ، وبيت يعقوب بخطاياهم » .

فهل يجد من لهم أدنى معرفة بالعربية ، أى شبه بين هـذه العبارة من العهد القديم ، وبين الآية القرآنية :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ؟

أو هل فيهم من يلمح أى وجه للتنظير بين سفر أشعياء وآية العلق ؟

ثم ماذا بعد هذا الربط ؟

بعده أن الدكتور هاشم استطرد يتحدث عما كان يشغل محمداً ﷺ لسنوات قبل المبعث ، من تفكير فى حال قومه : وما كان يحضر فى ذهنه دائماً من قصص قدامى الرسل ، للعرب واليهود والمسيحيين، وكيف جذبوا أتباعهم من الضلال ، فهل يقدر له أن يفعل مثل ذلك ويسلك فى صف أولئك الرسل ؟

أو بنص عبارة الدكتور :

« Ever present in his mind, the stories of the old prophets omong the arabs, the Jews & the christions . . . »

ومنها يتضح وجه الربط بين أول الإصحاح الثامن والخمسين من سفر أشعياء، وبين آية الوحى الأولى .

ومحمد ﷺ قد أطال التفكير حقاً قبل المبعث ، فى حال قومه وما كانوا عليه من ضلال .

وحقاً كذلك،جاء القرآن الكريم مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، لكن ليس على هـذا النحو من شطط التأويل واعتساف الملحظ وتحميل اللفظ القرآنى « اقرأ » مالا يحتملة من صياح وقرع طبول،لـكى يرتبط بصوت كالبوق فى آية من سفر أشعياء ، وليس بينهما أى شبه ، لفظاً أو سياقاً .

والقول بأن محمدا ﷺ كان يستحضر فى ذهنه دائماً قصص الرسل القدامى إلى العرب ويهود والمسيحيين ، ويتساءل:هل يقدر له أن يسلك فى صف أولئك

الرسل ، يوهم أنه ﷺ تطلع إلى النبوة قبل المبعث،وهذا ما تنفيه سيرته عندما تلقى الوحى ، كما يوهم أنه تأثر فيما أبلغ من رسالته بقصص الرسل القدامى ، وهذا أيضاً ما ينفيه القرآن الكريم نفياً صريحاً ، سواء ما كان من هذه القصص مدوناً فى كتب الدين السابقة :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون »

وما كان من القصص الأسطورية الأولين : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض . . »

ثم يقول الدكتور هاشم بياناً لتأويله :

« وكلمتا اقرأ والقرآن متجانستان : فالأولى فعل أمر والثانية اسم ، وسواء أكانت القراءة مستعملة إذ ذاك فيما يُعلن جَهرة أم لم تكن ، فهى هنا الإعلان الشفهى والإذاعة والخطاب أو الموعظة تُنشر شفاها (بكلمة فم) . وعلى هذا يكون معنى فعل الأمر اقرأ ، مشخصاً لسياسة الدعوة ومتضمناً خطة تبليغها : فقوم محمد كانوا متفرقين مبعثرين وأميين ، والكلمة المكتوبة التى خدمت الدعوات فى شعوب أكثر تقدماً ، لا يمكن أن تصل إلى الطبقات الفقيرة والعبيد فى المدن ، والبدو الضاربين فى الصحارى والواحات والكهوف . وإنما تصل إلى هؤلاء الكلمة المنطوقة وحدها .

« وفى مثل هذه الظروف يكون على الهادى الجديد أن يبلغ رسالته شفوياً . والكلمات ذات أجنحة ! والذى علمه الله بالقلم للقلة ـ من أمم سابقة ، متعلمة ـ التى تجدى معها قوة القلم ، صار الآن بحيث يذاع وينشر ويوصل إلى الكثرة من الجماهير عن طريق الكلمة المنطوقة وحدها ، بكل ما لها من سحر وسلطان عليهم .

« والراجح أن هذا كان فى أصل الديانات القديمة كلها مزامير داود ، ووصايا زرادشت ، وأناشيد ريج فيدا البرهمية . وكل مافى الأمر أن طبيعة القوم الذين كان على محمد أن ينشر دعوته فيهم ، جعلت مهمته أشق وأصعب . فلقد كانوا أكثر بدائية وأشد انفعالا وتأثراً بالشعر منهم بالنـــثر المرسل . وبالرغم من كون موضوع الرسالة الجديدة يختلف تماماً عما ألفوه فى موضوعات الشعر من حب وحرب ونهب — Plunder — كان من الضرورى تبليغها بلغة القوم المنزلة فيهم ، وبمصطلحها فى التعبير ، وأسلوبها فى البيان ، ليكون لها من قوة التأثير ماتنتشر به انتشار الشمس فى الصحراء ... » .

ونسأل : أين هذا كله من كلمة « اقرأ » فى دلالتها العربيـة واستعمالها القرآنى ؟

الذى تعرفه لغتنا — لغة القرآن — أن القراءة تلاوة لنص مكتوب أو غير مكتوب . وللمادة دلالات معجمية أخرى ليس بينها ماجاء به الدكتور هاشم فى ترجمته وتأويله وتفسيره من صياح وقرع للطبول . . .

فإذا احتكمنا إلى القرآن ، نجده استعمل مادة (قرأ) فى ستة وثمانين موضعا ، لاتحتمل إطلاقا ماجاء فى هذا التأويل ، بل هى مما يرفضه وينفيه .

ونحن نجاهد منذ سنين ، لنتوصل منهجاً فى التفسير لايجيز أن يقحم على النص القرآنى مالا يحتمله لفظاً وسياقاً ، ويلزمنا هذا المنهج بألا نفسر لفظا قرآنيا دون استقراء لكل مواضع استعماله فى كتابنا المحكم ، لكى نحرر فهمنا لهذا الكتاب الجليل مما فى كتب التفسير من مدسوسات إسرائيلية ومقحمات مذهبية وأذواق أعجمية .

وقبل أن نختصم مع « الدكتور هاشم أمير » على الأصول المنهجية لتفسير النص القرآنى ،

نسأل كيف جاز أن يمر كلامه فى القرآن الكريم ، على مسمع منا فى جلسات المؤتمر ، دون أن نسأله : هل يسمح أى منهج بمثل ماجاء به من تأويلات ، فى فهم أى نص من النصوص ؟

ثم نسأل قومنا :

كيف جاز أن ينشر مثل كتاب The student Qoran على هذا النطاق الواسع ، مابين نيودلهى ولندن ونيويورك ، دون أن يُفحص ويُرد على مافيه من شطط التأويل !

وكيف لاتراقب هذه الترجمات القرآنية ، ولو بالقدر الذى يراقب به ماينشر فينا من ترجمات وشروح لنصوص من الآداب الغربية ، تجد نقاداً يسهرون على حمايتها من عبث المترجمين وخطأ الشراح وعدوان المتأولين ؟

والقياس مع الفارق البعيد ...

وليس العهد ببعيد ، من غضبة نقاد الأدب عندنا حين عرض مسرحنا « تاجر البندقية » بنصها المترجم بقلم الشاعر خليل مطران ، كما لم يبعد عهدنا بما أنكر النقاد على المنفلوطى من تصديه لترجمة قصص فرنسية ، وهو لم يكن يعرف لغتها .

وتذاكرنا فيما تذاكرنا هناك ، أن الترجمات القرآنية العديدة التى نعرفها ، ليس فيها ترجمة لعربى مسلم !

فالميدان اتسع للمترجمين من مختلف الملل والأجناس فكانوا أحد رجلين :

مسلم غير عربى ، مثل عبد الحكيم ، وميرزا ، ومحمد على ، وغلام سروار ، وعبد الله على ، وهاشم أمير على ...

أو غير مسلم ولا عربى ، من أمثال ألكساندر روس وجورج سيل ، ورودويل ، وبالمر ، وريتشارد بل ، وأربرى . .

ولم يظهر فى الميدان ثالث ، ممن هم أولى به وأقدر عليه : أعنى المسلمين من أصحاب العربية .

فهل كان إحجامنا نحن العرب المسلمين ، لأن فى الأفق لغطا حول ترجمة معانى القرآن ، وقد أفتى بعض القوم بأنها بدعة مستحدثة لم يقل بها السلف الصالح ؟

أو كان هذا الإحجام ، عن تهيب وإشفاق من حمل هذه الأمانة الصعبة ؟

إن كانت الأولى ، فالسلف الصالح لم يكونوا فى القرون الإسلامية الأولى . يواجهون حاجة إلى ترجمة معانى القرآن ، فالشعوب التى دخلت فى الإسلام بعد الفتوح الكبرى ، بادرت إلى تعلم لغة العرب كى تفقه كتاب دينها ، لكننا اليوم نواجه وضعاً شاذا من مخلفات الاستعمار الذى فرض لسانه على شعوب مسلمة، لغة تعليم وثقافة وأدب ، وذريعة غزو فكرى ووجدانى ، فلا سبيل لهذه الشعوب إلى فهم معانى القرآن إلا مترجما إلى اللغات الأوربية .

وإن كانت الأخرى وأحجمنا عن ترجمة معانى القرآن تهيباً وإشفاقا . ففيم كان سكوتنا على ماظهر من ترجمات قرآنية ، ولماذا لم نهتم بمراجعتها وفحصها لنرى فى أى صورة نقل المترجمون كتاب ديننا ، إلى من تتعذر عليهم قراءته فى نصه الأصيل ؟

إن أقدم ترجمة قرآنية إلى الإنجليزية ، هى فيما أعلم ترجمة «ألكساندر روس» التى نشرت سنة ١٦٤٩ وأحدث ترجمة هى هذه التى قدمها «هاشم أمير على» لخمس عشرة صورة من جزء عم ، وطبعت فى نيودلهى ونيويورك ولندن ، عام ١٩٦١

ولا أذكر أنى قرأت أو سمعت عن مقال تصدى ، على ذلك المدى الطويل ، لترجمة من هذه الترجمات بنقد جاد ، وكأن الأمر لا يتصل بكتابنا الأكبر. فإذا لم يعننا أن نراجع الترجمات القرآنية غيرة على الدين وأداء لحق إخواننا المسلمين ممن لا يعرفون القرآن إلا فى هذه التراجم ، فلتكن القضية قضية النص الأعلى للعربية فى أنقى أصالتها ومعجز بيانها ، نتصدى للدفاع عن حرمته ، كما يفعل زملاؤنا المتخصصون فى الآداب الغربية ، يغضبون للنص منها يمسه فى الترجمة تشويه أو تحريف .

* * *

عندما التقينا

هل لى بعد كل هذا الحديث المجهد عن مؤتمر المستشرقين ، فى كلمة أضيفها ، تكملة للصورة عنه ، وتحية لما قدمت إليها الهند فى ختام دورته ؟

لقد كان ختاماً جديراً بهذه الأمة الشرقية العريقة ، ومكملا لما بدأت به الدورة من نشيد الإنسان الذى رتله « الرئيس راداكريشنان » ودعاء السلام الذى هتف به « الزعيم نهرو » .

وإن تكن تحيتى بعيدة فيما يبدو عن موضوع « تراثنا » الذى شغلنا هناك ، فإنها ليست بعيدة عن روح شرقنا ، صاحب هذا التراث .

ولعلى حين أتجه بالتحية إلى « تاج محل » أحاول أن ألفت إلى ما بين الآثار والتراث من صلة وثيقة ، إذ يعبران معاً عن روح الأمة ومزاجها .

* * *

فى المؤتمرات الدولية ، تحرص الدولة الداعية على أن يشاهد الضيوف نموذجا يمثل حضارتها ويعبر عن شخصيتها .

وقد اختارت الهند أن تدعو ضيوفها المستشرقين إلى منطقة « أجرا وفاتح بورسيكرى » ليروا ما بها من آثار تعبر عن روح الشرق ، إيضاحاً وتكملة لما أعطاهم تراثه الفكرى .

والرحلة من نيودلهى إلى أجرا طويلة تستغرق يومين كاملين ، مشحونين ببرنامج حافل . وقد توقع كثير منا أن تجهدهم الرحلة بعد العمل الشاق فى أيام المؤتمر وكرهوا مع ذلك أن تفوتهم الفرصة ، فلبوا الدعوة وهم مشفقون من مشقتها .

لكن الهند استطاعت بالتنظيم الدقيق، الضيافة الكريمة والاستعداد الممتاز، أن تجعل منها رحلة ممتعة مثيرة ، توغلت بنا فى صميم روح الشرق ، ونقلتنا شبه مسحّرين إلى دنيا العجائب .

وكل الآثار فى منطقه أجرا وفاتح بورسيكرى إسلامية . .

وتاريخها يرجع إلى العصر المغولى ، وهو يلتقى زمنا مع العصور الاوربية الوسطى .

وإسلامية هذه الآثار ، ترمز إلى الطابع الدينى المميز لحضارة هذا الشرق ، مهد العقائد والأديان ، ومنزل الرسالات الروحية من قديم الحقب والآباد .

وعظمتها المادية ، ترمز إلى المرحلة التى كان الشرق فيها مركز الحضارة قبل أن تعبر إلى الغرب .

وجمالها العبقرى ، يرمز إلى سر الروح ، يسرى فى الأثر الجامد الأصم ، فينبض بالحياة ويتوهج بحرارة العاطفة ودفئها .

* * *

ولا حق لى فى أن أطيل الاستطراد فأتحدث عما شاهدت هناك من عجائب آثار المنطقة ونحن ننتقل من قلعة أجرا إلى تاج محل وسيكاندرا ، ومن بوابة النصر فى بولاند داروزه إلى مسجد « الشيخ سليم شيستى » وقصر فاتح بور سيكرى .

وإنما يكفى أن أقف عند « تاج محل » أعجوبة الدنيا .

لا لأصف روعة صرحه الشامخ وعبقرى هندسته ، ولا لأنقل ماسمعت من تفاصيل البناء ومواده وأبعاده ونفقاته وعـــدد مهندسيه وألوف العمال الذين تفرغوا لتشييده على مدى سبعة عشر عاماً ...

فالواقع أننى كنت ألقى ظاهر سمعى إلى ما كان الدليل يذكره لنا من كل ذلك وأنا مشغولة البال عنه ، فى تأمل مستغرق يشدنى بعيداً عن الزملاء الذين أمسكوا

بأقلامهم ومفكراتهم ، وراحوا يدونون فى حرص وتتبع ، ما يملى الدليل من شروح وأرقام ...

كنت بينهم حاضرة غائبة :

أصغى إلى إيحاء هذا الصرح العجيب ، ينقلنى عبر مئات السنين إلى مسرح الأحداث لقصة حب خالد قهر الزمان وتحدى الفناء وفرض سلطانه على التاريخ .

وتراءت لى أطياف أبطالها الثلاثة الذين رحلوا عن الدنيا وبليت منهم الأجساد ، وبقيت ذكرى الحب الذى خاض معركته مع شهوة السلطان وجبروت المادة ، وانتصر عليهما .

انتصر على قوى المادة التى تسحق عواطف الإنسان .

كما انتصر على الزمان الذى يلقى بالماضى فى متاهة النسيان ، وعلى الموت الذى يسلم أجسادهم إلى البلى والفناء . .

تراءت لى أطيافهم تتهادى فى نشوة الحب ، ثم تمتد إليها يد النوى فتمزق الشمل ، وتلقى بهم فى مهب إعصار جائح يستنفد كل طاقاتهم المادية ، ولا يبقى منهم سوى وهج الروح وذكرى حب أبدى منتصر .

وعشت قصتهم بكل وجدانى ، وكأن لم تكر عليهم الأيام والليالى ، ولم ينسج الزمان بينى وبينهم حجابا كثيفاً مداه أربعمائة عام !

عشتها منذ جاءت إلى قصر أجرا ، الشابة « البيجوم بانوا ، بنت الوزير يمين الدولة » عروسا رائعة الجمال باهرة الحسن ندية الصبا ، فى ربيعها التاسع عشر ، لتزف إلى ابن عمتها الامبراطورة نورجيهان : « الأمير خوارم ولى عهد الامبراطور جاهانجير ، وحفيد السلطان « أكبر » مؤسس الدولة المغولية بالهند .

ومنحها الامبراطور لقب « ممتاز محل » وعاشت ستة عشر عاما مع زوجها

الأمير ، ينهلان من نبع الحب الصافى ، لا تعكره مسئوليات الحكم ولا تثقله أعباء التاج .

حتى مات الامبراطور الأب « جاهانجير » فى لاهور سنة ١٦٢٧ ، وفى العام التالى أقيم حفل التتويج فى قصر قلعة أجرا ، واعتلى الأمير خوارم العرش باسم « الامبراطور شاه جاهان » .

وزوجته الحبيبة « ممتاز محل » إلى جانبه تحرسه وترعاه وتشاركه أعباء منصبه : حاملة لخاتم الدولة ومستشارة أولى لشئونها .

ولا أحد يذكر أكان حبها النادر لزوجها هو الذى أغراها بحب رعيته من أجله ؟ أم كان قلبها الكبير قد اتسع لحب الزوج والشعب ؟

كل الذى يذكرونه أنها أمضت عاما على العرش، ملء القلوب محبة وإجلالا ، وقد استطاعت أن تلطف بحبها من ضراوة السلطان ، وأن تجمع قلوب الشعب حول زوجها الامبراطور، بجاذبيتها الآسرة ونبل شمائلها وتصديها لحماية المظلومين ورعاية البؤساء .

عاما واحداً فحسب ، ماتت بعده

وقدمت حياتها هبة للحب .

صحبت زوجها ، وهى مثقلة بالحمل ، حين توجه لإخماد ثورة حاكم لإحدى المقاطعات . وهناك فى مدينة « بور هاربر » بالهند الوسطى ، اغتالها الموت وهى تضع وليدتها « جوهرة » .

ومن قبل جوهرة ، كانت ممتاز محل قد ولدت ثمانية بنين وخمس بنات ، اختطف الموت سبعة منهم فى حياتها ، ولكنه عجز عن أن يحرق بنار الثكل ، ذخيرة حبها !

وأودع الملك المحزون جثمانها قبر « أمانة » بحدائق زنداباد ثم عاد بعد ستة

أشهر لحمل رفاتها إلى مدفن مؤقت فى « أجرا » كى يأنس بقربها ريثما يبنى لها « تاج محل » .

وعبث به الحزن فرفض أن يتقبل فى فقيدته أى عزاء ، وانصرف عن شئون الدولة ، وأعلن الحداد العام فى كل أنحاء البلاد ، فحظر استعمال العطور ولبس الحلى وارتداء الثياب الزاهية .

ومضت تسع سنين دأبا ، تم خلالها تشييد المدفن فى تاج محل ، ونقل رفات الحبيبة إلى مثواها الأخير .

وواصل ألوف العمال عملهم ، ثمانى سنين أخرى ، لإتمام الصرح العجيب .

وشحنات المرمر الأبيض تحمل من جابور ، والجواهر والأحجار الثمينة تجلب من بقاع الهند وفارس وعبر جبال همالايا ، وخزانة الدولة مفتوحة ، تجبى إليها ملايين الروبيات لتتدفق سيلا يصب فى تاج محل !

والملك سادر فى حزنه ، لم يعد يعنيه من الدنيا إلا أن يتم تشييد البناء ، ثم يرقد إلى جانب الحبيبة الراحلة .

وطالت سنوات الانتظار وهو يمضى لياليه الطوال أشبه بروح هائمة ، تطيف بمثوى الراقدة الغالية وتتجول هائمة فى حديقة التاج ، حيث حفرت بحيرة تحف بها أشجار الحور الحزينة ، يصغى الملك إلى نواحها كلما هبت ريح ، ويحدق فى مياه البحيرة وهى تبدو لعينيه بحرا من دموع ...

وقد تم تشييد صرح تاج محل عام ١٦٤٨ ، وآن لشاه جاهان أن يعود إلى شواغل الدولة ، ولكنه لم يعد ينتمى إلى هذه الدنيا منذ رحلت عنها « ممتاز محل »

بل لم يعد يعنيه أن ينفد صبر ابنه « أورانجزب » فيثب على العرش بعد عشر سنوات ، ويسجنه فى قاعة ضيقة بقلعة أجرا .

كل ما عناه أن يجد فى جدار محبسه كوة صغيرة يطل منها على مرقد ممتاز محل ، وأن يخلو فى وحدته إلى طيفها ، يناجيها حتى يحين اللقاء .

وقد حان اللقاء بعد سبع سنين ، فأضجعه ولده إلى جوار ممتاز محل ، في المثوى الذى ظل على مر السنين وتتابع القرون ، مزارا للأحياء من كل جنس وملة ...

يشهدون أعجب صرح شيده الحب ، ويحنون رءوسهم خاشعين أمام مغزى الرمز وإيحاء الذكرى .

ويستردون إيمانهم بسر الحياة ..

ويحيون لحظة فى معبد الحب ومجلى الروح ، قبل أن تشدهم الدنيا بأثقالها ، وتلفهم دوامة الوجود المادى بدوارها العنيف وهديرها الصاخب .

وهناك التقينا !

نحن الذين جئنا من شتى بقاع الأرض ، جمعا مختلطا متفاوت الأزياء والألوان ، مختلف الملامح والسمات ، متغاير المذاهب والعقائد .

بعد ثمانية أيام قضيناها فى المؤتمر ، لم نستطع خلالها أن ننسى لحظة أننا ننتمى إلى شرق أو غرب ، وأنا منا المسلمون ومنا المسيحيون والبوذيون ومن لادين لهم .

ولا أفلحنا فى تجاهل ما بيننا من فوارق وفواصل

حتى التقينا فى المعبد

فتاحت الفواصل وارتفعت الحواجز

بنفثة سحر من روح الشرق .

تجلو عن جوهر الإنسان فينا ، ماتراكم فوقه من أحقاد التفرقة وأثقال الملل وأعباء الصراع وكثافة المادة .

وتسرى فى كياننا روحا علوية متألقة بنور الإيمان وحرارة الحب .

كما سرت فى المرمر الأصم والهيكل المادى للصرح الشامخ ، فبثت فيه معنى الوجود وسر الحياة .

وفى رهبة الصمت الخاشع ، تناهى إلى مسمعى من بعيد ، صدى من دعاء الرئيس رادا كريشنان يوم افتتاح المؤتمر :

« تقابلوا معا ، وتحادثوا معا

لعل عقولكم تلتقى ..

فى تفاهم وقربى

ولتكن أفكاركم وعواطفكم وأمانى قلوبكم

نابعة من ضمير الانسان

ومتجهة إلى الحب والخير

وعلى الطريق سيروا معا

نحو وحدة البشر ... »

فهل كان هذا اللقاء بين الجمع الحاشد المختلط مقصودا لذاته من رحلة أجرا التى ختم بها برنامج المؤتمر ؟

مهما تكن جدوى هذه التجربة ، فى استجابتنا لدعاء الانسان ، فإن الرحلة قد حققت هدفها العلمى ، حين قدمت لنا من روح الشرق وملامح شخصيته فى آثاره المادية ، ما يؤكد ويوضح ويكمل ذلك الذى أعطاه تراثه الفكرى والروحى والأدبى .

خاتمة

آن الأوان
دعوة .. ومنهج

- هيئة للتخطيط والتنسيق

- معهد للتراث



(١)

هيئة عليا للتخطيط والتنسيق

أشرت فى محاضرة مضت ، إلى ما لاح على أفقنا من بوادر اهتمام بخدمة تراثنا ، وذكرت بعض الجهود المبذولة فى هذا المجال ، من هيئات علمية وثقافية ودور للنشر .

ومثل هذه الجهود تحتاج بلا ريب إلى تنسيق ، أعتقد أنه لن يتاح لها بغير تشكيل هيئة عليا للتراث ، تمثل فيها كل المراكز والهيئات والمؤسسات الثقافية الطباعية ذات الاتصال بالتراث .

وطبيعة الموضوع تتجه به إلى جامعة الدول العربية ، وتفرض أن تكون الهيئة المقترحة ، من بين مراكزها الثقافية . إذ أن التراث لا يخص قطراً دون آخر من أقطار الوطن العربى ، وإنما هو تراث أمتنا ، ينبغى أن نتعاون على حمايته وإحيائه وتوجيهه لخدمة الحياة .

وهذا الوضع لهيئة التراث فى جامعة الدول العربية ، هو المظهر المعبر عن تقدير قيمة تراثنا وإدراك أبعاده المترامية ، بقدر ما هو سبيل إلى العمل الجاد المجدى لكى يأخذ تراثنا موقعه فى معركة وجودنا المشترك ومصيرنا الواحد .

* * *

مثل هذه الهيئة المقترحة ، تستطيع أن تخطط لإحياء التراث وحمايته وخدمة الحياة به . بحيث تتكامل الجهود فلا تتكرر أو تضيع ، وتتآزر فلا تتبعثر وتتفرق ، وتتناسق فلا يأخذ كل منها طريقه بمعزل عن سواه :

فمعهد المخطوطات فى جامعة الدول العربية ، تكون مهمته السعى الجاد لإحصاء تركتنا من ذخائر التراث ، وإعداد سجل جامع ، يتابع رصد كل ما فى خزائن المخطوطات العربية بالعالم ، وعمل فهرست علمى لهذه الذخائر ، يكون مرجعاً للهيئات والمؤسسات العاملة فى الميدان ، تختار منه ما يجب نشره طبقاً لبرنامج واضح ينفذ على مر السنين .

والمجامع العلمية ، تكون مهمتها الإشراف على تحقيق ما ينشر من نصوص هذا التراث ، تختار لها الخبراء من المحققين والمراجعين . على أن ينسق العمل بينهما فيختص كل مجمع منها بقسم معين من التراث ، كأن يتولى مجمع دمشق الإشراف على تحقيق النصوص اللغوية ، ومجمع بغداد الذخائر التاريخية ، ومجمع القاهرة العلمى مخطوطات تراثنا من العلوم ، ومجمع اللغة العربية تراث الآداب ، ويوزع تراث العلوم الإسلامية على الهيئات والجامعات والمؤسسات الإسلامية ، فى مصر والحجاز وليبيا وتونس والجزائر والمغرب . .

ودور الكتب الكبرى فى أقطار الوطن العربى ، تكون فى خدمة المحققين والمراجعين ، تدبر لهم ما يحتاجون إليه من نسخ مصورة للمخطوطات التى يحققونها ، وتمدهم بأصولى المصادر والمراجع للنص المحقق ، وتعد لهم قاعات خاصة مزودة بأجهزة الخدمه والتحقيق ، يتاح لهم أن يعملوا فيها دون إرهاقهم بإجراءات الاستعارة المكتبية كل يوم ، أو يضنيهم السعى وراء نماذج الخط والورق والمداد،ونسخ المخطوطات التى يحتمل وجودها فى دور أخرى ولا يمكن استعارتها أو تصويرها إلا عن طريق هيئة رسمية .

ومهمة الطبع والنشر،تتولاها المؤسسات الثقافية الكبرى العاملة فى الميدان ، كوزارات الثقافة والأوقاف فى الكويت ومصر وسوريا ولبنان والعراق والمغرب ، ودور الطباعة والنشر ذات الخبرة والكفاية فى هذا المجال ، كمؤسسة دار المعارف ، ومكتبات الحلبي بالقاهرة وعبيد بدمشق والمثنى ببغداد . . . على سبيل المثال لا الحصر . .

* * *

وعلى هذا النحو يتم لمّ الجهود المبعثرة والتنسيق بينها لخدمة حياتنا بتراثنا ، وتآزر الطاقات العلمية والمادية ، وفاء بحق الأمة فى أن تستضىء بتراثها لتستكمل وعى ذاتها وفهم تاريخها ، ومعرفة مواقع خطاها من ماض إلى حاضر . .

* * *

وإذا كانت عملية التوثيق والتحقيق لمخطوطات التراث وهى الدعامة الأساسية للنشر ، تبدو الحاجة ماسة وجوهرية إلى « معهد عال للتراث » يستحق أن ينفرد بحديث خاص .



(٢)

معهد عال للتراث

بين الواقع والمثال

منذ خمسة عشر عاما فى صيف عام ١٩٥٢ على التحديد ، كنا نزور المستشرق الدينمركى « أندرش » فى بيته بمدينة كوبنهاجن ، حيث استقبلنا فى قاعة كتبه التى اتخذها مقاماً له ، بعد أن أعجزته الشيخوخة عن الذهاب إلى الجامعة .

وأخذنى منظره المهيب ، وهو عاكف على مخطوط عربى يدرسه بشغف وصبر ، ويسألنا فى بعض ماغمض عليه من ألفاظه وعباراته ، رغم مايبدو عليه من وهن قواه الجسدية . وشق علينا أن يجهد شيخوخته بمثل هذا العمل المضنى ، فسألته فى إشفاق وتأثر :

ــ أما آن لك أن تستريح من عبء المخطوطات ؟

وأجاب الشيخ من فوره :

ــ كلا يا ابنتى ، فما يزال تلامذتى فى حاجة إلى ، ولا أستطيع أن أتخلى عن العبء فيما بقى لى من العمر قبل أن أطمئن إلى قدرتهم على احتماله ، لكى يظل لوطنى وجوده العلمى فى ميدان الاستشراق .

ونفذت كلمته إلى قلبى وفكرى ، ومن يومها وأنا مشغولة البال بهم التفكير فيما سوف يئول إليه حال مابقى لنا من تراثنا ، عندما تمضى القلة من الأساتذة المتخصصين فى علم التراث ومنهج تحقيق النصوص ، وهم فى الغالب من أساتذة الدراسات العربية والإسلامية موزعين على جامعتنا فى أقطار الوطن العربى ،

حيث لاتتاح لهم فرصة إعداد جيل يخلفهم ، نظراً لتقيدهم بالمقررات التى تلزمهم لوائح الجامعات بتدريسها لطلاب الدرجات الجامعية الأولى ، وليس فيها مجال لمثل هذا التخصص الدقيق ، ولا هى بطبيعتها قادرة على احتماله .

وكلهم من الكهول .

وسوف يصلون إلى سن التقاعد ، واحداً بعد الآخر ، دون أن يخلفوا من بعدهم من يتلقى الأمانة الصعبة ويحمل العبء الشاق .

وكان المفروض أن يتجه عدد من طلاب الدراسات العربية والإسلامية والأدبية واللغوية العليا ، إلى ميدان تحقيق النصوص المخطوطة ، فى رسائلهم التى يعدونها تحت إشراف هؤلاء الأساتذة ، لدرجتى الماجستير والدكتوراه ، حيث يتلقون أصول منهج التحقيق ويتدربون عليها فى التطبيق العملى ، ولكن لوحظ بالتتبع أن أكثر الطلاب يصدون عن هذا الميدان ويؤثرون التخصص فى الفروع الأخرى ، وهى ظاهرة تثير القلق لما يمكن أن تؤدى إليه من فراغ خطير لاحت بوادره منذ سنين .

وفى محاولة لى ، لأستبين موقف الطلاب من هذا التخصص ، عن طريق مناقشة نحو مائتى طالب وطالبة بالدراسات العليا فى أقسام اللغة العربية بالجامعات ، اتضح لى أن الكثرة الغالبة منهم اتجهوا إلى موضوعات تاريخ الأدب والنقد ، وقلة اتجهت إلى النحو واللغة . ولما سألتهم عن زهدهم فى تحقيق مخطوطات التراث ، استخلصت من أجوبتهم أن ذلك يرجع إلى أسباب ثلاثة :

أولها : إشفاقهم من صعوبة هذا التخصص ومن طول الزمن الذى يستغرقه تحقيق مخطوط ودرسه .

الثانى : الجهل بقيمة هذا العمل وجدواه .

والثالث : الإشفاق من ضيق المجال الوظيفى لمن يتخصصون فى علم التراث ، وهم يشهدون مأساة ضياعه فينا ، ويسمعون مايضج به الأفق من صيحات الاستنكار

للاشتغال بهذا القديم البالى ، ويقرأون مايكتب وينشر عن رجعية من يحاولون التنقيب فى صناديق الدمى التى تلهى بها أسلافنا ، فى طور الطفولة العقلية والسذاجة الفكرية .

وعذرتهم جميعاً ...

والأيام تمضى ، وعلماء التراث يمضون معها ...

وكلما ودعنا واحدا منهم ، أحيل إلى التقاعد أو انتقل من دنيانا ، ازداد إحساسى بفداحة الخسارة فيه ، وخوفى على تراثنا فى المستقبل القريب أو البعيد ، ونحن لم نخطط لعملية إنقاذ تواجه هذا الفراغ وتهيء لتراثنا جيلا بعد جيل من الخبراء المتخصصين .

• • •

حتى إذا بدا الاتجاه إلى تخطيط الدراسات الجامعية العليا وتدعيمها بأساتذة بحوث متفرغين لها ، رجوت أن يكون الأوان قد آن لإنشاء « معهد عال للتراث »[١] — على غرار معهد الآثار — يتيح لنا أقصى الانتفاع بخبرة علماء التراث إلى أقصى مدى مستطاع ، ويهيء طاقاتهم لإعداد فوج جديد من المتخصصين .

والمعهد المقترح ، لايمكن أن يلحق بالمرحلة الجامعية الأولى قسما من أقسام كليات الآداب أو دار العلوم أو كلية الدراسات العربية بالأزهر ، لأن الدراسة فى المعهد نوع من التخصص العالى الدقيق لا تسمح به طبيعة هذه المرحلة الأولى بعموميتها ومستوى طلابها ، فضلا عن كونها تحصره فى المجال الدراسى للكلية التى يلحق بها وتوصده فى وجوه من نرجو إعدادهم لتحقيق تراثنا فى الطب والطبيعة والفلك والرياضيات والملاحة والصيدلية والزراعة والقانون . وإنما

(١) نشرت الدعوة إلى هذا المعهد بالملحق الأدبى لأهرام الجمعة فى ١٣/١٢/١٩٦٣ ثم تابعت بيان منهجه المقترح فى الأعداد التالية

يبدأ التخصص لمن أتموا دراستهم الجامعية في هذه الكليات العلمية ، إلى جانب من أتموها فى علوم العربية والإسلام .

ويفتح المعهد أبوابه للطلاب الوافدين من الجامعات والدور العلمية فى مختلف أقطار الوطن العربى والعالم الإسلامى .

وتكون مدة الدراسة فيه عامين ، يدرسون فى أولهما : مجال التراث وأبعاده الموضوعية والزمانية والمكانية ، وتاريخ الكتابة وموادها وحركة التدوين عند العرب وما لابسها من ظروف دينية ومذهبية وقومية ، وحركة الترجمة والتعريب لتراث الشعوب القديمة ، ودور الكتب العربية فى عصر الحضارة الإسلامية ، ومعابر انتقال كنوز التراث إلى الغرب ، وحركة الاستشراق فى مراحل تطوره ، وميادين نشاطه ، ومراكزه وأعلامه ، وكتبه ومؤتمراته ومنشوراته من ذخائر تراثنا . كما يدرسون فهارس المكتبة العربية من العصور الإسلامية الأولى إلى مطلع العصر الحديث ، وفهارس المخطوطات فى الشرق والغرب ، وكتب الطبقات ومعاجم أعلام الأشخاص والبلدان ، والمعاجم اللغوية .

ثم يدرسون قواعد المنهج النقلى ، القـــديم والحديث ، وضوابط الرواية والإسناد فى بيئة علماء الحديث وعلماء اللغة والأدب .

وفى السنة الثانية يدرسون علم الخط العربى ، ثم علم توثيق المخطوطات ، وهو علم بالغ الدقة والصعوبة ، يضع الضوابط للتحقق من أصالة المخطوط والتثبت من صحة نسبه إلى مؤلفه ، عن طريق فحص إسناده ، وورقه ومداده وخطه ، ونسق كتابته والتوقيعات التى قد يحملها لناسخه ، أو ممن قرأوا المخطوط أو تملكوه أو وقفوه . ولا يغنى عن هذا الفحص أن يحمل المخطوط توقيع مؤلفه وتاريخ كتابته أو نسخه ، لاحتمال أن يكون كل هذا منقولا بنسخ متأخر أو مزوراً بتقليد .

ولتقريب الفكرة ، أقول إن صورة من رسم رافاييل أو مايكل أنجلو أو رامبرانت ، لا يمكن أن يكتفى فيها بتوقيع الرسام قد يكون مزيفاً بمهارة ، وإنما يفحص الخبراء الخط والألوان والقماش وأسلوب الرسم وطابعه وروحه ،

قبل أن يطمئنوا إلى أصالة الصورة وصحة نسبها ، وبهذا التوثيق ترتهن قيمة اللوحة ، وتفترق الأصيلة عن المقلدة . والأمر كذلك بالنسبة إلى المخطوط ، لا قيمة له بغير التوثيق الذى يجب أن يسبق كل عمل فى مقارنة كل نسخه الخطية ، وترتيبها حسب أصالتها وطرق إسنادها ومستواها من الأمانة والضبط ، والترجيح بينها فى مواضع اختلافها طبقاً للأصول المقررة لهذا الترجيح .

وينقسم الطلاب بعد هذه الدراسات المشتركة إلى شعب متخصصة ، تبعاً لنوع الدراسة التى تلقوها من قبـل . ويتلقى طلاب كل شعبة ، المنهج العلمى لخدمة النصوص التى يتخصصون فيها : من تفسير ألفاظ النص وتحديد دلالاتها التى يعينها السياق من بين الدلالات المعجمية التى تتعدد للفظ الواحد ، ثم التعريف بأعلام النص وخدمة شواهده ، من حيث تدخل كل هذه الجهود لخدمة النص ، فى توثيقه والتحقق من صحة نسبه إلى مؤلفه وعصره ، فقد يكشف لفظ منـــه أو علم فيه لشخص أو بلد ، متأخر عن عصر المؤلف ، عن زيف المخطوط أو تعديل طارىء عليه .

ويمارسون التطبيق النظرى للمنهج ، فى تقويم عدد من كتب التراث التى نشرت هنا أو فى الخارج ، مما يدخل فى مجال التخصص لكل شعبة ، كى يميز الطلاب ما نشر منها على الأصول المنهجية ، وما أعوزه التوثيق أو شابته شوائب من خطأ أو تشويه أو قصور .

أما التطبيق العملى ، فيمارسونه فى التدريب على مخطوطات لم تنشر ، يحققونها تحت إشراف أساتذتهم ، على أن يزود المعهد بوسائل هذا التحقيق ، من مصورات « ميكروفلم » وجهاز قراءتها ، وصور لنسخ المخطوطات ، ونماذج تاريخية لأنواع الورق ، والخطوط التى صحت نسبتها إلى العصور المختلفة ، وما يمكن الاطمئنان إليه من معاجم لغوية وكتب طبقات ، يدخل فيها عصر المخطوط الذى يتدرب الطالب على تحقيقه .

* * *

وقد يكون من المجدى ، فى الفترة الأولى لإنشاء المعهد ، أن يعد الملتحقون به طلاب بعثات داخلية ، ويوفد المتفوقون منهم بعد إتمام الدراسة فى المعهد ، فى بعثات علمية أو على منح التبادل الثقافى إلى معاهد الاستشراق الكبرى فى أوربا ، مثل ليدن فى هولاندا ، ولينينجراد ، وطشقند وموسكو بالاتحاد السوفييتى ، وروما وصقلية بإيطاليا . يعودون بعدها أعضاء فى هيئة التدريس بالمعهد .

أما بقية المتخرجين ، فيعينون فى وظائف أمناء المخطوطات بدور الكتب والجامعات والمعاهد والهيئات التى تملك خزائن مخطوطات ، وكذلك الوظائف المختصة بالتراث فى الهيئات والمؤسسات العلمية والثقافية .

وسوف يقتضى الأمر أن نجمع علماء التراث من شتى جامعاتنا ومعاهدنا ، ولن يشق علينا أن نحتفظ بمن يبلغون منهم سن التقاعد الرسمى ، ليشتغلوا فى هذا المعهد أساتذة موجهين ، ويفرغوا لإعداد بحوث تراثية على أعلى مستوى .

هذه هى فكرة المعهد كما تمثلتها ودعوت إليها من شهر ديسمبر سنة ١٩٦٣ ، ومضت سنوات حسبت فيها أن الدعوة ذهبت مع الريح ، كغيرها من دعوات .

ثم ما كان أصدق اغتباطى ، حين أصدرت وزارة الثقافة بمصر ، قراراً وزارياً بإنشاء مركز للتراث ، مقره دار الكتب فى القاهرة .

وبدأ المركز فعلا ، يستقبل من الموسم الماضى (١٩٦٧) طلاباً من حملة الشهادة الجامعية الأولى .

يدرسون طبقاً للائحة وضعها « مجلس الأساتذة » الذين ندبوا للعمل فى المركز ، محاضرين ومدربين .

ومع اغتباطى بإنشاء المركز ، ومشاركتى فى العمل فيه منذ بدأ ، أقول إنه بوضعه الحالى يبدو بعيداً عما تمثلت ورجوت . فطلابه من حملة ليسانس الآداب ، وليس فيهم من درسوا العلوم ليدربوا على تحقيق التراث العلمى للإسلام ، فى الطب أو الرياضة أو الطبيعة أو . . .

وأساتذته كذلك ، كلهم من المتخصصين فى علوم العربيـة والإسلام . وهم يشتغلون فيه ندباً ، وليس فيهم أى أستاذ متفرغ للعمل فى المركز .

والدراسة فيه مسائية ، يحضر إليها الأساتذة والطلاب مجهدين بما استنفد عملهم الرئيسى من طاقتهم خلال ساعات النهار .

وأعلم أن وزارة الثقافة تؤمن بجدوى المركز وتقتطع له من ميزانيتها نحو خمسة آلاف جنيه فى العام ، لكن المركز لم يصدر به قرار جمهورى ، يأخذ به مكانه المعترف به بين المعاهد الفنية العالية ، التابعة لوزارة الثقافة ، ويدعم كيانه ، ويمنحه الاستقرار المادى والمعنوى ، ويفسح أمامه مجال الطموح إلى ما نرجوه له .

* * *

وأياً ما كان الوضع ، فإن مجرد قيام مركز التراث بادرة تقدير للحاجة إليه ، وخطوة أولى نحو المثال المرجو . ومن الخير أن يظل قائماً ، مهما تكن ظروفه وأوضاعه ، إلى أن تستجاب الدعوة إلى تشكيل هيئة عليا للتراث ، تتولى النظر فى هذا المركز فى تخطيطها لأمر التراث كله ، وتدبر لتطويره حتى يكون لنا منه المعهد الذى نرجوه لتراثنا .

ولا شك فى أن انتماء معهد التراث إلى جامعة الدول العربية ، يوسع من أفقه المحدود ، بحكم امتداد مجال عملها ، على مستوى الوطن العربى كله .

وبعد فقد يبدو أننى أشق بهذا العبء على أمتى العربية فى معركتها المريرة مع العصابة الصهيونية ، عدو البشر ، وأوليائها من ورثة الاستعمار وأعداء الحرية .

لكنى لا أرتاب فى أن إدراكنا لأبعاد هذه المعركة ، كفيل بأن يرسخ وعينا لقيمة تراثنا ، ويحدد له موقعه فى ميدان الجهاد

والله المستعان ؟

عائشة عبد الرحمن

الفهـــرس

أضواء على تراثنا

آن الأوان

مطبعة الجبلاوي
٢٠٢ شارع الترعة البولاقية